هرمان هيسه

ذئب البراري

الروائي الحاصل على جائزة نوبل للآداب 1946



رواية

ترجمة: أسامة منزلجي

تقديم: محمد هادي الجزيري

هرمان هيسه

ذئب البراري

رواية

ترجمة: أسامة منزلجي

مسكيليانى للنشر

ألف راء

| علامات في الرواية العالمية |

| سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي |

ذئب البراري

الكاتب: هرمان هيسه
عنوان الكتاب: ذئب البراري
ترجمة: أسامة منزلجي
تقديم: محمّد الهادي الجزيري
تدقيق: عبد الله أشباح
مراجعة وتحرير: أنور اليزيدي
خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة
تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان
الناشر: مسكيليانى للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 21512226(216+) أو 537090811(966+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com
ر.د.م.ك: 9-53-833-9938-978

الطبعة الأولى: 2016

ذات يوم سأتعلّم الضحك

عَوَى الذّئبُ فاسْتَأْنَسْتُ بالذّئبِ إذ عَوَى
وَصَـوّتَ إنْسَـــانٌ فكِـدْتُ أَطِيـــرُ.

الأحيمر السعدي

كم جرعة من المعرفة تلزم الإنسان ليحقّق كينونته أثناء إقامته الخاطفة على الأرض، كم جرعة ليفتكّ مكانا ومكانة في زحمة الآخرين؟ وهل الإدمان ضررٌ محض حتّى وإن كان هوسا بالثقافة والعلم والفنون؟ ثمّ ألا يمكن أن تكون السعادة في الضفّة الأخرى من عزلة المثقّف؟ ألا يمكن أن تكون هناك حيث يتحصّن القطيع بالجهل واللامبالاة ضدّ الصداع اليوميّ الذي يتخبّط فيه نزر من الناس اختصروا الحياة ولخّصوها في أكوام من الكتب وقائمات من الموتى «الخالدين»؟

تلك هذه بعض الأسئلة الحارقة التي تثيرها فينا رواية «ذئب البراري» لهرمان هسة، في طوافها طوال التعلّة الحكائيّة واللعبة السرديّة بالنفس البشريّة وما يعتمل فيها من نزوع إلى الذئبيّة وتشبّث بالمشاعر الإنسانيّة وفي مقدّمتها الحبّ والصداقة ومشاركة الناس أحزانهم وأفراحهم بعيدا عن ضجّة المعارف وهلوسة «الأنا العالمة»...

كُتبت الرواية في فترة حرجة من مسيرة الإنسانيّة، ما بين الحربين

العالميتين الأولى والثانية، في مناخ عالمي يطغى عليه القلق والخوف والترقّب، وتتفشّى فيه الدعوات الطافحة بكره الآخرين وبشوفينيّة متوثّبة، مهووسة بفكرة تفوّق «الأنا» و«النحن» على الإنسانيّة جمعاء. ومن هذه الزاوية يمكننا القول إنّ «ذئب البراري» وثيقة تاريخيّة في قالب إبداعيّ، اقتنصت لنا تفاصيل اجتماعيّة وهواجس ثقافيّة ومشاحنات سياسيّة ذات صلة بعشرينيات القرن الماضي، كان لها دور حاسم في تحويل وجهة العالم إلى ما هو عليه اليوم، فالرواية تنقل لنا مرض عصر بعينه واحتقان مثقّف تلك الحقبة وتململه، ولكنّ احتقان الأمس هو ذاته احتقان اليوم، وكأنّ قدرنا أن نظلّ ندور حول المأساة ذاتها. ألا ترفع هذه الرواية الغشاوة عن أعيننا قليلا؟ أليست أسباب التململ أمس هي نفسها أسباب التململ اليوم في عالم نسمه زيفًا بالعالم الجديد؟ إنّها الهواجس ذاتُها والأسئلة ذاتها والحرائق ذاتُها والتجاذبات الدوليّة ذاتُها والأفكار العنصريّة ذاتُها والأطماع الجليّة ذاتها لرأس المال المتوحّش ذاته، وآه من «ذاتُها» هذه، التي جعلت شعار الواحد منّا: «هاتها، لا أرى غير أرض تصرّ على ضمّ ذاتي إلى ذاتِها».

«ذئب البراري»: عمل سرديّ باهر من أبرز سماته الإحاطة بمرحلته الزمنيّة الحرجة والتغلغل في ما وراء الصمت، ولكنّه لا يتنازل عن أدبيّته، شأن الإنسان الّذي لا يودّ التنازل عن ذئبيّته إلى الآن، فجلّ ما يطرحه «ذئب البراري» أسئلةٌ لم تزل متلبّسة بالكائن الإنسانيّ الممزّق بين ذئبيته وتوحّشه، وما يطمح إلى بلوغه من كمال وسكينة... أسئلة تنتقل بكلّ وهجها من جيل إلى آخر، من مثقّف عاش ما بين حربين رهيبتين إلى مثقّفين يتوغّلون في القرن الواحد والعشرين زمرةً من الغرباء المهمّشين المغيّبين بشتّى الوسائل عن عصرهم ومجتمعهم....

تطرّق هرمان هسة بإسهاب نسبيّ إلى ثنائيّة الإنسان والذئب داخل الكائن البشريّ، لكنّ الذئبيّة التي تلبّس بها بطل الرواية كان المراد منها تحقيق الحريّة الفرديّة والاستقلال النفسيّ والفكريّ، فعداؤه لمجتمعه ونقمته عليه، لم ينتجا ذئبا مولعا بالدم وتائقا للقتل، بل إنّ «هاري هاللر» لجأ إلى غياهب نفسه الموحشة رفضا للطقس العام المهيمن على مجتمعه وعلى العالم، الطقس المشحون بالكراهيّة والتحريض على إلغاء الآخر، وقد عبّر هيسه في أكثر من فقرة على لسان بطل روايته عن رفضه للحرب واشمئزازه من الداعين إليها والمحفّزين عليها:

«أثناء احتدام الحرب كنت أناهضها، وبعد انتهائها رحت بين وقت وآخر أستشير السكينة والصبر والإنسانيّة (...) وقاومت الشوفينيّة القوميّة التي كان صوتها يغدو في كلّ يوم أكثر غلوّا وجنونا وانغلاقا».

من الواضح إذن أنّنا أمام «ذئب» هارب من وليمة دم، تنبّأ بالحرب الرهيبة القادمة وخيّر وحشة العزلة على المشاركة في الجريمة الكبرى، لكنّه لم ينج تماما من مشاعر عدوانيّة كاحتقار عيّنة من أصدقائه ومعارفه القدامى والرغبة في إهانتهم إلى أن قاده نفوره منهم إلى مقاطعة العالم برمّته باستثناء صديقة تظهر لتختفي، وصاحبة منزل استأجره، وبعض الأشباح والأطياف المتقاطرين من عالم الكتب والوحشة والهلوسة..

إلى جانب رسمها للمجتمع الألماني في حقبة العشرينيات وتشريح علله وأمراضه المستفحلة، تغوص بنا الرواية في باطن الإنسان وتنقل لنا بإبداعيّة عالية صراعا محموما بين الجمال والبشاعة، بين الحبّ والكراهيّة، بين الانفتاح على الآخر والانغلاق التامّ في وجهه، لا أحد من هذين الضدّين يركن إلى مهادنة الآخر، فالذئب ممثّل الشقّ الأوّل

لا يفوّت فعلا نبيلا وجميلا يقوم به الجانب المشرق في الشخصية دون أن يسخر منه ويُحقّره، والشقّ الثاني يتربّص بضدّه ويحاصره بشتّى طرق التأنيب، هازئًا بعزلته التي تزداد ضيقا يوما إثر آخر، إضافة إلى سؤال الموت الذي يحضر بقوّة في منعطفات الرواية، والرغبة الجامحة في وضع حدّ للضياع داخل الحلقة المغلقة المسمّاة حياة..

سيرى قارئ هذه الرواية نفسه في مواقف كثيرة أوردها السارد في اقتفائه لتشرّد الشخصيّة الرئيسة الباحثة عن معنى للوجود، وهذه ميزة كلّ أثر إبداعيّ خالد، إذ أنّ هرمان هيسه أوغل في الذات الإنسانيّة في المطلق على غرار روايات عظيمة أخرى، مثل «الجريمة والعقاب» لدستويفسكي و«الساعة الخامسة والعشرون» لقسطنطين جيورجيو، و«قطار الليل إلى لشبونة» لباسكال مرسييه، و«1984» لجورج أورويل، وغيرها من الأعمال السرديّة الخالدة بفضل تحقيقها الشرط الإبداعي وتغلغلها في صميم الإنسان بصرف النظر عن الحقبة الزمنيّة التي ينتمي إليها.

سيجد إنسان اليوم المهدّد بموجات التوحّش والتطرّف والانغلاق ومقت الآخر، صوتا يمثّل هواجسه ومخاوفه، ووجها يشبهه في غربته ووحشته، فما اعتمل في باطن «هاري هاللر» من اضطرابات نفسيّة عاصفة وما عاشه من خيبات وآلام، وحتّى ما اكتشفه من نعم الحبّ وصفاته السحريّة، يحدث لأغلب المحشورين اليوم في الغابات المدنيّة التي تُطلق عليها جزافا أسماء «أوطان» و«دول»، وما هي في الحقيقة غير أطر لصراع محموم بين قوى مستضعفة وقوى جائرة وشديدة الجشع، هذا ما تفضحه الرواية وتعرّيه دون السقوط في تقريريّة فجّة أو خطاب أجوف، فقدر المبدع أن يخلق من جرحه وردة، لا أن يعتنق الصراخ فيزيد العالم ضجيجا...

في منعطف حاسم لمجريات الرواية وحياة «هاري هاللر» تظهر المرأة بقوّة داخل غيمة هذا المثقّف المنعزل الغارق في الكآبة والرتابة والمحاط بالهواجس الفظيعة، وبانبثاق الأنثى من خرائب عمره تنقلب حياته رأسا على عقب، وتتفتّح في وجهه العابس أبواب ونوافذ على الحياة بكلّ مباهجها، تتجلّى له المرأة معلنة كلّ أنوثتها وسحرها، تشرق «هرمينه» فجأة في لحظة داكنة من وجوده البائس، كان على وشك الانتحار حين تفتّحت بين يديه وتلبّست بأدوار عديدة، منها دور الرفيقة ذات الصدر الرحب التي لا تكلّ من سماع هلوساته، ومنها دور الأمّ الودود الآمرة الحريصة على تنفيذ أوامرها دون أن تذبل الابتسامة على محيّاها، وفي الحقيقة إنّ لهذه المرأة أفضالا كثيرة على «ذئب البراري» فهي التي ستبعث الإنسان فيه، ستدفع جسده المتكلّس في حلبات الرقص وتبثّ فيه النبض من جديد، وستستدرجه إلى التفاعل مع موسيقى مغايرة لمقدّساته الموسيقية ولروائع قدّيسيه من أمثال موتسارت وهايدن وغيرهما من عباقرة الموسيقى الكلاسيكيّة، لكنّ الهديّة الكبرى التي ستمنّ بها عليه هذه «المرأة الهديّة» في حدّ ذاتها، ستكون «ماريا» تلك الفتاة الرائعة، شديدة النبض عميقة الحسّ، تلك الضاجّة حياة ورغبة وشبقا، والمتدفّقة حسنا وحميميّة ودفئا. لكم يذكّرني تأثير هذه الفتاة المدهشة بالمرأة الغاوية التي روّضت أنكيدو وجعلت من الوحش الهادر فيه إنسانا بفضل فعل الحبّ... ولكن لا أحد من البطلين، لا بطل الرواية ولا بطل الملحمة، استطاع أن يعود إلى عالمه الأوّل، فقد اكتسح «هاري هاللر» ظمأ عارم للّذة والحبّ، واعتراه شكّ عظيم في ماهية حياته وجدواها بين أكوام الكتب وأرواح كاتبيها، في حين أنكرت وحوش البريّة أنكيدو حين شمّت رائحة المرأة فيه..، والسؤال الأبديّ الذي تلقيه علينا الرواية بطريقة

فريدة وراقية، ألا بدّ من المرأة لنصالح الحياة ونقبلها كما كانت وكما ستكون؟ الجواب صريح وواضح لدى هرمان هيسه وعلى لسان بطل روايته: جسد المرأة الرهيف أثقل من متون الأوّلين والآخرين في ميزان الحياة وأكثر فصاحة من أيّ كائن آخر، كتابا كان أو قطعة موسيقيّة أو قصيدة أو لوحة تملأ الدنيا وتشغل الناس:

«خلال تلك الليلة وأنا بجوار ماريا لم يردني الكثير من النوم، لكنّ نومي كان عميقا وترين عليه السكينة كإغفاءة طفل»

أعتقد أنّ من أسباب صمود هذه الرواية في وجه الزمن ومحافظتها على توهّجها، هو نجاحها في سبر أغوار النفس البشريّة في المطلق والتوغّل في ذات «المثقّف» بصرف النظر عن زمانه ومكانه، إذ من الواضح أنّ مرضه واحد وإن كانت تمظهراته مختلفة حسب شكل الإقامة على ظهر هذا الكوكب المذهول، لذلك فـ «ذئب البراري» كما كتب المؤلف في عتبة الكتاب، رواية لا تدعو إلى الموت والدمار، بل على العكس تماما، فهي تؤدّي إلى الشفاء والتوغّل في الحياة، لعبتنا الأبهى رغم عنفها وخطورتها وفخاخها الكثيرة...

« ذات يوم سوف يتحسّن أدائي في اللعبة، ذات يوم سوف أتعلّم كيف أضحك..»

محمّد الهادي الجزيري

تونس في 2016/1/16

ملاحظة المؤلف
(1961)

يمكن فهم الكتابة الشعرية أو إساءة فهمها بطرق متعددة. وفي أغلب الحالات لا يكون الكاتب هو المرجع الصحيح الذي يحدّد أين يكفّ القارئ عن الفهم وأين يبدأ سوء الفهم. وكم من كاتب عثر على قراء بدا لهم عمله أشد شفافية مما بدا له هو نفسه. ثم إن سوء الفهم قد يكون مثمرًا في ظروف معينة.

أمّا في ما يتعلّق بـ «ذئب البراري»، فإنّه يبدو لي، من بين كتبي كلها، الكتاب الأكثر تعرضًا لسوء الفهم وبعنف أشد من أيّ كتاب آخر، ودائمًا يكون القراء الإيجابيون والمتحمسون، وليس أولئك الذين يرفضون الكتاب، هم في الواقع الذين يُبدون ردّة فعل غريبة. وقد تتكرر هذه الظاهرة بشكل جزئي، لا غير، لأنّ هذا الكتاب، الذي كتبته وأنا في الخمسين من عمري، ويتناول، على طريقته، مشاكل تلك الحقبة، غالبًا ما كان يقع في أيدي قراء صغار كثيرًا في السن.

لكني كنت أيضًا أجد باستمرار بين أقراني من القرّاء مَن لم يدرك، على الرغم من إعجابه بالكتاب، إلاّ نصف مرماي، وتلك هي المفارقة. فهؤلاء القراء، كما يبدو لي، قد رأوا صورتَهم في ذئب البراري، وطابقوا أنفسهم معه، وعانوا همومه، وحلموا أحلامه، لكنهم تغاضوا عن حقيقة أن هذا الكتاب يتحدّث عن أمور أخرى، إلى جانب هاري هاللر ومصاعبه، تغاضوا عن عالم ثان، أرقى، عالم

خالد، يتجاوز ذئب البراري، وحياته المثيرة للجدل. فالفكرة الأساسية لهذا الكتاب بكل إشكالاته التي تناقش مسائل الروح، والفنون، والرجال «الخالدين» تتمثّل تحديدا في مواجهة عالم معاناة ذئب البراري وتمزّقه بين الأضداد، بعالم سرمديّ من الإيمان، عالم فائق الخصوبة، صافٍ وإيجابي. وهذا الكتاب يحكي، بلا ريب، عن الهموم والحاجات، ومع ذلك فهو ليس كتاب إنسان يائس، وإنما إنسان مؤمن.

طبعًا، ليس في مقدوري ولا في نيتي أن أسرد على قرائي كيف عليهم أن يفهموا حكايتي. فليعثر كلٌ منهم على ما يهزّه في هذا الكتاب ويكون ذا فائدة له! ولكن سيسعدني إذا أدرك كثير منهم أن رواية ذئب البراري هي بالأساس رواية أزمة ومرض. ولكنّها ليست رواية تؤدي إلى الموت والدمار، بل على العكس: إلى الشفاء.

هرمان هيسه

تمهيد

يضمّ هذا الكتاب المدوّنات التي تركها لنا رجل، يُدعى ذئب البراري، ولطالما كان هو نفسه يستخدم هذه العبارة. وقد يبقى التساؤل قائما عن مدى حاجة هذا المخطوط إلى أيّ ملاحظات تُعَرِّف به مطروحًا للنقاش. إلاّ أني أشعر بحاجة إلى إضافة بضع صفحات أخر إلى ما كتبه ذئب البراري، أحاول فيها أن أدوِّن ذكرياتي عنه. وما أعرفه عنه قليل جدًا. بل، والحق يقال، إني لا أعرف عن ماضيه وجذور نشأته أي شيء. لكني على الرغم من كل ذلك، احتفظتُ بصورة واضحة عن شخصيته، وتعاطفت معها.

قبل بضع سنوات عرَّج المدعو ذئب البراري، وكان عندئذ يناهز الخمسين من عمره، على عمتي يستعلم عن غرفة مفروشة. واستأجر غرفة العليَّة الكائنة في الطابق الأعلى وغرفة النوم المجاورة لها، وبعد يوم أو يومين آخرين عاد مع صندوقين من الأمتعة، وحقيبة كبيرة ملأى بالكتب ومكث معنا مدة تسعة أشهر أو عشرة. وعاش وحده حياة هادئة جدًا، ولولا تقارب غرفتيّ نومنا -وهو ما كان يتيح لنا فرصًا عديدة للتقابل على الدرج وفي الممر- لما تعارفنا قط. وفي الحقيقة، فقد كان رجلاً منطويا على نفسه، إلى درجة لم أعرفها عند أي شخص آخر. لقد كان ذئب بَرارٍ بحقّ، كما كان يسمي نفسه، ومخلوقًا غريبًا، بريًا، وحيّيًا -بل شديد الحياء- قادمًا من عالم آخر غير عالمنا. وأنا حتمًا لم أدرك عمق الوحدة التي انجرفَتْ إليها حياتُه بسبب مزاجه وقدره،

ولا مدى الوعي الذي تقبّل به هذه الوحدة بوصفها قدَرًا، لم أدرك ذلك، إلا عندما قرأت المدوّنات التي خلّفها وراءه. إلا أنّني تعرفت إليه قبل قراءتها بزمن عبر أحاديثنا العارضة ولقاءاتنا، وقد وجدت أن الصورة التي رسمتُها له مدوّناتُه تتفق بشكل جوهري مع الصورة الغائمة وغير المكتملة التي كونتها عنه من خلال معرفتي الشخصية به.

تصادف أن كنت موجودًا لحظة دخل ذئب البراري بيتنا للمرة الأولى وأصبح مستأجرًا عند عمتي. وقد حدث ذلك عند الظهيرة. كانت المائدة قد رُفعت، وكان ما يزال أمامي مدة نصف ساعة قبل أن أعود إلى المكتب. وقد رن الجرس، ودخل من الباب الزجاجي. فسألتْه عمتي وسط نور الصالة الخافت عما يريد. إلا أن ذئب البراري رفع بحركة سريعة رأسه بتقاطيعه الحادّة، وشعره المقصوص بشكل قصير جدًا، وهو يتشمّم ما حوله بعصبية قبل أن يدلي بأي جواب أو يعلن عن اسمه.

قال: «آه، المكان يفوح برائحة ذكية»، ثمّ ابتسم، فابتسمت عمّتي بدورها. أما أنا، فقد وجدت هذا الأسلوب في التعريف بنفسه سخيفًا وشعرت بشيء من النفور منه.

قال: «لقد أتيت من أجل الغرفة التي ستؤجرينها».

لم ألق نظرة متفحصة عليه إلاّ عندما اتجهنا نحن الثلاثة لنصعد إلى الطابق الأعلى. وعلى الرغم من أنه لم يكن ضخم الجثة، فقد كان شبيها برجل ضخم الجثّة في مشيته وهيئته. وكان حسَنَ الهندام، يرتدي معطفًا شتويًا أنيقًا وعلى مقاسه، وإن بدا متّسمًا بالإهمال، حليقَ الذقن، وقد وخط الشيب هنا وهناك شعر رأسه القصير. لم أحبّ على الإطلاق أسلوب تصرفه في أول الأمر. إذ كانت تشوبه مسحة من الضجر والتردد لا تتماشى وقسمات جانب وجهه الحادة

والأخاذة ولا مع نبرة صوته. وقد اكتشفت فيما بعد أن صحته كانت عليلة وأن السير على القدمين يتعبه. وراح، وهو يرسم ابتسامة خاصة -وجدتها كريهة بدورها في ذلك الوقت- يتأمل الدرج والجدران والنوافذ والخزائن القديمة الطويلة. وبدا أن كل ذلك يشيع السرور في نفسه ويسلّيه في وقت واحد. وكان بشكل عام يعطي انطباعًا بأنه آت من عالم غريب، وربما من قارة أخرى. فقد وجد كل شيء فاتنًا جدًا وعجيبًا قليلاً. لا أستطيع أن أنكر أنه كان مهذبًا، بل وودودًا. وقد وافق من فوره ودون إبداء أيّ معارضة على شروط الإيجار وطعام الإفطار وغيرها من التفاصيل، ومع ذلك فقد كان يحيط بالرجل كلّه، كما بدا لي، جوّ غريب، كي لا نقول مُنفّر أو عدائي. استأجر الغرفة وغرفة النوم أيضًا، وأنصت بانتباه وود إلى كل التعليمات المتعلقة بالتدفئة والمياه والخدمة وبقوانين المنزل، ووافق على كل شيء، وعرض على الفور أن يدفع مبلغًا مقدمًا، ومع ذلك بدا في الوقت نفسه أنه لا علاقة له بالأمر كله، وأنه يجد ما يفعله مضحكًا، ولا يستطيع أن يحمله على محمل الجد. وكان من الغريب جدًا والتجربة جديدة عليه، وهو المنهمك بهموم مختلفة تمامًا، أن يستأجر غرفة ويتحدث مع الناس باللغة الألمانية.

بشكل أو بآخر كان ذاك هو انطباعي الذي خرجت به، وما كان حتمًا انطباعًا جيدًا. وعلى الرغم من طابعه الغريب، فقد ترك وجهه وقعًا سارًا في نفسي منذ البداية. وجهٌ متميزٌ ولعله حزين، لكنه متيقظ، متفكّر، قويّ المعالم وينمّ عن ذكاء فائق. ولعلّ رغبته في تمتين العلاقة بيننا، هي التي جعلته ينزع إلى التودّد وحُسن الأدب. صحيح أنّ ذلك كان يكلّفه بعض المشقة على ما يبدو، ولكنّه كان خاليًا من أي ادّعاء، بل على العكس فقد كان يتسم في سلوكه بلمسة مؤثّرة، متوسّلة. وقد

اكتشفت تفسيرًا لذلك لاحقًا، وحينها شعرت بالانجذاب إليه أكثر.

* * *

قبل أن تتم معاينة الغرفتين ويُعقد الاتفاق، كانت ساعة تناول الغداء المخصصة قد انقضت وبات عليّ أن أعود إلى العمل. فاستأذنت بالمغادرة، وتركته في عهدة عمتي. ولدى عودتي ليلاً أخبرتني أنه قد استأجر الغرفتين، وأنه سوف ينتقل إليهما في غضون يوم أو يومين. والطلب الوحيد الذي تقدَّم به هو أن يُكتم أمر وصوله عن رجال الشرطة، لأنه كان يجد في تلك الإجراءات الرسمية والوقوف مطولاً في غرف الانتظار الرسمية ما يفوق طاقة تحركه نظرًا إلى حالته الصحية المتدنية، ولا أزال أذكر جيدًا كيف أدهشني هذا التصرف وكيف أني حذّرت عمتي من الرضوخ لشرطه. فقد بدا لي هذا الخوف من الشرطة منسجما تمام الانسجام مع الجو الغامض والغريب الذي أحاط الرجل به نفسه، ووجدته مثيرًا للشبهات. فشرحت الأمر لعمتي كي لا تضع نفسها في هذا الموقف الضعيف اللين بأي حال من الأحوال إكرامًا لشخص غريب بكل معنى الكلمة، إذ يمكن أيضًا أن تترتب عنه عواقب وخيمة، في غير صالحها. ولكن اتضح أن عمتي كانت قد رضخت لتوها إلى طلبه، بل إنها، في الواقع، استسلمت لفتنة الرجل الغريب وسحره. لأنها لم تكن تقبل قط أي مستأجر إذا لم تقم معه صلة إنسانية، ودية، وأيضًا، إن صح التعبير «عمّاتية»، أو بالأحرى صلة أمومة. ولطالما استغلّ المستأجرون السابقون نقطة ضعفها هذه. لذلك كلّما ظفرت خلال الأسابيع الأولى بعيب من عيوب المستأجر الجديد، كانت عمّتي تقف في صفّه بحماس.

لما لم أكن قط مسرورًا لمسألة التغاضي عن إبلاغ رجال الشرطة هذه، فقد أردت على الأقل أن أعلم ماذا عرفت عمتي عنه وعن ماضيه

ونواياه. وقد عرفَت عنه فعلاً بعض الأمور المتفرقة، على الرغم من أنه لم يمكث إلا فترة وجيزة، بعد مغادرتي عند الظهيرة. قال لها إنه يفكر في قضاء بضعة أشهر في بلدتنا لكي يفيد من المكتبات، ويلقي نظرة على معالمها العتيقة. ويُمكنني القول إن عمتي لم تكن مسرورة كثيرا باستئجار الغرفتين لفترة قصيرة لا غير، ولكن من الواضح أنه كسب حبها على الرغم من طريقته الغريبة في التعريف بنفسه. وباختصار، أُجِّرت الغرفتان، وجاءت اعتراضاتي كلّها بعد فوات الأوان.

سألتها: «لماذا بحق الله قال إن المكان ذكي الرائحة؟».

أجابت ببصيرتها المعتادة: «أعرف السبب جيدًا، فثمة رائحة للنظافة وللترتيب هنا، وللراحة وللجو المحترم. وهذا ما أعجبه. إنه يبدو وكأنه لم يكن معتادًا على ذلك مؤخرًا، وهو مشتاق إليه».

قلت في نفسي، هذا ليس شأني، ثم قلت بصوت عال: «ولكن ماذا ستقولين إذا اتضح أنه ليس نظيفًا وجعل كل شيء قذرًا، أو عاد إلى المنزل وهو ثمل في أوقات مختلفة من الليل؟».

قالت وهي تضحك: «سنرى، سنرى». وتركت الموضوع عند هذا الحد.

وفي الحقيقة، لم يكن لمخاوفي أي أساس من الصحة. صحيحٌ أن المستأجر لم يكن يعيش حياة منظمة كثيرًا أو معقولة، ولكنّه لم يسبب لنا أي قلق أو مشكلة، وبقينا على فكرتنا الحسنة عنه. بل إنّنا أصبحنا أنا وعمتي، منزعجيْن لأجله وقلقيْن عليه إلى حد كبير، ولا أخفيكم سرًا إن قلت إنّني ما أزال أفكّر فيه إلى حدود هذه اللحظة. وكثيرًا ما أحلم به ليلاً، فقد كان لذلك الرجل بمجرّد وجوده بيننا تأثير كبير في نفسي، مُزعِج باعث على الحيرة إلى أقصى حد، على الرغم من أنّي صرت أحبّه.

* * *

بعد يومين من ذلك، أحضر أحدُ الحمَّالين أمتعةَ الرجل الغريب: هاري هاللر. كانت لديه حقيبة جلدية أنيقة جدًا، تركتْ انطباعًا حسنًا لديّ، وصندوق ثياب كبير تشير الآثار التي عليه إلى أنّه سافر بعيدًا، أو على الأقل ذلك ما يبدو من شعارات الفنادق ووكالات الأسفار الملصقة عليه، وهي تعود إلى بلدان مختلفة، بعضها يقع عبر البحار.

ثم ظهر هو بنفسه، وبدأت الفترة التي أخذتُ أتعرف خلالها وبالتدريج على الرجل الغريب. في أول الأمر لم أقم بأية مبادرة مشجعة. وعلى الرغم من أن هاللر أثار اهتمامي منذ لحظة رؤيتي له للمرة الأولى، فلم أقم بأي خطوة خلال الأسبوعين أو الثلاثة الأول لأقابله مصادفة أو لأنخرط معه في حديث. ومن ناحية أخرى أعترفُ بأني، ومنذ الوهلة الأولى، أوليته شيئًا من انتباهي، وزيادة على ذلك صرت أدخل إلى غرفته بين حين وآخر عندما لا يكون موجودًا ويدفعني فضولي إلى أن أقوم ببعض التلصص.

لقد أعطيت لتوي وصفًا لمظهر ذئب البراري. إنه يعطي انطباعًا لدى النظرة الأولى بكونه رجلاً مهمًا، استثنائيًا، وموهوبًا خارقًا. وجهه يحمل تعبيرًا متفكرًا، وحركات قسماته المتحولة والرقيقة بشكل شاذ تعكس روحًا ذات حساسية مرهفة رهافة عجيبة وعاطفية إلى أقصى حد. وعندما يتحدث المرء معه ويُسقط هو الرسميات، وهذا لا يحدث كثيرًا، ويبدأ بسرد أمور شخصية وذاتية من عالمه الغريب، عندئذ لا يسع رجلا مثلي إلا أن يقع تحت تأثير سحره فورا. كان يفكر أكثر من بقية الناس، وفي أمور الفكر كان يتصف بتلك الموضوعية الهادئة، بذاك اليقين الفكري وبالمعرفة التي لا يملكها بحق إلا المفكرون، المفتقرون إلى الطموح، الزاهدون في التألق، أو في إقناع

الآخرين ولا يعنيهم الظهور بمظهر العالم المالك لليقين.

أذكر هنا حادثة حول هذا وقعت خلال أيامه الأخيرة هنا، إذا حق لي أن أعتبر مجرد نظرة خاطفة رماني بها مثالاً لما أعني. كان ذلك عندما أعلن مؤرخ وناقد فني مشهور، ذائع الصيت في أوروبا، عن إلقاء محاضرة في قاعة الجامعة. ونجحت في إقناع ذئب البراري في حضورها، على الرغم من أنه في أول الأمر لم يبد أية رغبة في ذلك. وذهبنا معًا، وجلسنا متجاورين. وعندما صعد المحاضر إلى المنصة وبدأ خطابه، أصيب العديد من مستمعيه الذين توقعوا رؤية ما يشبه النبي بالخيبة، إذ وجدوه شخصًا متأنقًا معجبًا بنفسه. وحين باشر، على سبيل المقدمة، بذكر بعض العبارات المتملقة للحضور، شاكرًا حضورهم بأعداد كثيفة، رماني ذئب البراري بنظرة سريعة، نظرةَ شخص مشحون بنقد للكلمات الملقاة ولكامل شخصية المتكلم، نظرة مخيفة لا تُنسى، فصاحتها تختصر مجلدات. نظرة لم تكن ببساطة تنتقد ذاك المحاضر، ماحقةً الرجل المشهور بسخريتها الساحقة ومع ذلك المرهفة -فذلك أضعف الإيمان- بل كانت أقرب إلى الحزن منها إلى السخرية. لقد كانت بحق حزينة حزنًا صرفًا عاجزًا، كانت تعبر عن يأس صامت، مصدره من ناحية الإيمان الراسخ، ومن ناحية أخرى نمط في التفكير أصبح عنده اعتياديًا. ويأسه هذا لم يعمل فقط على فضح المحاضر المعجب بنفسه ونبذ الموضوع الحاضر، والموقف المتوقع من الجمهور، والعنوان الوقح نوعًا ما للمحاضرة بسخريته – لا، إن نظرة ذئب البراري نفذت في كامل مرحلتنا الزمنية، في كامل نشاطها المجهد، كامل جيشانها وكفاحها، كامل تفاهتها، كامل التحرك السطحي لعقلانية ضحلة وعنيدة. ويا حسرتاه! بل لقد غاصت النظرة أعمق، إلى أبعد من مجرد أخطاء وعيوب وعجز عصرنا

وفكرنا وحضارتنا. لقد وصلت حتى قلب الإنسانية برمتها، عبّرت بفصاحة وخلال لحظة واحدة عن كامل يأس رجل مفكر، رجل عرف ربما كامل قيمة حياة الإنسان ومغزاها. وكأنها كانت تقول: «انظر أي قرود نحن ! انظر، هذا هو الإنسان !». وعلى الفور إذا بكل شهرة وكل ذكاء وكل منجزات الروح وكل ارتقاء نحو ما هو سامٍ، وعظيمٍ وباق في الإنسان ينهار ويغدو مزاحًا ثقيلاً !.

بهذا كنت قد قطعت شوطًا بعيدًا، ووصلني جوهر ما عناه لي هاللر، خلافًا لما كنت قد خططت له ونويته في الواقع، في حين أن هدفي الأساسي كان أن أكشف النقاب تدريجيًا عن صورته أثناء سردي لسياق تعرّفي المتدرج إليه.

الآن، وبعد أن قطعت شوطًا بعيدًا جدًا لم أعد مضطرًا إلى زيادة أي شيء عن «غرابة» هاللر المحيّرة، وإلى كشف المراحل التي مررتُ بها لفهم أسباب هذه الغرابة، هذه العزلة الشاذة والمخيفة ومغزاها. وهذا أفضل، لأني أرغب في إبقاء شخصي أنا في الظل قدر الإمكان. لا أريد أن أدوّن اعترافاتي الخاصة، أو أن أحكي قصة، أو أن أكتب مقالة عن علم النفس، بل أن أسهم ببساطة، بوصفي شاهد عيان، في إضاءة صورة الشخص المتميز الذي خلّف وراءه مخطوطة ذئب البراري هذه.

لدى نظرتي الأولى إليه، عندما جاء إلى منزل عمتي شامخًا برأسه كعصفور، وأخذ يمدح رائحة المنزل الذكية، أدركتُ على الفور اتّسامه بطابع خاص، وكانت ردة فعلي الغريزية الأولى هي المقت. فقد ارتبت (وقد شاركتني ريبتي تلك عمتي التي كانت خلافي تمثل نقيض الإنسان العقلاني) – أقول ارتبت في أنّ الرجل مسكون بعلّة ما، ربّما هي علّة في الروح، أو في مزاجه أو في شخصيته، فنفرت منه بغريزة الإنسان الصحيح. هذا النفور حلّ محله مع مرور الزمن تعاطف

بوحي من شفقتي على إنسان عانى طويلاً وعميقًا، وقد شهدتُ موت عزلته وموت كيانه الداخلي. وفي ذلك الوقت ازداد إدراكي بأنّ سرّ بليَّته لا يعود إلى أي عيب في طبيعته، وإنما بالأحرى إلى فيض في المواهب والقدرات غير المتناغمة. وجدت أن هاللر عبقري في المعاناة، وأنه قد خلق في داخله، بالمعنى الذي ينطوي عليه العديد من أقوال نيتشه، مقدرة مبدعة، مخيفة، لا تنضب، على تحمّل الألم. وأدركتُ في الوقت نفسه أن أساس تشاؤمه لا يكمن في ازدرائه للعالم بل في ازدرائه لذاته، لأنه مهما بالغ في قسوته عندما يصب جام غضبه على المؤسسات والأشخاص فإنه لم يستثن نفسه مرّةً واحدة. كان دائما يصب كرهه ومحقه على ذاته. وهنا لا أقوى على منع نفسي من إبداء ملاحظة نفسيّة. فعلى الرغم من قلة معرفتي بحياة ذئب البراري، إلا أن لديّ سببًا وجيهًا لأفترض أن تنشئته تمّت على أيدي والدَيْن مخلصين، لكنهما قاسيان وشديدا الورع، وعلى أساتذة متطابقين مع المبدأ الذي يجعل من تحطيم الإرادة حجر الزاوية في التثقيف والتنشئة. ولكن في هذه الحالة لم تنجح محاولة تدمير الشخصية وتحطيم الإرادة. لقد كان أقوى وأقسى، وأشد كبرياءً وشجاعة. وبدلا من تدمير شخصيته لم ينجحوا إلا في تعليمه أن يكره نفسه. وراح يعمل طوال حياته، وهو البريء والنبيل، على توجيه كل طاقة خياله وكل تفكيره ضد نفسه، وكان طوال الوقت يصب على نفسه كل نقد لاذع، وكل غضب وكراهية يمكنه أن يستحضرها، وعلى الرغم من كلّ ذلك، يمكن اعتباره مسيحيًا صميمًا وشهيدًا حقيقيًا. أما الآخرون والعالم من حوله فلم يكفَّ قط، بمحاولته البطولية والجادة، عن حبهم، وإنصافهم، وكفّ الأذى عنهم، لأن حب جاره كان مفروضًا عليه بقوّة مثل كراهيته لنفسه، وهكذا أصبحت حياته بأكملها مثالاً

على أن حب المرء لجاره مستحيل دون حبه لنفسه، وعلى أن كراهية الذات في الحقيقة هي أنانية صرف، ولا تخلّف على المدى الطويل غير اليأس والعزلة القاسية.

لكن، لقد حان الوقت الآن لأضع أفكاري الخاصّة جانبًا وألتزم بالوقائع. إن أول ما اكتشفته عن هاللر، بواسطة التجسس من ناحية، ومن ناحية أخرى مما استقيته من ملاحظات عمتي، يخص أسلوبه في الحياة. إذ سرعان ما اتضح أنه يقضي أيامه مع أفكاره الخاصة ومع كتبه وأنه لا يمارس أي مهنة عملية. وكان دائمًا يلازم فراشه حتى ساعة متأخرة من الفترة الصباحية. ولا ينهض في الأغلب قبل الظهيرة ثم ينتقل من غرفة نومه إلى غرفة الجلوس وهو يرتدي بذلته. وغرفة الجلوس، وهي غرفة رحبة ومريحة وفيها نافذتان، لم تعد على حالها بعد مرور بضعة أيام خلافًا لما كان يحدث مع المستأجرين الآخرين. لقد امتلأت، ومع مرور الوقت كانت تزداد امتلاءً. فقد عُلّقت صور على الجدران، وثُبتت رسومات بمسامير – أحيانًا تكون صورًا مقصوصة من مجلات، وكثيرًا ما تتغير. فكنت ترى هناك منظرًا طبيعيًا من المناطق الجنوبية، وصورًا فوتوغرافية لبلدة ريفية ألمانية صغيرة، واضح أنها مسقط رأس هاللر، وبينها كانت هنالك لوحات مرسومة بالألوان المائية البراقة، اكتشفنا فيما بعد أنه هو الذي رسمها. ثم كانت هناك صورٌ فوتوغرافية لصبية جميلة، أو – بالأحرى – فتاة. وظلت صورة سيامية لبوذا معلقة على الجدار ردحًا طويلاً من الزمن، بدّلها أولاً بنسخة من «الليل» لمايكل أنجلو، ثم بصورة شخصية للمهاتما غاندي. وكانت الكتب تملأ خزانة الكتب الكبيرة وموزعة أيضًا في كل مكان آخر على الطاولة وعلى طاولة الكتابة العتيقة الجميلة وعلى الصوفا وعلى الكراسي وفي

كل بقعة من الأرضية، وفي داخلها قصاصات من الملاحظات كانت تتبدل باستمرار. وكانت الكتب تزداد على الدوام، فبالإضافة إلى الكتب التي كان يحملها بملء ذراعيه عائدًا بها من المكتبات كان دائما يتلقى حزمًا منها تأتيه بالبريد. وكان يمكن لقاطن هذه الغرفة أن يكون رجل علم، وعبق دخان السجائر، الذي يفعم المكان، شاهدٌ على ذلك، بالإضافة إلى أعقاب السجائر المنتشرة في كل أرجاء الغرفة. غير أن الجزء الأكبر من الكتب لم يكن كتبًا تعليمية، كان أغلبها أعمالاً لشعراء من كافة الأزمان والشعوب. وعلى الصوفا حيث اعتاد أن يقضي أيامًا طوالاً كانت تتوزع ولفترة طويلة المجلدات الستة كلها لعمل بعنوان «رحلة صوفيا من ميمل[1]إلى ساكسوني» – ينتمي إلى الردح الأخير من القرن الثامن عشر. والأعمال الكاملة لغوته وأخرى لجان بول تبدو عليها علامات الاهتراء، وأيضًا نوفاليس، وليبسنغ، وجاكوبي، وليختنبرغ. وعدد من مؤلفات دوستويفسكي غلظت من كثرة ما تحتويه من قصاصات الملاحظات المدونة بقلم الرصاص. وعلى الطاولة الكبيرة وبين الكتب والأوراق كان يوجد غالبًا إناء للزهور. وهناك أيضًا صندوق دهان، غالبا ما يكون مملوءًا بالتراب، يرتاح بين رقائق رماد السيجار وأيضًا (لكي لا أدع شيئًا) قناني متنوعة من النبيذ. وكانت هناك زجاجة مغطاة بالقش تحتوي عادة نبيذًا أحمر إيطاليا، يتدبر جلبه من محل صغير من الحي، وغالبًا ما تكون هناك أيضا زجاجة من برغندي بالإضافة إلى ملقا، وزجاجة قصية وثخينة من براندي الكرز فرغت تقريبًا، كما لاحظت، خلال فترة وجيزة – وبعد ذلك اختفت في إحدى زوايا الغرفة، لتمكث هناك وتجمع التراب دون أن ينال محتوياتها مزيد من النقصان.

---

(1) ميمل، أو كلايبيا: مرفأ على البلطيق. حاليًا في ليثوانيا. (المترجم).

لن أتظاهر بتبرير عمل التلصص هذا الذي قمت به، وسوف أقول بصراحة إن كل هذه الإشارات التي تدل على حياة مفعمة بالفضول العقلاني، ويعمُّها، مع ذلك الإهمال والاضطراب، أثارت في أول الأمر كراهيتي وريبتي. فأنا لست فقط رجلاً ينتمي إلى الطبقة الوسطى، يعيش حياة منظمة، واعتدت على العمل والحرص على الشكليات، بل أنا أيضًا لا أشرب الخمر، ولا أدخن، وتلك الزجاجات الموجودة في غرفة هاللر أثارت انزعاجي أكثر مما أشاعته بقية مظاهر فوضى الفنانين.

كان غير منظم ومستهترًا فيما يخص مواعيد وجباته بقدر ما كان كذلك بخصوص ساعات نومه وعمله. فكانت تمر أيام لا يخرج خلالها مطلقًا من المنزل، ولا يتناول قهوته في فترة الصباح. وأحيانا كانت عمتي لا تعثر إلاّ على قشرة موز تشهد على أنه قد تناول طعامًا. غير أنه في أيام أخر كان يتناول وجباته في المطاعم، تارة في أفضلها وأرقاها، وتارة أخرى في حانات الضواحي الصغيرة. ولم تبد صحته على ما يرام. وإلى جانب مشيته العرجاء التي كثيرًا ما كانت تجعل ارتقاءه الدرج أمرًا متعبًا، بدا أنه مُبْتل بمشاكل صحيّة أخرى، وقد أخبرني ذات مرة أنه منذ سنتين لم يستمتع بطعام ولم ينعم بنوم هادئ. وقد أرجعت الأمر أولاً وأخيرًا إلى معاقرة الخمر. وعندما صرت، لاحقًا، أصحبه أحيانًا إلى مسكنه كنت كثيرًا ما أرى بأم عيني كثرة ما يشرب عندما يكون في مزاج حسن، ولم أره أنا ولا أي شخص آخر قط وهو سكران بمعنى الكلمة.

مازلت أذكر إلى الآن لقاءنا الأول. وعندئذ لم يكن أحدنا يعرف الآخر إلا كنزيل يقطن غرفة متجاورة له. وفي إحدى الأمسيات عدت من العمل فتملّكتني الدهشة حال دخول المنزل، إذ وجدتُ هاللر جالسًا على مسطبة الدرج بين الطابقين الأول والثاني. كان جالسًا

على الدرجة العليا فتنحّى جانبًا ليفسح لي مجالاً للمرور. سألته إن كان على ما يرام وعرضت عليه أن أساعده على الصعود إلى أعلى. ولكنّه نظر إليّ مذهولا فأدركت أني أيقظته مما يشبه حالة نشوة. وبدأ ببطء يرسم ابتسامته الرقيقة المثيرة للشفقة التي طالما ملأتْ قلبي حزنًا. ثم دعاني لأجلس إلى جانبه. فشكرته وقلت إنه ليس من عادتي أن أجلس على الدرج عند عتبات أبواب الناس.

قال، وقد اتسعت ابتسامته: «آه، نعم، أنت محق تمامًا. ولكن انتظر لحظة، إذ لا بد لي أن أخبرك بالسبب الذي حداني إلى الجلوس هنا بعض الوقت».

أشار وهو يتكلم إلى مدخل شقة الطابق الأول، حيث تقطن امرأة أرملة. ففي المساحة الصغيرة ذات الأرضية الخشَبية الكائنة بين الدرج والنافذة والباب الأمامي ذي الألواح الزجاجية، كانت تقوم خزانة طويلة من الخشب الماهاغوني، عليها بعض الأواني البيوترية، وأمام الخزانة على الأرض كانت هناك نبتتان، أزاليا وأروكاريا، داخل أصيصين كبيرين موضوعين على قاعدتين منخفضتين. وبدت النبتتان جميلتين جدًا وكنت غالبًا ما ألاحظ بسرور أنهما ملساوين ونظيفتين تمامًا.

واصل هاللر قائلاً: «انظر إلى هذه الردهة الصغيرة والأروكايا بعبيرها الذكي الرائع. إنني كثيرًا ما أعجز عن المرور دون أن أتوقف برهة. وعند باب غرفة عمتك أيضًا، هناك تنبعث رائحة رائعة من النظام والنظافة الضافية، لكن هذا الركن الصغير الذي يضم نبات الأروكيا نظافته شديدة الإشراق، متقن النظافة واللمعان والصقل، نظافة منيعة إلى درجة التلألؤ المُبهر. وكنت كلما مررت به لا بد أن أستنشقه بعمق، ألا تشم رائحته أنت أيضًا؟ ما أروع عبير هذا

المكان! – إنه شذا مادة الصقل مع أثر أخف من مزيج النزبنتين مع خشب الماهاغوني وأوراق النبات المغسولة، والنظافة البرجوازية المغالى فيها، والعناية والرقة، والإحساس بالواجب وتكريس الوقت للأشياء الصغيرة. أنا لا أعرف من يسكن هناك، ولكن لا بد أن خلف هذا الباب جنة من النظافة والمقدرة المثالية، من الأساليب المنظمة، والإخلاص المؤثر والقلق على عادات الحياة الصغيرة ومهامها».

ثم تابع عندما رأى أني لزمت الصمت: «أرجو ألا تظن ولو برهة أني أسخر. لست أنا، يا سيدي العزيز، من يضحك لأي سبب كان من الحياة البرجوازية. صحيح أني أعيش في عالم مختلف، ليس في هذا شك، وربما ما كنت لأحتمّل العيش يومًا واحدًا في منزل يحتوي نبات أروكايا. ولكن على الرغم من أني ذئب برارٍ عجوز، إلا أني مع ذلك ابن لأم، وأمي بدورها كانت زوجة رجل برجوازي، زرعت نباتات وحرصت على أن تحقق لمنزلها ولحياتها المنزلية أقصى ما في إمكانها من نظافة وأناقة وترتيب. وقد أستعيد ذكرى كل هذا بسبب هذه النفحة من النزبنتين والأروكايا، وهكذا تراني أجلس من وقت لآخر هنا وأملي ناظري من هذه الحديقة الصغيرة الهادئة من النظام والبهجة التي مازالت تؤلفها هذه الأشياء».

همَّ بالنهوض، لكنه ألفى ذلك صعبًا عليه، ولم يمانع في أن أمدّ له يد القليل من العون. وقد لزمت الصمت، لكني استسلمت كما حدث مع عمتي لسحر خاص كان في وسع الرجل الغريب أحيانًا أن يمارسه عليَّ. ومضينا معًا ببطء نرتقي الدرج، وعندما وصلنا إلى باب غرفته، وكان المفتاح في يده، نظر مرة أخرى في عينيّ نظرة وديّة وقال: «هل أنت عائد من مركز عملك؟ طبعًا أنا لا أعرف الكثير عن كل هذا. إنني أعيش حياة منزوية، على حافة الأشياء، كما ترى. ولكن أعتقد

أنك متعلم وأن لديك حصيلة جيدة من اللغة اليونانية. وقد مررت هذا الصباح بفقرة من نوفاليس. هل لي أن أريها لك؟ سوف تفرحك، أنا أعرف هذا».

صحبني إلى داخل غرفته التي كانت تفوح بقوة بعبق التبغ، وأخرج كتابًا من إحدى الأكوام، وقلّب الصفحات، وراح يبحث عن الفقرة.

قال: «وهذه أيضًا جيدة، جيدة جدًا. اسمع هذه: «على الإنسان أن يفتخر بمعاناته. إن كل معاناة هي تذكير لنا بمنزلتنا الرفيعة». رائع! قال هذا قبل نيتشه بثمانين عامًا. ولكن هذه ليست الجملة التي عنيت. انتظر لحظة، ها هي. هذه: «إن أغلب الناس لا يسبحون قبل أن يتمكنوا من ذلك». أليس هذا قولاً حاذقًا؟ طبعًا لن يسبحوا! لقد ولدوا للأرض الصلبة وليس للماء. وطبعًا هم لا يفكرون. لأنهم خلقوا للحياة، وليس للفكر. ومَنْ يفكر، بل أكثر من ذلك، من يتخذ من الفكر عملاً له، قد يغوص عميقًا فيه، لكنه يكون بهذا في كل الأحوال قد غادر الأرض الصلبة من أجل الماء، وذات يوم سيغرق».

عندئذ كان قد حاز على إعجابي. لقد أثار اهتمامي، وأطَلْتُ مكوثي معه فترة قصيرة، وبعد ذلك صرنا كثيرًا ما نتحدث عندما نتقابل على الدرج أو في الشارع وفي مثل تلك المناسبات كان دائمًا ينتابني في البدء الإحساس بأنه يسخر منّي. لكن ذلك لم يكن صحيحًا. لقد كان يكنّ لي احترامًا حقيقيًا، بقدر الاحترام الذي أبداه للأروكايا. وكان مقتنعًا كل الاقتناع بعزلته وواعيًا بها، مقتنعًا بسباحته في المياه، بكونه مُجتثًا من الأرض، بحيث أن نظرة سريعة بين حين وآخر إلى الدورة اليومية المنتظمة -كدقتي، مثلاً، في المحافظة على أوقات عملي، أو بتعبير يلقيه خادم أو قاطع التذاكر في حافلة- كانت تعمل عمل عنصر منبّه دون أن تثير أدنى قدر من ازدرائه. وفي أول الأمر بدا هذا كله

لي مجرد مبالغة سخيفة، وادعاءً للّباقة. ونزعة عاطفية عابثة. لكني توصلت شيئًا فشيئًا إلى أن أرى أنه، من موقعه وسط فيافيه الذئبية القاحلة والموحشة، كان معجبًا بعالمنا البرجوازي الصغير ويحبه كشيء صلب وآمن، كالبيت والسكينة اللذين يجب أن يبقيا نائيين ولا يمكن بلوغهما، ولا وجود لدرب يوصله إليهما. فقد كان ينزع قبعته لخادمتنا الطيبة كلما قابلها، وباحترام جمّ، وعندما تسنح لعمتي فرصة التحدث إليه، لتلفت نظره ربما إلى وجوب إجراء إصلاح في ملابسه الداخلية أو لتحذّره من أن ثمة زرًا في معطفه قد أضحى محولاً ورخوًا، ينصت إليها بسيماء من الانتباه الفائق والاهتمام العظيم، وكأنما ليس في استطاعته أن يشق طريقه بصعوبة خلال أي شق يؤدي إلى عالمنا الصغير وأن يشعر بألفة فيه ولو لساعة من الزمن إلا إذا بذل جهدًا يائسًا متطرفًا.

خلال ذاك الحديث الأول الذي دار بيننا حول نبات الأروكايا، أطلق على نفسه لقب ذئب البراري، وهذا بدوره زاد قليلاً من شعوري بالغربة والاضطراب. يا له من تعبير! ولكن، لم تكن العادة وحدها التي صالحتني معه، فسرعان ما بت لا أعرفه إلا بذلك اللقب، ولا أجد حتى هذا اليوم وصفًا أفضل منه. ذئب برارٍ أضاع طريقه وضلّ، فولج حينها البلدان وحياة القطعان، وهذه صورة لا مثيل لها لوصف عزلته الحييّة، ووحشيته، واضطرابه، وحنينه إلى منزل، وافتقاده الدائم له.

تمكنت مرة واحدة من مراقبته خلال أمسية كاملة. وقد حدث ذلك خلال حفل موسيقي سيمفوني. وكم كانت دهشتي كبيرة إذ وجدته جالسًا إلى جواري. ولكنّه لم يرني. في أول الأمر استمعنا إلى قطعة موسيقيّة لهاندل[1]، موسيقى نبيلة وجميلة، فيما كان

(1) جورج فريدريك هاندل (1685-1759): موسيقي ألماني (المترجم).

ذئب البراري مستغرقًا في أفكاره الخاصة، نائيًا عن الموسيقى وعما يحيط به على السواء. جلس مسدلاً عينيه، منفصلاً ووحيدًا، يسود وجهه تعبير بارد ولكنّه طافح بالحزن. تلَت موسيقى هاندل مقطوعة قصيرة لباخ[1]. وبعد عزف بضع نغمات دهشتُ إذ رأيته قد بدأ يبتسم ويستسلم للموسيقى. تقوقع داخل ذاته تغمره السعادة، وغاص في أحلام لذيذة، حتى إني خلال ما لا يقل عن عشر دقائق كنت أوليه من الانتباه أكثر مما أوليت الموسيقى. وعند انتهاء عزف القطعة الموسيقية استيقظ، ثم استقام في جلسته، وقام بحركة من يهمّ بالمغادرة، غير أنه لزم مقعده أخيرًا، وأخذ ينصت إلى المقطوعة الأخيرة. وكانت «تنويعات» لريجير[2]، وهي مقطوعة يجدها الكثيرون طويلةً ومملة. حتى ذئب البراري الذي أجبر نفسه في أول الأمر على الإنصات عاد إلى الشرود، ووضع يديه في جيبيه، واستغرق من جديد في أفكاره الخاصة، ليس بسعادة وعلى نحو حالم كما حدث من قبل، وإنما بحزن وأخيرًا بانفعال. ومرة ثانية خلا وجهه من أي تعبير، وعلاه الشحوب ثم انطفأ، وبدا عجوزًا مريضًا وساخطًا.

رأيته مرة ثانية بعد الحفل الموسيقي في الشارع ورحت أسير وراءه. مضى في سبيله، ملفعًا بردائه، يبدو عليه الغم والإرهاق، ميممًا وجهه شطر بيتنا، لكنه وقف أمام حانة قديمة الطراز، صغيرة، وبعد أن استشار ساعة يده بتردد، ولج المكان. فاستسلمتُ لفضولي وتبعته، وفي الداخل جلس إلى إحدى الطاولات، في الجزء الخلفي من الحانة، فحيَّته المضيفة والنادلة كما ترحب بضيف معروف جيدًا. وحييته، واتخذت لي مجلسًا خلفه. وبقينا جالسين هناك مدة ساعة، وبينما

---

(1) يوهان سباستيان باخ (1685-1750): موسيقي ألماني (المترجم).

(2) ماكس ريجير (1873-1916): موسيقي ألماني (المترجم).

أنا أشرب كأسين من المياه المعدنية، كان يروي عطشه بالنبيذ الأحمر، وسرعان ما طلب مقدارًا آخر. ألمحت له إلى أني كنت موجودًا في الحفل الموسيقي، لكنه لم يول الموضوع اهتمامًا. وقرأ الرقعة الموجودة على زجاجتي وسألني إن كنت أرغب في شرب بعض النبيذ. وعندما رفضت عرضه وقلت إني لا أشربه أبدًا، اجتاح وجهه مرة أخرى تعبير عاجز.

قال: «معك كل الحق في هذا. أنا نفسي امتنعت عن شرب الخمر سنين عديدة، وصمت عن الطعام أيضًا، ولكن أجدني من جديد منضويًا تحت برج الدلو، وهو برج رطب ومظلم».

ثم، عندما قابلت تلميحه بالمزاح وقلت معقبًا كيف أنه من غير المعقول بالنسبة إليّ أن يؤمن مثله بالتنجيم، استعاد على عجل نبرته الموغلة في التهذيب، النبرة التي طالما آذاني بها، وقال:

«أنت محق. لسوء الحظ، أنا أيضًا لا أؤمن بذلك العلم».

استأذنت وانصرفت. ولم يعد إلى المنزل إلا في وقت متأخر جدًا، لكن إجراءه كان كالمعتاد، وكعهده دائماً، بدل أن يتوجه مباشرة إلى السرير، مكث مدة ساعة أخرى في غرفة جلوسه، كما سمعت بسهولة من غرفتي المجاورة له.

هناك أمسية أخرى لا أنساها. فقد كانت عمتي خارج المنزل وكنت وحدي. وإذا بجرس الباب يرن، ففتحت الباب، وإذ بي أمام امرأة شابة، وعلى قدر من الجمال، وحالما سألت عن السيد هاللر، تعرفت عليها من الصورة الفوتوغرافية المعلقة في غرفته. ودللتها على باب مسكنه وانسحبت. لم تمكث معه إلا فترة وجيزة، وسرعان ما سمعتهما يهبطان الدرج ويخرجان معًا، وهما يتجاذبان أطراف الحديث ويضحكان بسعادة غامرة. ودهشت أيما دهشة لمعرفتي أن للناسك حبيبة، على قدر كبير من الصبا والجمال، والأناقة، ومرة أخرى

اضطربت كل حدوسي حوله وحول حياته. ولكن قبل انقضاء ساعة من الزمن عاد وحده، وجر نفسه جرًا بإعياء وهو يرتقي الدرج بخطوته الثقيلة والحزينة. وظل على مدى ساعات يقطع أرض غرفة جلوسه بهدوء جيئة وذهابًا، تمامًا كذئب داخل قفصه. وظلت غرفته مُضاءة طوال الليل إلى حدود الصباح. لم أعرف أي شيء عن علاقتهما، وليس لدي ما أضيفه إلا هذا. وفي مناسبة أخرى رأيته بصحبة هذه السيدة. وكان ذلك في أحد شوارع البلدة. كانا يسيران متشابكي الذراعين وبدا غاية في السعادة، فتعجبت من جديد من فيض السحر – يا له من تعبير يكاد يكون طفوليًا – ذلك التعبير الذي يظهر أحيانًا على وجهه المثقل بالغم. وهو ما علّل لي سبب وجود الفتاة الشابة معه، وأيضًا الحنو الذي تكنّه عمتي له. ولكن في ذلك اليوم أيضًا عاد في المساء، حزينًا وبائسًا كالمعتاد. قابلته عند الباب، وكان يحمل تحت ردائه، كما فعل مرارًا عديدة من قبل، زجاجة من النبيذ الإيطالي، وسهر معها حتى منتصف الليل داخل عرينه في الطابق العلوي. وسبّب ذلك لي الحزن. أي حياة صعبة، بائسة، ضائعة، يعيش !.

والآن، لقد ثرثرت بما فيه الكفاية. لم يعد ثمة حاجة إلى مزيد من التقارير والأوصاف لتبيان أن ذئب البراري يعيش وجودًا انتحاريًا. ولكن مع ذلك لا أظنه انتحر عندما غادر بلدتنا واختفى، بعد أن دفع كل ما يترتب عليه دون أن يترك كلمة إشعار أو وداع. ومنذ ذلك الحين، لم نسمع أي شيء عنه وما زلنا نحتفظ ببعض الرسائل الموجهة إليه. ولم يترك وراءه غير مخطوط كتبه خلال فترة وجوده هنا، وتركه مع إهداء مؤلَّف من بضعة أسطر يقول فيها إن في إمكاني أن أفعل به ما أشاء.

لم يكن بمقدوري التأكّد من حقيقة التجارب المثبتة في مخطوطة

هاللر. ولا شك لدي في أنه زائف في غالبيته، ولكن ذلك لا يعني الاختلاق العشوائي. بل إنه في الحقيقة سرد للوقائع الروحية المعاشة بعمق. وهذه الوقائع الروحية التي حاول أن يعبّر عنها بإلباسها لباس التجارب الملموسة والحوادث الوهمية جزئيًا في مؤلّف هاللر قد يكون منشؤها الفترة المتأخرة من مدة مكوثه هنا، ولا شك عندي في أن لها صلة من الصلات بالواقع. ففي ذلك الوقت طرأ في الحقيقة على ضيفنا تبدل كبير في السلوك وفي المظهر. كان يغيب عن المنزل كثيرًا، ليالي كاملة أحيانًا، وبقيت كتبه كما هي ولم يلمسها. وفي المناسبات النادرة عندما كنت أراه في ذلك الوقت كنت أفاجأ كثيرًا بما يتسم به من حيوية وشباب. بل إنه في الواقع كان يبدو أحيانًا سعيدًا سعادة لا ريب فيها. وهذا لا يعني أنه لم يكن يتبع ذلك وعلى الفور كآبة جديدة، وشديدة الوطأة. عندئذ كان يستلقي على السرير طوال النهار، ويفقد شهيته إلى الطعام. وفي تلك الفترة تعود المرأة الشابة مرة أخرى إلى الظهور، ويقع شجار عنيف جدًا، بل يمكن أن أقول وحشي، يشيع اضطرابًا عارمًا في المنزل يظل هاللر بسببه يلتمس العذر من عمتي لعدة أيام بعده.

كلا، أنا واثق من أنه لم ينتحر. إنه ما يزال حيًا، وهو في مكان ما يسير بإعياء صاعدًا درج أحد المنازل الغريبة أو وهابطًا منه. إنّه في مكان ما، يحدِّق إلى أرضيات خشبية منظفة تنظيفًا أنيقًا، وإلى نباتات أروكاريا أولِيَت عناية فائقة، يجلس أيامًا طوالاً في مكتبات عامة ويمضي ليالي كاملة في الحانات، أو ينصت، وهو مستلق على صوفا، إلى العالم تحت نافذته وضجيج الحياة الإنسانية التي يعرف أنه مقصيٌّ عنها. لكنه لم ينتحر، لأنّ داخله ما يزال قبس من الإيمان يأمره بأن يجرع كأس هذه المعاناة، وهذه المعاناة المخيفة المعتملة في

قلبه حتى آخر قطرة، وبأن عليه أن يموت متأثرًا بهذه المعاناة. إنني كثيرًا ما أفكر فيه. صحيح أنّه لم يدخل البهجة إلى حياتي، ولم يكن موهوبًا في تغذيتي بالقوة والفرح. أوه، بل على العكس! لكني لست مثله، وأنا أعيش حياتي الخاصة، حياة الطبقة الوسطى الضيقة، الحياة المتينة، المملوءة بالواجبات. وهكذا نستطيع، عمتي وأنا، أن نفكر فيه بسلام وبحب. وهي لديها أكثر مما لدي لتقول عنه، لكنه يظل مخبّأ في قلبها الرقيق.

والآن، وقد وصلنا إلى مدوَّنات هاللر، هذه الأوهام المريضة من ناحية، والجميلة والمراعية للمشاعر من ناحية أخرى، يجب أن أعترف بأنّها لو وقعت بين يدي مصادفة ولم أكن أعرف هوية مؤلفها، لكنت غالبًا رميت بها جانبًا وأنا أمتعض. ولكن بما أنّني كنت على معرفة بهاللر فقد كان في استطاعتي، إلى حد ما، أن أفهمها بل حتى أن أستحسنها. وكنت ترددت في أن أتقاسمها مع أناس آخرين لو أني وجدت أنها ليست أكثر من هلوسات مَرَضيّة ذات طبيعة منفردة ومعزولة وليدة مزاج مريض. لكني أرى فيها ما هو أكثر من ذلك. إني أراها تمثل وثيقة عصرها، لأن مرض روح هاللر، كما بت أعرف الآن، لا يخص غرابة أطوار فرد واحد، وإنما هو مرض العصر نفسه، وهو عصاب ذلك الجيل الذي ينتمي إليه، ويبدو أنه لا يهاجم بأي حال من الأحوال الضعفاء والتافهين فقط وإنما بالأحرى أولئك الأقوى في الروح والأغنى في المواهب.

هذه المدوَّنات، بغض النظر عمّا قد تنطوي عليه من الحياة الواقعية، ليست محاولة لإخفاء مرض عصرنا الواسع الانتشار وتلطيفه. بل هي محاولة لتقديم المرض نفسه بمظهره الحقيقي. إنها تعني، حرفيًا، رحلة عبر الجحيم، وهي تارة مخيفة، وأخرى شجاعة،

رحلة في عماء عالم تعيش أرواحه في الظلام، رحلة مُشرعة على الجحيم من طرف إلى طرف لإضفاء الكفاح على العماء، ولتحمّل الشرّ حتى النهاية.

إن ذكرى حديث أجريته مع هاللر هو الذي أوحى لي بهذا التفسير. فقد قال لي ذات مرة عندما كنا نتحدث عما يُدعى بالممارسات التي لم يكن لها وجود» إن إنسانًا من العصور الوسطى لجدير بأن يمقت كامل نمط حياتنا اليومية الحاضرة، بعد أن تخطّت الرعب والوحشيّة بكثير، بل إنّها تخطّت البربريّة نفسها.

لكل عصر، لكل حضارة، لكلّ عادة، ولكلّ تراث شخصيته الخاصة المميزة، وضعفه الخاص وقوته الخاصة، وجمالياته وقسوته، وهو يتقبل معاناة معينة كأمر اعتيادي، ويتحمل بعض الشرور بصبر. تغدو الحياة الإنسانية معاناة حقيقية وجحيمًا، فقط عندما يتراكب عصران، وحضارتان ودينان. وكان جديرًا بإنسان العصر الكلاسيكي أن يختنق إذا ما اضطر إلى أن يعيش في العصر الوسيط حياة بائسة تمامًا كما يحدث لإنسان همجي وسط حضارتنا. وقد مرت أوقات حُشر خلالها جيل كامل بين عصرين، بين نمطين من الحياة، وبهذا فَقَدَ الإحساس بذاته، وبكل الأخلاقيات، بشعوره بالأمان وبالبراءة. ومن الطبيعي ألاّ يشعر كل إنسان بهذا بالقوة نفسها. لقد كان لابدّ لطبيعة كالتي اتصف بها نيتشه أن تعاني أمراضنا الحاضرة، قبل وقتها بجيل كامل. وما عاناه وحده وأسيء فهمه، يعاني منه اليوم الآلاف من الناس».

إنني كثيرًا ما كنت أفكر في هذه الكلمات وأنا أقرأ المدوّنات. إن هاللر ينتمي إلى أولئك الذين حُشروا بين عصرين، الموجودين خارج كل أمان وبراءة. إنه ينتمي إلى أولئك الذين قُدّر لهم أن يعيشوا كامل

لغز القدر الإنساني الذي تصاعد حتى درجة العذاب الشخصي، الجحيم الشخصي.

هناك، كما يبدو لي، يكمن المعنى الذي نبتغيه من وراء هذه المدوّنات، ولذلك قررت أن أنشرها. أما الباقي فلا آبه له البتة، وليفعل كل قارئ ما يمليه عليه ضميره.

مدوّنات هاري هاللر
«للمجانين فقط»

مضى النهار كغيره من الأيام، قتلته وفقًا لأسلوبي البدائي المنعزل في الحياة، عملت مدة ساعة، وقرأت صفحات كتب عتيقة، عانيت آلامًا مدة ساعتين، كما يحصل مع العجائز. تناولت مسحوقًا مخدّرًا وفرحت كثيرًا عندما وافق الألم على التلاشي. ثم تمدَّدت في حمّام حار ورحت أتشرَّب دفأه الرحيم. وجاءني البريد ثلاث مرات برسائل مقيتة ورسائل سارّة لأتفحصها. قمت بتمارين التنفس، لكني وجدت أنه من المناسب اليوم أن ألغي التمارين المقررة. خرجت لأتمشى ساعة من الزمن، ورأيت أجمل تشكيلات غيوم ريشية مرسومة على صفحة السماء. شيء مبهج جدًا، مثله مثل قراءة الكتب العتيقة والتمدّد في حمّام دافئ. ولكن، في الإجمال، لم يكن دقيقا اعتبار هذا اليوم يوما بهيجا جدّا. كلا ، أبدا، حتى أنه لم يكن يومًا يلوّح بالسعادة وبالفرح ولو من بعيد، وبالأحرى كان مجرد أحد تلك الأيام التي أضحت منذ زمن طويل من نصيبي، أيام رجل ساخط في منتصف عمره، فاترة، مقبولة ومحتملة بشكل تام، وسارَّة باعتدال، أيام بلا آلام خاصة، بلا هموم خاصة، بلا قلق معين، بلا يأس، أيام يجب أن يتم التساؤل عنها، بانفعال أو قلق، بصورة هادئة ونبرة اعتيادية، هذا إن لم يحن الوقت لأحذو حذو أدالبرت شتينتد ويقع لي حادث مميت أثناء حلاقة ذقني.

إن من عاش الأيام الأخرى، —أيام الغضب من نوبات النقرس،

أو أيام ألم الرأس الفظيع المتغلغل خلف مقلتيّ العينين، ألمٌ يرسل نوبة إلى كل عصب من أعصاب العين والأذن مع استمتاع شيطاني بالعذاب، أو تلك الأيام الشريرة، المحطِّمة للروح، من شدّة الخواء الداخلي واليأس، عندما يكشّر عالم الرجال أو ما يسمّى بالحضارة في وجوهنا، على هذه الأرض الخربة التي امتصتها هامات المال حتى الجفاف، يكشّر كفتنة امرأة شقراء، فتنة وقحة، مبتذلة وكاذبة، ويتعقبنا بإلحاح دواءٍ يثير القيْء، وعندما يتركز كل شيء على الذات المريضة، ويبلغ في تعذيبها آخر درجات ما لا يطاق— فإنّ مَنْ عرف هذه الأيام الجحيمية قد يرضى فعلا بأيام شبه عادية كهذا اليوم. تجلس قرب مدفأة تشعّ دفئًا وأنت ممتنّ، وتشعر باطمئنان ممتنّ وأنت تطالع صحيفتك الصباحية، لأن نهارًا جديدًا قد طلع ولم تندلع حرب جديدة، ولا أُقيم حكم ديكتاتوري جديد، ولا كُشف النقاب عن فضيحة مثيرة لتقزز بالغ في أوساط السياسة أو المال. وتعدّل وأنت ممتنّ أوتار قيثارتك الصدئة على مقام مزمور الشكر الملطَّف، والمرح بقدر مقبول، كلا، بل حتى المبتهج، وتشيع الملل في إله قناعتك البين—بين الثمل قليلاً والمترهل والهادئ. وسط جو الملل القانع والدافئ والثقيل وغياب الألم المرحَّب به بسرور، يتجلّى الإله البين—بين حانيا رأسه بفعل النعاس ويظهر الرجل البين—بين بشعر قليل الشيب وهو يرتل مزموره مكتوم الصوت. إنهما يبدوان كتوأم.

يمكن أن يقال الكثير لصالح القناعة والألم، لصالح هذه الأيام المقبولة والمذعنة التي لا أثر فيها لألم أو لمسرَّة، وكل شيء فيها مجرد همس وتجوُّلٍ على رؤوس الأصابع. غير أن أسوأ ما في الأمر هو أن هذه القناعة في حدّ ذاتها لا أقوى على تحملها. وسرعان ما تملؤني باشمئزاز وغثيان لا طاقة لي على كبحهما. وعندئذ، وفي غمرة يأسي،

لا يبقى إلا أن أهرب إلى مناطق أخرى، وإذا أمكن أنطلق في الطريق المؤدية إلى اللذة، وإذا تعذر ذلك، ففي الطريق المؤدية إلى الألم. وعندما لا تتوفر لي لا اللذة ولا الألم، وأكون قد تنفّست منذ فترة هواء هذه الأيام التي توصف بالجيدة والمحتملة، هواء تافه وفاتر، حينها أشعر بامتعاض شديد في روحي الصبيانية، فأهشم قيثارتي الشاكرة الصدئة في وجه إله القناعة الناعس وأفضّل أن أشعر بأشد الآلام فظاعة يتلظى داخلي على دفء غرفة حسنة التدفئة. هذا لأن توقًا ضاريًا إلى المشاعر العنيفة والأحاسيس المخرّبة يضطرم داخلي، وحنقًا على هذه الحياة العقيمة، العادية، الراكدة والرتيبة، ينتفض في أعماقي. إن لدي محفّزًا مجنونًا لتهشيم شيء ما، ربما مستودع أو كاتدرائية أو نفسي، لارتكاب أعمال مشينة، لأنتزع الشعر المستعار عن بضعة أصنام موقرة، لأزوّد بضعًا من أولاد المدارس المتمردين ببطاقة ذهاب إلى هامبرغ طالما تاقوا إلى الحصول عليها، ليغووا فتاة صغيرة، أو ليجعلوا واحدًا أو اثنين من ممثلي النظام الراسخ يقفان على رأسيهما. لطالما كرهت ومقتُّ ولعنت أكثر من أي شيء آخر هذه القناعة، هذه الصحة التامة والراحة، والتفاؤل الذي تحرص الطبقات المتوسطة على الحفاظ عليه، وهذا النسل من الأناس العاديين السمينين والمزدهرين.

بهذا المزاج أنهيت هذا النهار العادي جدًا والمقبول عند وقت الغروب.لم أنهه بطريقة جديرة برجل عليل يأوي إلى السرير تحت إغواء زجاجة من الماء الحار، بل إنني بدل ذلك انتعلت حذائي وأنا نكد المزاج، ساخط وممتعظ من العمل المتواضع الذي قمت به، وخرجت إلى قلب الظلمة والشوارع المغلقة بالضباب لأشرب ما يسمى، وفقًا لتقليد قديم، «كأسًا من النبيذ»، في الحانة التي تحمل لافتة «الخوذة الفولاذية».

وهكذا رحت أهبط الدرج المنحدر من عليّتي بين الغرباء، ذاك الدرج المفروك جيدًا والنظيف، درج المنزل المؤلف من ثلاثة طوابق، والمؤجر ثلاث شقق لعائلات محترمة جدًا. ولا أدري كيف يحدث دائمًا أن أنتقي، أنا، ذئب البراري الشرير، المنعزل كاره أعراف الحياة الحقيرة، شققي في أمثال هذا المنزل. إنها نقطة ضعفي الأثيرة. فأنا لا أقطن أبدًا في منازل فخمة، ولا في تلك التي تخص الفقراء المعدمين، وإنما وعن عمد أكتري بيوت الطبقة الوسطى تلك النظيفة تماما والمضجرة والمحترمة، والتي تفوح بعبق التربنتينية والصابون وحيث يشيع الرعب إذا ما قرعت الباب أو دخلت بحذاء قذر. إن حبي لهذا الجو نشأ، ولا ريب، من أيام طفولتي، وأضمر توقًا سريًا إلى شيء ما عائلي يقودني لأطرق، دون ما كبير أمل، الدرب الأحمق القديم نفسه. إلا أني أيضًا أحب التقاطع ما بين حياتي الفوضوية تمامًا، المنهكة، الناضبة من الحب والموحشة، وهذه الحياة العائلية على طريقة الطبقة الوسطى. أحب أن أستنشق وأنا على الدرج هنا الشذى من الهدوء والنظام، من النظافة والألفة البيتية المحترمة. ثمت شيء فيه يؤثر فيَّ على الرغم من كرهي لكل ما يمثله. أحب أن أعبر عتبة غرفتي ومن ثم أن أرميه فجأة خلفي، أن أرى رماد السيجار وزجاجات النبيذ بين أكوام الكتب ولا شيء غير الفوضى والإهمال، وحيث كل شيء –الكتب والمخطوطات والأفكار–، أكون موسومًا ومشبعًا ببلية الرجال المتوحدين، بمشكلة الوجود وبالتوق إلى توجه جديد في عصر فقد مضامينه.

والآن أصل إلى نبتة الأروكاريا. فأقول لك إنه عند الطابق الأول من هذا المنزل يمر الدرج على ردهة صغيرة عند مدخل إحدى الشقق، أنا متأكد من أنها قد كُنست بشكل أشد دقة وزُيّنت أكثر من الأخريات،

لأن هذه الردهة الصغيرة تلمع ببراعة تدبير منزلي فوق إنساني. إنه عبارة عن معبد صغير من النظام. وعلى الأرضية الخَشَبية، حيث يبدو من التدنيس وطؤها، يوجد حاملان أنيقان وعلى كل منهما أصيص كبير، تنمو في أحدهما نبتة أزاليا، وفي الآخر نبتة أروكاريا الفخمة، هي شجيرة مستقيمة النمو، مزدهرة، عيِّنة مثالية تعكس حتى آخرِ شويكة في أعلى طرف غصين مدبّب فخر الاعتناء الدائم بها، وأحيانًا عندما أعرف أنه ليس ثمّت من يراقبني، أستخدم هذا المكان كمعبد. وأتخذ لي مجلسًا على إحدى الدرجات فوق مكان نبتة الأروكاريا، وأستقرّ برهةً مرتاحًا مضموم اليدين، أتأمل هذه الحديقة الصغيرة من النظام، وأدع الجو المؤثر المحيط بها، ووحشتها المثيرة نوعًا ما للسخرية، يهزاني حتى أعماق روحي. وأتخيل أنّ وراء هذه الردهة في ظل نبتة الأروكاريا المقدس، إن صح التعبير، بيتًا مملوءًا بخشب الماهاغوني البراق، وحياة مفعمة ببسمات الاحترام الراسخة - كالاستيقاظ باكرًا وإيلاء أداء الواجب كل الاهتمام، واجتماعات عائلية متحفظة ولكن يشيع فيها البشر، والتوجه إلى الكنيسة في صبيحة يوم الأحد والإيواء إلى النوم باكرًا.

رحت أطأ بجذل عابث أرصفة رطبة في شوارع ضيقة. كانت المصابيح تومض كأنها تذرف الدموع من خلف حجاب، من خلال الكآبة الباردة، وتمتص ببطء انعكاساتها من الأرض الرطبة. واستعدتُ ذكرى سنين شبابي المنسية. كيف كنت أحب أماسي أواخر الخريف والشتاء المظلمة الحزينة. ويا للفهم العارم الذي كنت أتشرب به ما تبثه من مشاعر الوحشة والكآبة وأنا أسير بخطى واسعة متلفعًا بردائي، تحت المطر والعواصف حتى منتصف الليل، خلال المشهد الشتائي العاري، وبي أيضًا ما يكفي من الوحشة، لكني مترع بفرح

عميق، مملوء بالشعر الذي دونته فيما بعد على نور الشمعة وأنا جالس على حافة السرير، كل هذا أصبح ماضيًا الآن. لقد فرغ الكأس ولن يُملأ مرة أخرى. أكان هذا شيئًا يستحق الندم؟ كلا، أنا لم أندم على الماضي. بل كان ندمي على اليوم الحاضر، على كل الساعات والأيام التي لا تحصى والتي ضيَّعتها في سلبية محض لم تكسبني أي شيء، ولا حتى صدمات اليقظة. ولكن، والحمد لله، بقيت هناك استثناءات. فقد كانت تمر بين حين وآخر ساعات، وإن نادرًا، تجلب معها الصدمة المنتظرة، فتهدم الجدران، وترجعني من جديد من جولاتي، إلى قلب العالم النابض. وأصمّم، وأنا متأثر بحزن ولكن بعمق، على أن أتذكر آخر هذه التجارب. فقد كنت أحضر حفلة موسيقية تُقدَّم فيها موسيقى قديمة جميلة. وبعد عزف النغمات القليلة الأولى على البيانو إذ بالباب يفتح فجأة على العالم الآخر. وانطلقت بأقصى سرعة أمخر عباب السماء، ورأيت الله يقوم بعمله، وعانيت آلامًا قدسية. تخليت عن كل وسائل دفاعي عن نفسي، ولم يعد يخيفني أي شيء في العالم كله. تقبَّلت كل الأشياء ووهبت قلبي لكل الأشياء. ولم تستمر التجربة طويلاً، ربما ربع ساعة، لكنها ارتدّت إليَّ في الليل حلمًا، وصرت منذ ذلك الحين، وعلى مدى كل الأيام القاحلة، ألمحها بين حين وآخر. وكنت أحيانًا أراها بوضوح مدة دقيقة أو دقيقتين، فتخترق حياتي كمسمار لامع وقدسي. غير أنها كانت دائمًا تقريبًا غبشة بالقذارة والغبار. ومن ثم تعود لتومض بشرارات ذهبية وكأنها لن تضيع أبدًا، لكنها سرعان ما تختفي تمامًا من جديد. وقد حدث ذات مرة، وكنت مستلقيًا يقظًا أثناء الليل، أني رحت فجأة أنشد أبياتًا شعرية، شعرًا جميلاً وغريبًا حتى أني لم أغامر بالتفكير في تدوينه، وفي الصباح كانت قد تلاشت، إلا أنها ظلت مخبأة في داخلي مثل نواة الثمرة القاسية، داخل القشرة

الهشة العتيقة. وذات مرة صادفتها بينما كنت أقرأ لأحد الشعراء، وأنا أتدبّر إحدى أفكار ديكارت أو باسكال، ومرة أخرى سطعت ومدت أثرها اللامع بعيدًا داخل السماء بينما كنت مع حبيبتي. آه، ما أصعب العثور على هذا الأثر القدسي وسط هذه الحياة التي نعيشها، في هذا العصر الممل المخبول لما فيه من عمى روحي، بطرازه المعماري وأعماله التجارية وسياساته ورجاله. كيف يمكن أن لا أغدو ذئبًا متوحدًا وناسكًا غريب الأطوار، وأنا لا أشاطره حتى هدفًا واحدًا من أهدافه، ولا أفهم متعة واحدة من متعه؟ إنني أعجز عن المكوث طويلاً في قاعة مسرح أو سينما. ولا أستطيع أن أحتمل قراءة صحيفة. لا أكاد أقرأ أي موقف مؤلَّف حديثا. إنني لا أستطيع أن أفهم المتع والمسرات التي تدفع بالناس إلى أن يتزاحموا في محطات سكك الحديد والفنادق، وأن يحتشدوا في المقاهي المزدحمة حتى آخرها والضاجة بموسيقى متطفلة خانقة، وفي الحانات وفي مختلف جحور التسلية، وفي المعارض العالمية، وفي الـCorsos. إنّني لا أفهم هذه المتع، ولا أميل إليها، مع أنها في متناولي، ويتهافت عليها الآلاف لنيلها. أما ما يحدث لي في ساعات ابتهاجي النادرة، ما أعتبره نعيمًا وحياة ونشوة وتحليقًا، يبحث عنه العالم عموما في الغالب داخل المؤلفات الأدبية، أما في الحياة فيجده سخيفًا. وفي الواقع، إذا كان العالم محقًا، إذا كانت موسيقى المقاهي هذه، وهذه المتع الجماعية وأولئك الأناس المتأمركون الذين يرضون بالدوني على حق، فأنا على خطإ، أنا مجنون، إنني في الحقيقة ذئب البراري كما أسمي نفسي غالبًا، ذاك الحيوان الشارد الذي لا يجد له في عالم غريب وغير مفهوم مستقرًا ولا متعة ولا مصدر غذاء.

مع هذه الأفكار المألوفة تابعت طريقي في الشارع المبلل الذي يخترق أحد أهدإ الأحياء القديمة في البلدة. وكان يقوم على الجانب

المقابل وسط الظلام جدار حجري عتيق طالما انتبهت لوجوده بسرور. كان ينهض عتيقًا وساكنًا بين كنيسة صغيرة ومستشفى قديم، وكثيرًا ما أطلقت العنان لعينيّ أثناء النهار لتستقرّا على سطحه الخشن. وكان هناك عدد من مثل هذه الأماكن التي يشملها السكون والهدوء في قلب البلدة حيث يهتف باسمك في كل متر مربع منها رجل أعمال ما، أو محام أو دجال أو طبيب أو حلاق أو أقدامي[1]. وهذه المرة أيضًا كانت ترين على الجدار السكينة والسلام، ومع ذلك فشيء ما كان قد تغير فيه. وذهلت إذ رأيت بابًا جميلاً وصغيرًا ذا قوس غوطي الطراز في منتصف الجدار، لأني لم أستطع أن أتأكد مما إذا كان هذا الباب موجودًا دائمًا هناك أم أنه أحدث مؤخرًا. لقد بدا عتيقًا دون أدنى شك، عتيقًا جدًا، وكان واضحًا أن هذا الباب المغلق المصنوع من الخشب المسودّ كان قبل مئات من السنين يؤدي إلى فناء دير هاجع، وأنه مازال كذلك، وإن كان الدير نفسه لم يعد موجودًا هناك. ولعلي كنت قد شاهدته مئات المرات وببساطة لم ألاحظ وجوده. لعلّه دهن من جديد ولفت نظري لهذا السبب. فتوقفت لأتفحصه من موقعي دون أن أعبر إليه، بما أن الشارع كان غارقًا بطبقة من الطين والماء. ومن مكان وقوفي على الرصيف مددت بصري فبدا لي في العتمة أن ثمت إكليلا أو شيئا بهيج الألوان رُبط حول الباب، وحين أمعنت النظر أكثر رأيت علامة براقة فوق الباب، بدا لي أن ثمت كتابة ما عليها. دقّقت النظر وأخيرًا على الرغم من الطين والبرك القذرة، عبرت، ورأيت فوق الباب لطخة بادية بشكل باهت على الجدار ذي اللون البني المخضرّ، وفوق اللطخة حروف براقة تتراقص ومن ثم تختفي، وتعود ثم تتلاشى من جديد. فقلت في نفسي، هذا هو الأمر إذن، لقد

---

(1) الأقدامي: الاختصاصي في العناية بالقدم.(المترجم).

شوّهوا هذا الجدار القديم الطيب بعلامة مكهربة. وفي تلك الأثناء حللت لغز حرف أو اثنين من الحروف لدى ظهورها ثانية برهة من الزمن، لكنها كانت صعبة القراءة، حتى بالتخمين، لأنها كانت تظهر على فترات غير منتظمة وبشكل باهت، ومن ثم تختفي بسرعة. إن كل من يأمل في الحصول على أي نتيجة من عرض كذاك ليس ذكيًا على الإطلاق. إنه ذئب بَرارٍ، مسكين. لمَ كان على حروفه أن تتنقل عابثة على هذا الجدار العتيق في زقاق مظَلم من بلدة قديمة في ليلة رطبة لا يُرى فيها أي عابر سبيل؟ ولمَ هي سريعة في اختفائها، ومتقطعة جدًا وغير مقروءة؟ ولكن انتظر، لَقد نجحت أخيرًا في ملاحقة عدة كلمات دون انقطاع. وكانت:

المسرح السحري

الدخول ليس للجميع

حاولت أن أفتح الباب، لكن السقاطة العتيقة الثقيلة رفضت أن تتزحزح. واختفت اللافتة أيضًا. فجأة توقفت، بعد أن اقتنعت بعدم جدواها. تراجعت بضع خطوات، غائصًا عميقًا في الطين، ولكن لم تعد تظهر أي حروف. لقد انتهى العرض. وبقيت فترة طويلة أقف في الطين منتظرًا، ولكن عبثًا.

ثم، بعد أن استسلمت وعدت إلى الرصيف، سقطت بضعة أحرف ملونة هنا وهناك، وانعكست صورتها على الإسفلت أمامي. وقرأت:

للمجانين فقط!

كانت قدماي مبللتين وكنت أرتعش من البرد حتى العظم. إلا أني بقيت منتظرًا. ولم أفعل أي شيء آخر. ولكن بينما كنت منتظرًا، أفكر في جمال الحروف وهي تتراقص كأشباح فوق الجدار الرطب

وتنعكس على لمعان الإسفلت، لمعان أسود ذكّرني فجأة بجزء من أفكاري السابقة، كما لو أنها أثر ذهبي ساطع يتلاشى فجأة ويغيب.

كنت متصلّبا من شدة البرد، تابعت طريقي وأنا ألاحق ذاك الأثر الذي أراه في أحلامي، وفي توق شديد للعودة إلى ذاك الباب المؤدي إلى المسرح المسحور، المخصص فقط للمجانين. في تلك الأثناء كنت قد وصلت إلى السوق العامة التي لا تخلو قط من وسائل التسلية المسائية، حيث تجد في كل مكان إعلانات وملصقات بما تحتويه من وسائل استدراج: فرق موسيقية نسائية، منوعات، سينما، رقص... ولكن لم يكن أي منها ليجذبني. إنها «للجميع»، لأولئك الأناس العاديين الذين رأيتهم يحتشدون عند كل مدخل. وعلى الرغم من ذلك خفّت وطأة حزني قليلاً. لقد تلقّيت تحية من عالم آخر، وقد عزفت على أوتار روحي بضعة أحرف ملونة وراقصة، فباحت بأنغامها السرية وعاد وميض الدرب اللامع إلى الظهور من جديد.

بحثت عن الحانة العتيقة الصغيرة التي لم يتغير أي شيء فيها منذ زيارتي الأولى لهذه البلدة، قبل خمس وعشرين سنة. حتى صاحبة المحل لا تزال هي هي إلى الآن والعديد من الزبائن المخلصين الذين يجلسون هناك في الأيام الخوالي كانوا ما يزالون يجلسون في الأماكن عينها أمام الكؤوس عينها. إلى هناك التجأت. نعم، إنه لم يكن غير ملجأ، كذاك الموجود على الدرج قبالة نبتة الأروكاريا. هنا، أيضًا،لم أجد مأوى ولا صحبة، لا شيء غير مقعدٍ منه أرى خشبة مسرح عليها يقوم أناس غرباء بأداء أدوار غريبةً. ومع ذلك، كان هدوءً المكان يستحق بعض الاهتمام، فلا حشود غفيرة ولا موسيقى، لا يوجد إلا بعض من مواطني البلدة المسالمين الجالسين على طاولات البار الخشبية (لا رخام، لا سطح ملمّع، ولا نحاس) وأمام كل منهم

كأس من النبيذ المعتق الطيب. لعلّ روّاد هذا المكان، الذين أعرفهم جميعًا بالعين فحسب، كانوا من المحافظين المنتظمين ويحتفظون في مساكنهم المحافظة بمذابحهم المنزلية الكئيبة المكرّسة لأصنام القناعة الخجول، ولعلهم، أيضًا أفراد متوحدون، سكيرون، مراعون، هادؤون، زائغوا الانتباه، ذوو مُثُل عليا مفلسة، ذئاب متوحِّدة ومساكين مثلي. لم أكن متأكدًا. لعل الحنين إلى الوطن أو الإحباط، أو الحاجة إلى التغيير هي التي جرتهم إلى هناك، المتزوج من بينهم لكي يستعيد جو أيام عزوبته، والموظف العجوز ليستذكر سنين دراسته. وكلهم كان صامتًا، وكلهم سكّير يفضِّل مثلي أن يجلس أمام وعاء من نبيذ إلزاسر على أن ينصت إلى الفرقة الموسيقية النسائية. هنا ألقيت مرساتي مدة ساعة أو ربما اثنتين. وأدركت مع أول رشفة من النبيذ أني لم أكن قد أكلت أي شيء منذ وجبة الإفطار في ذاك النهار.

مذهل مقدار ما في إمكان كل أولئك الرجال أن يبتلعوه. وأمضيت عشر دقائق في قراءة صحيفة. وسمحت لروح رجل غير مسؤول يمضغ كلمات شخص آخر في فمه ويطحنها، ومن ثم يلفظها ثانية دون هضمها، أن تتغلغل فيّ من خلال عينيّ. وابتلعت عمودًا صحفيًا كاملاً منها. ومن ثم التهمت قطعة كبيرة اقتطعتها من كبد عجل مذبوح. شيء غريب فعلاً ! أفضل شيء كان نبيذ إلزاسر. إنني لست مولعًا، على الأقل ليس كل يوم، بتناول أنواع النبيذ المسكرة الطيبة المذاق التي تنشر سحرًا قويًا وتتميز بنكهتها الخاصة. وما أحبه حقًا هو الخمر الريفي المتواضع المعتق، الخفيف، النظيف، المتخفّف من الأسماء المميّزة. في إمكان المرء أن يجرع منه الكثير وله نكهة الأرض البيتية الطيبة، والتربة والسماء والغابة. إن كأسًا من نبيذ إلزاسر وقطعة من الخبز الجيد لأفضل من كل الوجبات. إلا أني في ذلك الوقت كنت

قد أتيت على حقي من لحم الكبد (وهذا تدليل لنفسي غير عادي، بما أني نادرًا ما آكل اللحم) ووُضِع الكأس الثاني أمامي. وهذا أيضًا شيء غريب: أنه في مكان ما من وادٍ أخضر نضر هناك رجال أقوياء، بارعون، يعتنون بحقول الكرم حتى ينضج، ثمّ تجمع الكروم وتحمل إلى المعاصر حتى تصير نبيذا، ثمّ يجمّع النبيذ ويوزّع على الحانات ليصل إلى بضعة من أهالي البلدان المحبطين الذين يشربون بهدوء وإلى ذئاب بَرارٍ بائسين على امتداد العالم المترامي بطوله وعرضه، حتى يصير بإمكانهم ترشّف شيء من الجرأة والشجاعة من كؤوسهم.

السحر فعل فعله فيّ، على الأقل. وعندما عدت إلى التفكير في تلك المقالة الصحفية وفي كلماتها المختلطة، تصاعد داخلي ضحك منعش، وتذكرت فجأة، ومن جديد، اللحن المنسي لتلك النغمات المعزوفة على آلة البيانو. طفا اللحن عاليًا مثل فقاعة صابون، يعكس صورة العالم كله منمنمة على سطح قوس قزح، ومن ثم انفجر بهدوء. أيمكن أن أكون قد ضعت عندما كان ذاك اللحن العلوي القصير متجذرًا سرّا داخلي، وإذ به الآن يُبرز براعمه الجميلة بكل تدرجات ألوانه الرقيقة؟ لعلي كنت حيوانًا ضالاً، لا يدرك ما يدور حوله، ولكن كان هناك معنى ما لحياتي الحمقاء، ثمت شيء عندي لديه الجواب. وكان يتلقى تلك النداءات النائية المتناهية من عوالم من أقصى الفضاء. وكانت آلاف الصور مخزّنة في عقلي:

حشدُ جيوتو[1] من الملائكة على السقف المعقود الأزرق للكنيسة الصغيرة في بادوا، وإلى جوارهم سار هاملت وأوفيليا مكلّلة بالزهور، تشبيهات مثالية، لكل رموز الحزن وسوء الفهم في العالم، وكان هناك جيانوتزو، الملاح الجوي، على متن منطاده المشتعل، وهو ينفخ في

(1) جيوتو دي بوندونه (1267-1337): رسام فلورنسي من عصر النهضة. (المترجم).

بوقه، وأتيلا يحمل خوذته بيده، وبوروبودور يرفع تمثاله المحلق عاليًا في الهواء. وعلى الرغم من أن كل هذه القامات سكنت أيضًا آلاف القلوب الأخرى، إلا أنه كانت هناك عشرة آلاف صورة أخرى مجهولة ولحن لا مأوى لها إلا في داخلي، ولا عيون لتراها، أو آذان لتسمعها إلا عيناي وأذناي أنا. وجدار المستشفى العتيق المصبوغ برماديّ الزمن وخضرته والصابر على شقوقه ولطخاته، جدار يمكن تخيل ألف لوحة جدارية منه، مَنْ استجاب له، مَنْ سبر روحه، مَنْ أحبه، مَنْ اكتشف سحر ألوانه الذي يضمحل برهافة مضطردة؟ وكتب الرهبان العتيقة، المزخرفة بنمنماتها الرقيقة، وكتب الشعراء الألمان المنسية التي يعود عهدها إلى مئتي عام أو مئة عام، وكل المجلدات بما عليها من بقع الرطوبة وآثار تقليب الصفحات بطرف الإبهام. ومطبوعات المؤلفين الموسيقيين ومخطوطاتهم، والكميات الهائلة من أوراق النوتة الموسيقية المسوسة بأحلام ترجيع الغناء – من سمع أصواتها المفعمة بالشوق والخبث والحيوية الفائقة، مَنْ شق طريقه في عالم أقصاهم عن قلب منزع بروحهم وسلطانهم؟ من ذا الذي كان ما يزال يتذكر شجرة سرو هيفاء تسمق على تل يطل على غبيو، على الرغم من كونها منغلقة ومشقوقة بفعل سقوط الحجارة، إلا أنها تشبثت بالحياة بقوة وأنبتت من ذروتها بويقةً متناثرة جديدة بآخر ما لديها من موارد؟ مَنْ أنصف ربة البيت المجتهدة التي تسكن الطابق الأول ونبتة الأروكاريا النظيفة؟ مَنْ قرأ ليلاً فوق نهر الراين ما خطّته سحب الضباب المنساب؟ إنه ذئب البراري. ومَنْ فوق أطلال حياته تقصّى مغزاها المرتعش، والخاطف، بينما هو يقاسي عبثها الظاهري، ويعايش جنونها الظاهري، ومَنْ أمل سرًا عند آخر انعطافة لمتاهة العماء في نزول وحي وفي دنوّ الله؟

عندما أرادت صاحبة الحانة أن تعيد ملء كأسي وضعتُ يدي فوقه، ونهضت واقفًا. لم أكن بحاجة إلى مزيد من النبيذ. وكان الأثر الذهبي اللامع قد توهّج فذكرني بالأبديّ، ذكرني بموتسارت، ذكرني بالنجوم. ومرّت علي ساعة من الزمن عدت خلالها أتنفس وأعيش وأواجه الوجود، دون اضطراري إلى أن أعاني العذاب أو الخوف أو الإحساس بالعار.

عندما خرجت إلى الشارع المقفر، كانت رياح باردة تنخل مطرًا دقيقًا، وتخرق القطرات مع ربتٍ على مصابيح الشارع، وهناك تومض في تلألؤ زجاجي. والآن إلىً أين؟ لو كنت أملك عندئذ عصا سحرية لاستحضرت غرفة موسيقى من طراز لوي سيز فاتنة صغيرة المساحة، تضم عددًا قليلاً من الموسيقيين يعزفون لي مقطوعتين أو ثلاثًا من تأليف هاندل وموتسارت. كنت في المزاج المناسب تمامًا لسماع ذلك، وكنت مستعدًا لرشف الموسيقى النبيلة الرائقة كما ترشف الآلهة رحيقها. آه، لو كان لي صديق الآن، صديق جالس في غرفة عليّة، وهو مسترسل في الحلم على ضوء الشموع، ويمسك بيده آلة كمان مستعدًا للعزف! كم كنت سأودّ أن أتسلل إليه، وهو في ساعة صفائه، وأصعد الدرج اللولبي بهدوء لأفاجئه، ومن ثم، ومع مزيج من الحديث والموسيقى نقيم احتفالاً يستغرق الليل بطوله! وقد كنت قبل سنين مضت كثيرًا ما أمرُّ بلحظات سعادة مثلها، ولكن حتى هذه ذراها الزمن. وباتت تفصل بينها والوقت الحاضر سنوات ذاوية.

تلكأت في سيري قاصدًا المنزل، وقد رفعت ياقتي، وأخذت أدق العصا على الرصيف المبلل. ومهما طال توانيّ في الخارج فإني سرعان ما كنت سأجدني في غرفتي الكائنة في الطابق الأعلى، منزلي المؤقت، الذي لم أتمكن من أن أحبه ولا أن أستغني عنه، فقد كان قد

فات العهد الذي أستطيع خلاله أن أمضي ليلة شتائية في الخلاء. وبتّ الآن أتوسل كي لا يفسد المزاج الرائق الذي منحنيه المساء، لا بسبب المطر، ولا داء النقرس، ولا نبتة الأروكاريا. وعلى الرغم من عدم وجود غرفة موسيقى ولا صديق يشعر بالوحشة مع كمانه، إلا أن ذاك النغم الجميل ظل مع ذلك في ذهني وكان في إمكاني أن أعزفه كله بنفسي بشكل أو بآخر، مهمهمًا إيقاعه أثناء أخذ الشهيق. وتابعت سيري وأنا أقلب هذه الأفكار. نعم، حتى دون غرفة موسيقى ودون الصديق. ما أشد حماقة المرء إذ يرهق نفسه عبثًا توقًا إلى الدفء ! إن العزلة استقلال. ولطالما كانت مُنيتي وقد بلغتها مع مرور السنين. لقد كانت باردة. أوه، ما أشد برودتها ! لكنها أيضًا ساكنة، ساكنة بشكل رائع ومترامية الأرجاء مثل سكون الفضاء البارد الذي تدور فيه النجوم في أفلاكها.

لدى مروري بإحدى صالات الرقص قابلتْ سمعي أنغام موسيقى جاز حيّة، حارة وغير مصقولة كبخار متصاعد من لحم نيء. فتوقفت برهة. لطالما وجدته ينطوي على سحر سري رغم شدة كرهي لهذا النوع من الموسيقى. كنت أبغض موسيقى الجاز، إلا أني كنت أفضلها عشر مرات على كل الموسيقى المدرسية التي تؤلَّف هذه الأيام. أنا أيضًا وجدت أن مرحها البدائي والهمجي يبلغ عالما سفليًا من الغريزة، وينضح بحسية صادقة وبسيطة.

استوقفني العطر هنيهة، ورحت أشم هذه الموسيقى الصاخبة النابضة بالدم الحي، أتنشق جو الصالة بغضب، وأيضًا أتحرك قليلاً بتوق نحوها وكان نصف هذه الموسيقى، هذا اللحن، مضمخًا كله بالعطر ومغلفًا بالسكر وبالنبرة العاطفية المفرطة. أما النصف الآخر فكان همجيًا، مزاجيًا ويضج بالحيوية. غير أن الجزءين كانا

يتماشيان معًا بتناسق يفتقر إلى البراعة، ويشكلان كلاً واحدًا. إنها موسيقى الانحدار. لا شك في أنه كانت هناك موسيقى مشابهة لهذه في عهد أباطرة روما المتأخرين. وإذا ما قورنت بموسيقى باخ وموتسارت، وهي الموسيقى الحقيقية، لكانت النتيجة حتمًا بائسة، ولكن هذا هو حال فنوننا كلها، وفكرنا كله، وحضارتنا المؤقتة كلها، بمقارنتها مع الحضارة الحقيقية. وفضيلة هذه الموسيقى هي صدقها الشديد. وبسبب اتصافها بالصبغة الزنجية دون خجل وبشكل محبب، فقد كانت تتسم بمزاج السعادة الطفولية. كان فيها شيء زنجي، شيء أميركي، يبدو على الرغم من كل قوته نضرًا نضارة صبيانية وطفولية بالنسبة إلينا نحن الأوروبيون. فهل سيطرأ التغيير نفسه على أوروبا؟ هل هي الآن في طور هذا التحول؟ وهل نحن، الضليعون القدامى المبجّلون لأوروبا كما كانت، وللموسيقى والشعر الأصليين كما كانا ذات يوم، لسنا غير أقلية حمقاء عنيدة من العصابيين المعقّدين المعرضين للنسيان أو للسخرية غدًا؟ وهل كل ما نسميه حضارة، روحًا، نفسًا، وكل ما نسميه جميلاً ومقدسًا، ليس غير وهم تلاشى منذ زمن بعيد، ولم يبق غير حفنة من الحمقى أمثالنا مازالوا يعتقدون أنه حقيقة حية؟ ألم يكن ما أرهقنا به رؤوسنا نحن الحمقى المساكين، إلاّ سرابًا؟

عندئذ كنت قد وصلت إلى القطاع القديم من المدينة. كانت هناك كنيسة صغيرة تنهض قاتمة وكئيبة كالوهم. وسرعان ما استعدت ذكرى تجربة المساء، الباب ذا الطراز القوطي الغامض، واليافطة الغامضة التي تعلوه والحروف المضاءة المتراقصة الساخرة. ماذا كان مكتوبًا؟ «الدخول ليس للجميع». وأيضًا: «للمجانين فقط!». ودقّقت النظر في الجدار العتيق المقابل يحدوني أمل سري في أن يعود السحر من جديد، أن تدعوني الكتابة، أنا المجنون، إلى الدخول، ويسمح لي

الباب الصغير بولوجه. لعلي أجد هناك ما أبتغي، وقد أسمع الموسيقى التي أحب.

بادلني الجدار الحجري القاتم النظر بهدوء صلب، قاطعًا مانعًا وسط الغسق العميق، غارقاً في حلمه الخاص. ولم يكن هناك أي منفذ في أي موقع ولا أي مدخل مقنطر محدد، لا شيء غير البناء الصلد المظلم. تابعت طريقي وأنا أبتسم، وأومئ له بود قائلاً: «نومًا هانئًا. لن أوقظك. سيأتي الوقت المناسب الذي ستنهار فيه أو تُلصق عليك إعلانات تجارية. أما الآن، فها أنت قائم، جميل وهادئ كعهدك دائما، وأنا أحبك لهذا السبب».

من فوهة سوداء في أحد الأزقة ظهر رجل بفجاءة مُجفِلة بالقرب مني، رجل وحيد متوجه إلى بيته ويسير بخطى مرهقة. كان يعتمر قلنسوة ويرتدي بلوزة زرقاء اللون، ويرفع فوق كتفيه لوحة مثبتة فوق عصا، ويحمل أمامه صينية مكشوفة تتدلى منها أشرطة كالتي يحملها البائعون المتجولون في الأسواق. سار يتقدمني بهيئة مرهقة دون أن يلتفت إليّ. ولو فعل لألقيت عليه تحية المساء، وأعطيته سيجارًا. وحاولت أن أقرأ الشعار المدون على رايته – اللوحة الحمراء المرفوعة على عصا –، لكنها كانت تترنح جيئة وذهابًا فلم أتمكن من فك مغاليقها. ثم ناديته وطلبت منه أن يسمح لي بقراءة إعلانه. فتوقف وثبَّت عصاه أكثر قليلاً. وعندئذ تمكنت من قراءة الأحرف المترنحة المتراقصة:

امسية ترفيه للفوضويين

مسرح سحري

الدخول ليس للجميع

هتفت بابتهاج: «هذا ما كنت أبحث عنه. ما هي أمسية الترفيه هذه؟ أين تقام؟ ومتى؟».

كان قد تابع طريقه لتوه.

قال بنبل وبصوت ناعس: «إنها ليست للجميع». لقد ناله التعب وهو الآن متوجه إلى البيت، ثم تابع طريقه.

صرخت وأنا أركض خلفه: «توقف، ماذا تحمل في صندوقك؟ أريد أن أشتري شيئًا منك».

تحسس الرجل دون أن يتوقف داخل صندوقه بحركة آلية، وأخرج كتابًا صغيرًا وناولنيه، أخذته على عجل، ووضعته في جيبي، وبينما كنت أتحسس بحثًا عن أزرار معطفي لأخرج بعض المال، انعطف داخلاً أحد الأبواب، ثم أغلق الباب خلفه، واختفى. وتردد وقع خطاه الثقيلة قويًا على بلاط الفناء، ومن ثم على الدرج الخشبي، ثم لم أعد أسمع أي شيء. وفجأة بدأت بدوري أشعر بتعب شديد. وخطر لي أن الوقت قد تأخر كثيرا – وأنه حان وقت العودة إلى المنزل. سرت بوقع خطى أسرع، متخذًا الطريق المؤدية إلى الضاحية وسرعان ما وصلت إلى الحي الذي أقطن فيه بين الحدائق المعتنى بها جيدًا، حيث تقطن طبقة الموظفين وذوو الموارد المعتدلة في شقق صغيرة نظيفة خلف أرض مرجة ولبلاب. واجتزت اللبلاب والمرجة وشجرة التنوب الصغيرة لأصل إلى باب بيتي، عثرت على ثقب المفتاح وعلى مفتاح النور، وعبرت الأبواب ذات الألواح الزجاجية والخزائن المصقولة والنباتات في أصصها وفتحت بالمفتاح باب غرفتي، منزلي الصغير، حيث الكرسي ذو الذراعين والمدفأة، ودواة الحبر وعلبة الدهان، ونوفاليس ودوستويفسكي، ينتظرون عودتي كما تفعل الأم أو الزوجة والأولاد والخدم والكلاب والقطط في حالة الأناس الأكثر عقلانية.

عندما خلعت معطفي المبلل وقعت على الكتاب الصغير، فأخرجته ووجدته أحد تلك الكتب الصغيرة المطبوعة بشكل سيء على ورق رديء وتباع في الأسواق العامة، وتحمل عناوين مثل: «هل ولدت في شهر كانون الثاني؟» أو «كيف تبدو أصغر سنًا بعشرين سنة خلال أسبوع واحد».

بيد أني، بعد أن استقريت على الكرسي ذي الذراعين ووضعت نظارتي على عينيّ، دهشت أي دهشة وداهمني إحساس بقرب وقوع كارثة، حين قرأت العنوان المدون على هذا الدليل للكتيبات التي تتكهن بالحظ «أطروحة عن ذئب البراري. ليس للجميع».

قرأت ما يحتويه في جلسة واحدة باهتمام مُطّرد كان يتعمق مع توالي الصفحات.

أطروحة عن ذئب البراري

في يوم من الأيام كان هنالك رجل يدعى هاري، ويكنّى بذئب البراري، كان يسير على قدمين، ويرتدي الملابس. وكان كائنًا بشريًا. إلا أنه في واقع الأمر كان كذئب يجوب البراري. تعلّم الكثير حول كل ما يستطيع عمله الناس، ذوو التفكير المحايد، وكان رجلاً حاذقًا. إلا أن ما لم يتعلمه كان أن يرضى بنفسه وبحياته الخاصة. وكان السبب الظاهري لذلك هو أنه كان يعلم طوال الوقت، في قرارة قلبه (أو ظن أنه يعلم) أنه في الواقع ليس إنسانًا، وإنما ذئب بَرارٍ. وقد يجادل الحاذقون حول ما إذا كان فعلاً ذئبًا، فيما إذا كان قد تحول، ربما قبل ولادته، من ذئب إلى كائن بشري، أم أنه وُهب روح ذئب، وإن كان قد ولد كائنًا بشريًا، أو فيما إذا كان، من ناحية ثانية، اعتقاده هذا أنه ذئب ليس أكثر من وهم، أو مرض خاص به. لعله كان، مثلاً، في طفولته جامحًا ومتمردًا وفوضويًا، ولعل القائمين على تنشئته أعلنوا حرب إبادة للحيوان داخله، ولعل هذا بالذات ما أوحى إليه بفكرة الاعتقاد أنه في الحقيقة حيوان لا تغطيه إلا طبقة رقيقة من الإنسانية. وحول هذه النقطة يمكن التحدث مطولاً والتسلّي، بل والكتابة أيضًا عنها. غير أن ذلك لن يفيد ذئب البراري في شيء، لأنه سيان لديه إن كان الذئب داخله قد فُتن أو ضرب، أو كان مجرد فكرة خاصة به. ولا يفيده في شيء رأي الآخرين فيه أو رأيه هو ذاته. لأن الذئب سيبقى كما هو داخله.

وهكذا فإن للذئب طبيعتين، إنسانية وذئبية. هذا هو قدره، وقد لا يكون استثنائيًا كثيرًا، إذ لا بد أن كثيرين من الناس ينطوون على قدر كبير من صفات الكلب أو الثعلب، السمكة أو الأفعى دون أن يواجهوا في هذا المجال مصاعب جمَّة. وفي مثل هذه الحالات يتعايش الإنسان والثعلب، الإنسان والسمكة معًا دون أن يؤذي أحدهما الآخر. بل إن كلاً منهما يساعد الآخر. والحق أن الكثيرين قد حملوا هذا الوضع معهم فترات طويلة جدًا يُحسدون عليها إذ أنهم يدينون بسعادتهم للثعلب أو للقرد الذي في داخلهم أكثر منهم للإنسان. كفى معلومات عامة. فالوضع في حالة هاري كان مختلفًا. في داخله لم يسر الإنسان والذئب جنبًا إلى جنب في اتجاه واحد، ولم يساعد أحدهما الآخر، وإنما كانا في حالة عداء لدود دائم. وكان وجود كل منهما قائما ببساطة وحصرًا على أساس إيذاء الآخر، وعندما يشترك عدوّان لدودان في الدم وفي النفس، تغدو الحياة إخفاقًا تامًا. وكما يقال، لكلٍّ قدرة، ولا عبئا خفيفا.

أما مع صاحبنا ذئب البراري فإنَّ الوضع كان من الفداحة ما جعله في حياته الواعية يعيش تارة كذئب، وأخرى كإنسان، كما هو الحال مع كل الكائنات المختلطة. غير أنه عندما يكون ذئبًا فإن الإنسان يكمن فيه، ويظل دائمًا متوثبًا ليتدخل ويدين، في حين أنه عندما يكون إنسانًا فإن الذئب يفعل الشيء نفسه. فمثلاً، إذا كان هاري، كإنسان، يحمل فكرة جميلة، أو يمر بانفعال نبيل ورائع، أو يؤدي عملاً صالحًا، إن صح التعبير، فإن الذئب يكشر له عن أنيابه ويضحك ويبين له وهو يؤنبه أشد التأنيب مدى إثارة هذا العرض النبيل برمته للسخرية في نظر الحيوان، في نظر الذئب الذي يعرف حق المعرفة ومن قرارة قلبه ما يناسبه، أي أن يجوب البراري وحيدًا، ويتخم نفسه بين حين وآخر من

سفك الدماء أو يطارد ذئبة. وعندئذ تبدو كل النشاطات الإنسانية، من وجهة نظر الذئب، سخيفة إلى أقصى حد، وفي غير موضعها، وحمقاء ولا طائل من ورائها. لكن مشاعر هاري وسلوكه كانت هي نفسها تمامًا عندما كان ذئبًا وأبرز للآخرين أنيابه وشعر بالحقد وبالعداء لكل الكائنات البشرية، بما يتصف به سلوكهم وعاداتهم من كذب وانحطاط. لأن الجانب الإنساني منه يربض عندئذ كامنًا له ويراقب الذئب، ثم يرميه بصفات الوحش والحيوان، ويفسد عليه كل مسرَّة في وجوده الصحيح جسديًا والبسيط، وينغّصها كذئب ضار.

هكذا إذن كان الوضع مع ذئب البراري، ويمكننا أن نتصور كيف أن حياة هاري لم تكن بالضبط حياة هانئة وسعيدة جراء ذلك. بيد أن هذا لا يعني أنه لم يكن سعيدًا بشكل مطلق (على الرغم من أن هذا ما قد يبدو له، بقدر ما يعتبر كل إنسان الآلام التي تحل به هي الأفدح). وهذا الكلام لا يصح على أي إنسان. حتى ذاك الذي لا ينطوي في داخله على ذئب، قد لا يكون أسعد حالاً. إذ حتى أتعس حياة تحتوي على لحظاتها المشرقة وأزهار سعادتها الصغيرة التي تنبت بين الرمال والحجارة. وكذا كان حال ذئب البراري. ولا يمكن أن ننكر أنه في العموم كان تعيسًا جدًا، وكان في إمكانه أيضًا أن يسبب التعاسة للآخرين، أي عندما يحبهم أو يبادلونه الحب. لأن كل من تورط في حبه لم يكن يرى دائمًا إلا جانبًا واحدًا منه. كثيرون أحبوه، بوصفه رجلاً مثيرًا للاهتمام، حاذقًا وراقيًا، وأصيبوا بالرعب وبخيبة الأمل عندما صادفوا جانب الذئب منه. وكان لا بد لهذا أن يحدث لأن هاري كان يرغب، مثل أي مخلوق واع، في أن يُحبَّ كله وبالتالي فإنه لم يستطع أن يخفي عن أولئك الذين كانوا يحبون جانب الذئب فيه تحديدا، الحر، الهمجي، العصي على الترويض، الخطر والقوي،

وكان هؤلاء يصابون بخيبة أمل كبيرة إلى درجة يرثى لها عندما يكتشفون فجأة أن الذئب الشرير والضاري هو أيضًا إنسان، ويتوق توقًا شديدًا إلى الخير والدماثة، ويرغب في سماع موسيقى موتسارت، وفي أن يقرأ الشعر ويضمر مُثلاً إنسانية عليا. وكان هذا عادة أشد ما يسبب لهم الخيبة والغضب، وهكذا حدث أن دخل ذئب البراري ازدواجيته وطبيعته المنقسمة إلى أقدار الآخرين كلما تواصل معهم.

الآن، إن كل من يعتقد أنه يعرف ذئب البراري، وأن في استطاعته أن يتخيل حياته المنقسمة بشكل مفجع مخطئ على الرغم من كل ذلك. إنه لا يعرف بعد كل شيء. هو لا يعرف (كما أنه لا قاعدة بلا استثناء وكما إن الآثم يمكن أن يكون في ظروف معينة أقرب إلى الله من تسع وتسعين من الأتقياء) أنه مع هاري أيضًا كانت تحدث أحيانًا استثناءات وضربات من الحظ الحسن، فكان تارة يتنفس ويفكر ويشعر كذئب، وتارة أخرى كإنسان، بوضوح ودون الخلط بين الاثنين، بل إنهما حتى في مناسبات نادرة كانا يتصالحان ويتعاونان في الحياة إلى درجة أنهما لم يكتفيا بأن يبقى أحدهما يقظًا بينما الآخر نائم بل كان كل منهما يشدُّ من عزيمة الآخر ويقوِّيه. وفي حياة هذا الرجل أيضًا، كما في كل الأشياء الأخرى في العالم، كان يبدو أنه ليس للعادة اليومية والعُرف والمعلومات العامة من هدف آخر غير أن يتم القبض عليها أحيانًا برهة خاطفة، واختراقها، لكي تسلِّم مرتبة الشرف للاستثنائي والمعجز. ومرة أخرى يصبح التساؤل عما إذا كانت سويعات السعادة القليلة تلك تُوازن قدرَ ذئب البراري وتلطِّفه بحيث تحافظ على كفتي الميزان، في ذروتيّ السعادة والألم، متعادلتين، أو عما إذا كانت ربما كفّة السعادة القصيرة الأمد ولكن المكثفة التي تبثها تلك السويعات، ترجح على كفة كل ألم وترفعها – أقول إن هذا

التساؤل يصبح قضية قد يتفكر حولها الكسالى ملء قلوبهم. حتى الذئب كثيرًا ما يتأمل فيه، وخلال ذلك مرت أشد أيامه كسلاً وعقمًا.

حول هذا الأمر يجب إضافة قول آخر، إن هناك عددًا كبيرًا من الناس من أشباه هاري. والعديد من الفنانين بوجه خاص هم من الفئة نفسها. وينطوي كل من هؤلاء الأشخاص على نفسين، على وجودين. ففي داخلهم الله والشيطان، دماء الأم ودماء الأب، المقدرة على السعادة والمقدرة على التألم، وبمثل هذه الحالة من العداء والتشابك كان الذئب والإنسان داخل هاري. هؤلاء الرجال، الذين لا توفر لهم الحياة أي راحة، يعيشون أحيانًا لحظاتهم من السعادة النادرة باندفاعٍ هائل وجمال يستعصي على الوصف، ورذاذ لحظات سعادتهم ينتشرُ عاليًا جدًا وبشكل مذهل فوق بحر آلامهم المترامي، حتى إن بريقه، الذي ينشر بهاءه، يلمس آخرين أيضًا بسحره. وهكذا ترتفع كل تلك الأعمال الفنية، مثل زبدٍ طافٍ، نفيسٍ، فوق بحر الآلام، يحلُق فرد واحد وهو ينغمس فيها مَدة ساَعة منَ الزَّمن مرتفعًا عاليًا جدًا فوق قدره الشخصي حتى إن سعادته تشرق كنجمة وتتبدًى لكل من يراها كشيء سرمدي وكأنها حلمه الخاص بالسعادة. كل هؤلاء الرجال، مهما كانت إنجازاتهم أو أعمالهم، ليست لديهم حياة حقيقية، أي إن حياتهم هي بلا وجود ولا شكل لها وهم ليسوا أبطالاً أو فنانين أو مفكرين كما يغدو غيرهم قضاة أو أطباء، وحذّائين أو معلمين. إن حياتهم تتألف من حركة مدّ وجزر مستمرة، تعيسة يمزقها الألم الرهيب والعبثي، إلا إذا كان المرء مستعدًا لأن يستشف معناها فقط من خلال تلك التجارب النادرة والأفعال والأفكار والأعمال التي تشرق فوق عماء مثل تلك الحياة، وقد تبدًت لهؤلاء الفكرة اليائسة والرهيبة التي مفادها أن كامل الحياة الإنسانية ربما ليست أكثر من نكتة

سخيفة، إجهاض مشؤوم، عنيف، للأم الأولى، وكارثة طبيعية، مغمّة وهمجية. ولكن تبدت لهم أيضًا فكرة أخرى تقول إن الإنسان قد لا يكون فقط حيوانًا نصف عاقل وإنما طفل للآلهة وأن الخلود هو قدره.

إن لكل إنسان، مهما كان، خصائصه وجوانبه وفضائله ومثالبه وآثامه القاتلة. وأحد جوانب ذئب البراري هو أنه جوّاس الليل. والصباح هو أسوأ وقت بالنسبة إليه من النهار وهو يخشاه ولا يجلب له أبدًا أي خير. فلم يحدث قط في حياته أن كان مستبشرًا في الصباح، أو قام بأي عمل مفيد قبل منتصف النهار، ولا استلهم أي فكرة جيدة، ولا تسبّب في أي متعة لنفسه أو لغيره. وشيئًا فشيئًا خلال فترة بعد الظهر يشرع الدفء بالسريان في أوصاله وتدب الحياة فيه، ولا يغدو منتجًا، ونشطًا، بل ومتقدًا بالفرح أحيانا، إلا مع اقتراب المساء، طبعا هذا في أيامه السعيدة فحسب. وتقترن بهذا حاجته إلى العزلة والاستقلال. وليس هناك من إنسان يفوقه في عمق توقه وعنفوانه إلى الاستقلال. وفي شبابه عندما كان فقيرًا ويجد صعوبة في كسب قوته، كان يفضل أن يظل جائعًا وعاريًا فقط لكي يحافظ على الهامش الضيق القليل من الاستقلال. ولم يحدث قط أن باع نفسه من أجل المال أو أي حياة رخيَّة أو من أجل النساء أو تقربًا من أصحاب النفوذ، وكان ينبذ مئة مرة ما يعتبره العالم مصلحته وسعادته لكي يصون حريته. ولا شيء كانت تشنف له نفسه حدّ التقيّؤ أكثر من اضطراره إلى أن يتوجه إلى مكتب وأن يتكيف مع الروتين يومًا بعد يوم، وعامًا بعد عام، وأن يطيع الآخرين. وكره مختلف أنواع المناصب الحكومية منها أو التجارية كراهيته للموت، وكان أسوأ كابوس بالنسبة إليه هو احتجازه داخل أسوار الثكنات العسكرية. وكان يعمل، وفي كثير من الأحيان مع تضحية كبرى، على تجنب أمثال هذه المآزق. وهنا كانت تكمن قوته

ومزيَّته. وعند هذه النقطة ما كان يمكن إخضاعه أو رشوته. هنا كانت شخصيته تقف حازمة ولا يمكن قهرها. غير أنه، ومن خلال هذه المزيَّة، ارتبط بقوة أكبر إلى ما قُدِّر له من معاناة. لقد وقع ذلك له كما يقع لكل إنسان، إن ما كافح لتحقيقه من أعمق غريزة للبقاء وأشدها عنادًا كان قدره المرير. إن رجل السلطة تحطمه السلطة، ورجل المال يحطمه المال، والمذعن الإذعان، والساعي إلى المتعة تحطمه المتعة. لقد حقق هدفه. حافظ دائمًا على استقلاله،لم يتلقّ أوامر من أي إنسان، ونظَّم أساليبه على نحو لا يناسب أحدًا. وقرر، وهو مستقل ووحيد، ما ينجزه وما يدعه دون إنجاز. لأن كل إنسان قوي يبلغ ما يأمره حافز حقيقي ببلوغه. لكن هاري، وهو وسط حريته التي حققها، أدرك فجأة أن حريته هي موت وأنه يقف وحيدًا. لقد تركه العالم وشأنه بطريقة غريبة، ولم يعد يهتم بالآخرين، بل إنه لم يكن يهتم بنفسه. وبدأ يختنق ببطء في جو النأي والانعزال المتخلخل باضطراد. أما الآن فلم تعد عزلته واستقلاله يمثلان رغبته وهدفه، وإنما أصبحا قدره وعقوبته. لقد تحققت الأمنية السحرية ولا يمكن إلغاؤها ولا فائدة الآن من فتح ذراعيه اشتياقا وتودّدا للترحيب بأغلال المجتمع. ومع ذلك هذا لا يعني أنه بات موضع كراهية وبغض، على العكس، لقد كان لديه العديد من الأصدقاء، وأحبه الكثيرون. لكن الأمر لم يتعد العطف والود. كان يتلقى الدعوات والهدايا والرسائل السارة، ولكن لا أكثر. لا أحد اقترب منه. إذ لم تتبق أي صلة، ولم يعد في إمكان أحد أن يقوم بأي دور في حياته ولا رغب أحد في ذلك. لأنه أصبح الآن محاطًا بجو الأناس المتوحدين، وهو جو ساكن ينزلق العالم من حوله مبتعدًا، ويتركه عاجزًا عن إقامة علاقة، جو لا تنفع في مكافحته إرادة ولا اشتياق. وقد كانت هذه إحدى العلامات المميزة في حياته.

من العلامات الأخرى أنه كان ينتمي إلى فئة الانتحاريين. وهنا يجب أن أقول إنه من الخطإ حصر الانتحاريين بأولئك الذين ينتحرون بالمعنى الحرفي للكلمة. في الحقيقة إن بينهم عديدين انتحاريين بمعنى ما وبالمصادفة وليس للانتحار في وجودهم مكان ضروري. ومن بين الأناس العاديين هناك العديد من أصحاب الشخصية الضعيفة ولم يترك القدر عليهم أي بصمة عميقة، أولئك الذين وجدوا نهايتهم في الانتحار دون أن ينتموا في هذا المجال إلى نمط الانتحاريين بالنزعة. في حين أن، ومن ناحية أخرى، من بين الذين يُعتبرون انتحاريين من عمق أعماق طبيعتهم كثيرين، وربما الأغلبية، لا يمسون أنفسهم بأي أذى في الحقيقة. إن «الانتحاريين»، وهاري أحدهم، ليسوا بحاجة إلى أن يعيشوا وهم على صلة وثيقة بالموت. إذ يمكن للإنسان أن يفعل ذلك دون أن يكون انتحاريًا. إن ما يتميز به الانتحاري هو أنه يشعر، أمحقًا كان أو مخطئًا، أن ذاته (أناه) هي جرثومة الطبيعة الخطرة إلى أقصى حد، والمريبة، والمدانة، وإنه دائمًا يرى نفسه عرضة لخطر هائل، وكأنه يقف وهو لا يكاد يجد موطئ قدم على قمة جرف شديد الانحدار، حيث تكفي دفعة صغيرة من الخارج أو برهة ضعف من الداخل لكي تطيح به إلى الهوة. إن خط القدر في حالة هؤلاء البشر يحدده إيمانهم بأن الانتحار هو الأسلوب الأكثر احتمالاً لموتهم. ولعل من المسلَّم به أن مثل هذه الأمزجة، التي تتبدَّى عادة في مرحلة الشباب المبكر وتلح عليهم على امتداد حياتهم، تكشف عن نقص فريد في الطاقة الحيوية. إلا أن العكس هو الصحيح، فبين «الانتحاريين» يوجد ذوو طبائع متماسكة ومتشوفة وأيضًا شجاعة بشكل فائق للعادة. ولكن كما إن هناك من يصابون بالحمى لدى أقل انحراف عن الصحة، ثمة أيضًا أولئك الذين نسميهم بالانتحاريين وهم دائمًا متوثبو المشاعر

ومرهفو الحس، ولدى تعرضهم لأقل صدمة يفكرون في الانتحار. ولو أن لدينا العلم المتصف بالشجاعة وبالسلطة ليهتم بالجنس البشري، بدل أن يهتم فقط بآلية الظاهرة الحيوية، لو أننا نتصف بشيء من طبيعة علم الإنسان أو علم النفس، لكانت هذه الأمور الواقعية مألوفة لدى الجميع.

إن ما قيل أعلاه حول موضوع الانتحاريين من الواضح أنه لا يلمس إلا السطح. إنه علم نفس، ولذلك فهو جزئيًا فيزياء. وعند النظر إلى المسألة من الزاوية الميتافيزيقية، نرى أن لها وجهًا مختلفًا وأشد وضوحًا، ومن هذه الزاوية يظهر الانتحاريون أناسا يستبد بهم إحساس بالذنب متأصل في بعض الأفراد، في أولئك الذين يجدون أن هدف الحياة ليس الوصول بالذات إلى الكمال وفي قولبتها، وإنما في تحرير أنفسهم بالعودة إلى الأم، إلى الله، إلى الكليّ. والعديد من ذوي هذه الطبائع عاجزون تمامًا عن اللجوء بأي حال إلى انتحار حقيقي، لأنهم على وعي عميق بالخطيئة خلف هذا العمل. إلا أنهم يبقون مع ذلك انتحاريين بالنسبة إلينا، لأنهم يعتبرون أن محررهم هو الموت وليس الحياة. وهم مستعدون للاستسلام التام للزوال والعودة إلى البداية.

كما إن كل قوة قد تُضحي ضعفًا (وهذا ما يجب أن يحدث تحت ظروف معينة)، لذلك، وعلى العكس، يمكن للانتحاري النموذجي أن يستمد القوة والدعم من ضعفه الظاهر. والحق أن هذا ما يفعله في أغلب الأحيان. وهاري، ذئب البراري، يمثل إحدى هذه الحالات. لقد وجد، كالآلاف من أمثاله، العزاء والدعم، ليس فقط في الوهم الكئيب بما يثيره من عبث، بل وفي اعتقاده أن طريق الموت مفتوحة أمامه في أي لحظة. صحيح أن معه، كما هو حال أمثاله، كل صدمة

وألم وورطة مستعصية كانت تستجمع على الفور الرغبة في العثور على مهرب من الموت، إلا أنه صمّم لنفسه في هذا الميل، وبالتدريج، فلسفة كانت في الحقيقة تعين على الحياة. وقد اكتسب قوة من خلال تآلفه مع اعتقاده أن باب الطوارئ مفتوح دائمًا، وأضحى أيضًا تواقًا إلى أن يتذوق معاناته وحتى آخر قطرة حنظل. فإذا ساءت الأمور معه شعر أحيانًا باستمتاع خبيث مقيت: «ومع ذلك أنا تواق إلى معرفة إلى أي مدى يستطيع الإنسان أن يتحمّل. فإذا كان في الإمكان بلوغ ما يمكن تحمّله، فكل ما عليّ أن أفعله هو أن أفتح الباب وأهرب». وهناك عدد كبير جدًّا من الانتحاريين تمنحهم هذه الفكرة قوة خارقة.

من ناحية أخرى، فإن الصراع ضد إغواء الانتحار مألوف لدى كل الانتحاريين. كل واحد منهم يعلم علم اليقين في ركنٍ ما من روحه أنّ الانتحار أسلوب خسيس ووضيع، على الرغم من فرصة الهروب التي يتيحها لنا، وأن من الأنبل والأرقى أن تصرعنا الحياة على أن نصرع أنفسنا بأيدينا. ولعلمهم بهذا، فإن غالبية هؤلاء الانتحاريين تُتْرَك لتشن صراعًا مطولاً ضد ما تتعرض له من إغواء، فتصارع صراع المهووس بالسرقة ضد آفته. وذئب البراري لم يكن غريبًا عن هذا الصراع. فقد كان قد انخرط فيه مع تبديل كبير في نوعية الأسلحة المستخدمة. وأخيرًا، وهو في سن السابعة والأربعين أو نحوها، خطرت له فكرة مؤاتية، لا تخلو من أذى، كثيرًا ما كانت مبعث تسلية له. فعيَّن تاريخ ميلاده الخمسين بوصفه اليوم الذي يمكن فيه أن ينتحر. وقد اتفق مع نفسه في هذا اليوم على أنه سيتكشف له، ووفقًا لحالته النفسية، إن كان عليه أن يلجأ إلى باب الطوارئ أم لا. فليقع له ما يقع من مرض، فاقة، ألم، ومرارة، فثمت توقيت محدد، ولا يمكن أن يمتد لما بعد هذه السنوات والشهور والأيام التي يتضاءل عددها يوميًا.

والحق أنه تحمل الكثير من وطأة المحن بسهولة. وكان جدير بها في السابق أن تكلفه عذابات أقسى وأطول أمدًا وأن تهزه ربما من أعماق كيانه. وحين كانت الأمور تسير معه من سيء إلى أسوأ، بسبب من الأسباب، عندما كانت الآلام والعقوبات الاستثنائية تضاف إلى جدب حياته ووحشتها ووحشيّتها، كان في وسعه أن يقول لمعذبيه: «فقط انتظروا سنتين وسأغدو سيدكم». وبهذا راح يفكر في صباح يوم عيد مولده الخمسين. وكانت تصله رسائل التهنئة، إلا أنه كان يدير ظهره لآلامه، واضعًا ثقته في موساه، ويغلق الباب وراءه. وعندئذ يصبح على داء المفاصل والانقباض النفسي وكافة آلام الرأس والجسد أن تبحث لها عن ضحية أخرى.

يبقى أن نوضح أن حالة ذئب البراري هي ظاهرة منعزلة، وذلك في علاقته مع العالم البورجوازي، إلى أن يتسنى لنا أن نتقصى أعراض حالته حتى منبعها. فلنبدأ من نقطة علاقته الشخصية بالطبقة البورجوازية ما دامت هي التي تقدم نفسها.

إذا أخذنا وجهة نظر ذئب البراري في الموضوع، نجد أنه كان يقف بمنأى عن عالم الأعراف التقليدية، بما أنه لم يكن يعيش حياة عائلية ولا يضمر طموحات اجتماعية. كان يشعر أن عليه أن يبقى عازبًا ووحيدًا، سواءً أبوصفه شخصًا غريب الأطوار أم ناسكًا غارقًا في كآبة مرضية، أم كمن أبعدته عن الناس العاديين مواهبه المتميزة المتسمة بشيء من العبقرية. وكان ينظر باستخفاف متعمد إلى الإنسان العادي ويشعر بالفخر لأنه ليس عاديًا مثله. غير أن حياته كانت عادية بكل معنى الكلمة من نواح عديدة. فقد كان يودع مبلغًا من المال في المصرف ويساعد أقرباءه الفقراء، ويظهر بمظهر محترم دون أن يلفت الانتباه، ولكن بطريقة تنم عن إهمال. وكان سعيدًا

بعلاقته الطيبة مع رجال الشرطة وجباة الضرائب وما شابههم من أصحاب النفوذ. إضافة إلى ذلك كان العالم البورجوازي الصغير يجذبه سرًا وباستمرار، تجذبه تلك المنازل المحترمة بحدائقها الأنيقة حيث تقيم السكينة، وبيوت السلالم تامة المزايا، يسودها جو متواضع يربّيه النظام والراحة. وكان يسرّه أن ينأى بنفسه عن هذا العالم، بعيوبه الصغيرة وتصرفاته المتطرفة، باعتباره إنسانا غريب الأطوار أو عبقريا، لكنه لم يتخذ له قط مقامًا دائمًا في تلك المساكن حيث لم يعد للطبقة البورجوازية وجود. ولم يكن يرتاح للأشخاص العنيفين أو الاستثنائيين أو المجرمين أو الخارجين على القانون، وكان دائما ما يتخذ له مسكنًا بين الطبقات الوسطى، التي كان على تواصل دائم مع عاداتها ومعاييرها وجوّها العام، وإن كانت صلةَ تعارُض وتمرُّد. وزيادة على ذلك، فقد نشأ في بيت تقليدي، لم يخالف الكثيرَ من مفاهيمه وأغلب مُثُله. نظريًا لم يكن لديه أي اعتراض على البغاء، أما عمليًا فكان من المستحيل أن ينظر إلى عاهرة نظرة الند للند. كان في مقدوره أن يحب المجرم السياسي أو الثوري أو المحرض الفكري أو طريد القانون والمجتمع كأخ له، أما السرقة والسطو، وكذلك القتل والاغتصاب، فما كان ليعرف كيف يشجبها إلا بأسلوب بورجوازي محض.

بهذه الطريقة كان دائمًا يسلّم ويقرّ، فكرًا وعملاً، بنصف منه، وبالنصف الآخر كان يرفض ويستنكر. ولما كان قد نشأ في بيت راق وبالأسلوب المستحب، فلم يعمد قط إلى أن يفصل جزءًا من روحه عن أعرافها حتى بعد أن انفرد بنفسه لوقت طويل نسبيا، ونأى بعيدًا عن مداها، وتحرر من جوهر مُثُلها العليا ومعتقداتها.

إن ما ندعوه بـ «البورجوازي» بوصفه عنصرًا موجودًا دائمًا في

الحياة الإنسانية ما هو إلا البحث عن توازن ما، إنه اللهاث خلف واسطة بين أعداد لا تحصى من التصرفات المتطرفة والمتناقضة التي تبرز في السلوك الإنساني. وإذا تناولنا أي زوج من هذه التناقضات، كالتقوى والتهتك، لفهمنا القياس على الفور. ومن المباح لأي إنسان أن يستسلم بكلّيته للآراء الروحية، للسعي بحثًا عن الله، لتبني الورع كمثل أعلى. ومن ناحية أخرى أيضًا أن يهب نفسه بكاملها لحياة الغرائز، لشهوات الجسد، فيوجّه كل جهوده لبلوغ المتع العابرة. إن إحدى الطريقين تؤدي إلى القديس، إلى شهادة الروح والاستسلام لله، والطريق الأخرى تؤدي إلى المتهتك، إلى شهادة الجسد والاستسلام للفساد. والبورجوازي يسعى إلى أن يسير بين الاثنين، في وسط الطريق. إنه يرفض تمامًا أن يستسلم للشبق أو للزهد، ويرفض أن يكون شهيدًا أو أن يوافق على دماره. بل على العكس، إن مثله الأعلى هو أن لا يستسلم وإنما أن يحقق ذاته. إنه لا يكافح لبلوغ القدسي ولا نقيضه، ويمقت المطلق. ربما هو مستعد لأن يخدم الله، ولكن ليس بالتخلي عن الترف. وهو مستعد لأن يكون فاضلاً، لكنه يحب أن تكون حياته في هذا العالم رخية ومريحة. باختصار، إن هدفه هو أن يتخذ له مسكنًا بين طرفي نقيض في منطقة معتدلة لا تضربها عواصف عاتية أو أعاصير، وهو ينجح في تحقيق ذلك، وإن كان على حساب كثافة الحياة والشعور التي تمنحها الحياة المتطرفة. فالإنسان لا يستطيع أن يعيش حياة غنية إلا على حساب نفسه. ولا شيء يفوق في قيمته عند الإنسان البورجوازي أكثر من نفسه (مهما كانت بدائية). وهكذا يحافظ على حياته ويحقق أمانه على حساب كثافة الحياة. ويحصد لقاء ذلك هدوء البال الذي يفضّله على أن يمسّه الله، كما يفضل الراحة على السرور، والظرف الملائم على الحرية، ودرجة الحرارة المريحة على تلك النار الداخلية

المهلكة المميتة. والبورجوازي، على هذا، وبطبيعته، مخلوق، ذو دوافع ضعيفة، وهو قلق، يملؤه الخوف من إفشاء ما في سريرته ومن السهل السيطرة عليه. لذا، استبدل الأغلبية العددية بالسلطة والقانون، بالقوة والانتخاب، بالاقتراع، بتحمّل المسؤولية.

من الواضح أن هذا المخلوق الضعيف القلق، مهما بلغ عدد التجمعات التي يعيش فيها، لا يستطيع أن يعيل نفسه. والخصال التي يتصف بها لا تلعب في العالم إلا دور قطيع من الغنم بين ذئاب حرة هائمة. غير أننا نرى أن البورجوازي، حتى في الأوقات التي يكون لذوي الطبائع المسيطرة اليد الطولى، ينهار على الفور، لكنه لا يتحطم أبدًا، بل إنه حتى في بعض الأحيان يبدو كأنه يسيطر على العالم. أممكن هذا؟ فلا أعداد القطيع الغفيرة ولا الفضيلة ولا الحس السليم ولا النظام يفيد في إنقاذ العالم من الدمار. لا يوجد في العالم كله دواء قادر على إبقاء نبض شديد الضعف في الأصل يواصل الخفقان. ومع ذلك، فالطبقة البورجوازية تزدهر. لماذا؟

الجواب هو ما يلي: بفضل ذئاب البراري. بل إن قوة الطبقة البورجوازية الحيوية لا تكمن، في الحقيقة، في خواص أفرادها الطبيعيين، وإنما في خواص أشد أفرادها تطرفًا في «انعزالهم». أولئك الذين تستطيع أن تستوعبهم بفضل شموليةِ مثلها العليا ومرونتها. وثمت دائمًا عدد كبير من أصحاب الطبائع القوية والجامحة الذين يشاركون في حياة القطيع. وصاحبنا ذئب البراري، مثال متميز على ذلك. والشخص الذي تجاوز بتطوره المستوى المعقول للإنسان البورجوازي، الذي لا تقل معرفته بنعمة التأمل عن المتع القاتمة، متع الكراهية، حتى كراهية الذات، ومن يمقت القانون والفضيلة والحس السليم، يظل مع ذلك أسير الطبقة البورجوازية ولا يقوى على

الإفلات من سحرها. وهكذا نرى أنه تتخلل كامل الطبقة البورجوازية الحقيقية طبقات دخيلة عديدة من الإنسانية، آلاف مؤلفة من الحيوات والعقول، وصحيح أن كلاً منها كان جديرًا بأن يفوقها حجمًا وأن يلبي نداء الحياة المنطلقة، لو لم تكن موثقة إليها بمشاعر مرحلة طفولتها العاطفية وملوثة في معظمها بحياتها الأقل غنى، وهكذا تظل في مكانها، صاغرة ومقيدة بأداء الالتزامات والخدمات. إذ حين يتعلق الأمر بالطبقة البورجوازية فإن عكس الصيغة يكون في الغالب صحيحًا، إنّ من ليس ضدي هو في صفي.

لنختبر الآن روح ذئب البراري. سوف نجد أنه يختلف عن البورجوازي في أعلى مراحل تطور فرديته – لأن كل امتدادات الفردية تدور حول الذات وتعمل على تدميرها. ونرى أنه ينطوي على اندفاع قوي نحو القديس والمتهتك معًا، لكنه يعجز، نظرًا إلى اتصافه بقدر من الضعف أو القصور الذاتي، عن الغوص في عوالم الفضاء الحرة المترامية. وتقيِّده المجموعة البورجوازية التي تربطه بسحرها صلة الغرابة. هذا هو مكانه في الكون، وهذه هي عبوديته. ومعظم المفكرين والفنانين ينتمون إلى النمط نفسه. والأقوى بينهم فقط يشقون سبيلهم في فضاء العالم البورجوازي، ويصلون إلى الكون اللامتناهي. أما الباقون فيتكيفون كلهم، أو يقبلون بتسويات مذلَّة. ويزيدون من قوتهم ومجدهم بنفورهم من الطبقة البورجوازية، على الرغم من انتمائهم إليها، إذ أنهم يضطرون في نهاية المطاف إلى التشديد على معتقداتهم لكي يعيشوا. وحياة هؤلاء الأشخاص بأعدادهم التي لا تُحصى لا تدَّعي المأساوية، لكنهم يعيشون تحت نجم شرير وسط جو من الأسى العارم، بل إن مواهبهم في هذا الجحيم تنضج وتثمر. قلائل هم الذين يتحررون ناشدين مكافأتهم في اللامشروط، ويسقطون

بوقار. إنهم يضعون تاج الشوك على رؤوسهم وعددهم قليل. إلا أن الآخرين الذين يبقون داخل الحظيرة تجني الطبقة البورجوازية من مواهبهم الربح الكثير، فإن مملكة ثالثة تبقى مفتوحة أمامهم، عالم من صنع الخيال لكنه رائع، هو عالم الفكاهة. والذئاب المستوحدة التي لا تعرف السكينة إنما هي ضحايا ألم متواصل، هؤلاء الذين قُوبِل اندفاعهم نحو المأساة بالنكران، العاجزون عن الانطلاق في الفضاء المترامي، الذين يشعرون أن نداءً يستدعيهم إلى هناك، ومع ذلك لا يستطيعون أن يبقوا على قيد الحياة، هؤلاء الذين جعل الألم الجاهز أرواحهم صلبة ومرنة بشكل كاف. لذلك خصصوا أسلوبا للمصالحة ومهربا إلى الفكاهة. ولطالما انطوت الفكاهة على جانب بورجوازي، على الرغم من أن البورجوازي الأصيل عاجز عن فهمها. ففي عالمها الخيالي يتحقق المثل الأعلى المعقد والمتعدد الوجوه لكل ذئاب البراري. هنا يصبح ممكنًا ليس فقط إطراء القديس والمتهتك في نَفَسٍ واحد، وجَعْلُ طرفي النقيض يتلاقيان، بل أيضًا، شَمْلُ البورجوازيِّ بالقبول نفسه. والآن يصبح ممكنًا مسّ الله، وقبول الإثم، والعكس بالعكس، ولكن من غير الممكن للقديس أو للآثم (ولا لأي من غير المقيّدين) أن يؤكدا أيضًا أن الإنسان الذي تعوزه الحماسة هو البورجوازي. والفكاهة وحدها، ذاك الاكتشاف الرائع الذي تم على أيدي من قوطعت دعوتهم إلى القيام بأشدّ المحاولات جرأة، هؤلاء الذين على الرغم من قصورهم عن بلوغهم المأساة، فإنهم مازالوا أغنياء بالمواهب كما بالأسى، أقول إن الفكاهة وحدها (ولعلها إنجاز الروح الإنسانية الأكثر فطريّة ونقاء) تبلغ المستحيل وتسلط أشعتها على كل جانب من جوانب الوجود الإنساني. العيش في العالم كما لو أنه ليس العالم، واحترام القانون وتجاوزه أيضًا، وامتلاك الأشياء وكأن المرء

«لا يملك أي شيء»، والإنكار وكأنه ليس إنكارًا، كل هذه الافتراضات الأثيرة، والمستنبطة غالبًا، ليس في مقدرة إلا الفكاهة وحدها أن تجعلها فعّالة.

إذا فرضنا أن ذئب البراري قد نجح، وهو الذي يتمتع بفيض من المواهب والوسائل، في استخلاص هذه الجرعة السحرية في جو متاهات جحيمه الحار الرطب، لتأكَّدَ خلاصه. ولكن هناك نقص هائل. إذ ليس هناك إلا الاحتمال، الأمل. وكل من يحبه ويقف في صفه قد يتمنى له الخلاص. صحيح أن هذا سوف يقيّده دوما إلى العالم البورجوازي، غير أن معاناته ستكون محتملة ومثمرة. وستفقد صلته بالعالم البورجوازي صفتها العاطفية حبّا وكراهية معًا، وستكف عبوديته له عن كونها سببا للإحساس بالعار المتواصل، ستكفّ عن كونها مصدرا لعذابه.

لكي يحقق ذئب البراري كل هذا، أو ليغدو قادرًا ربما على أن يقفز أخيرًا إلى المجهول، عليه أن يلقي نظرة أخيرة على نفسه. عليه أن يغوص بنظره عميقًا إلى عماء روحه، وأن يسبر أعماقها. وعندئذ سوف ينكشف له لغز وجوده على الفور بكل ثباته، وسيكون من المستحيل عليه أن يظل هاربًا، أولاً من جحيم الجسد إلى نعيم فلسفة عاطفية، ومن ثم أن يعود إلى القصف الأعمى لطبيعته الذئبية. حينها سوف يُرغَم الإنسان والذئب على التعرف كل منهما إلى الآخر دون قناعٍ المشاعر الزائفة وسيضطرّان إلى المواجهة المباشرة. عندئذ إمّا أن ينفجر الوضع بينهما ويفترقان دون رجعة، فيختفي ذئب البراري إلى الأبد، أو أن يتوصلا إلى اتفاق على ضوء فجر الفكاهة.

من الممكن أن يجد هاري نفسه ذات يوم سائرًا باتجاه هذا الخيار الأخير. ومن الممكن أن يتعلم ذات يوم كيف يعرف نفسه. وقد يتمكن

من حمل إحدى مراياننا الصغيرة. وقد يقابل الخالدين. وقد يعثر في أحد مسارحنا السحرية على الشيء اللازم بالضبط لتحرير روحه المهملة. إن ألفًا من مثل هذه الاحتمالات في انتظاره، وقدره هو الذي يحققها، ولا يترك له خياراً في ذلك، لأن أولئك الموجودين خارج الطبقة البورجوازية يعيشون في جوّ هذه الاحتمالات السحرية، وقبل أن يقع ما يستحق الذكر يومض البرق.

كل هذا يعرفه ذئب البراري حق المعرفة، على الرغم من أن عينيه قد لا تقعان على هذه الفقرة في سيرته الداخلية. إنه يرتاب من مكانه المقدَّر له في العالم، ويرتاب من الخالدين، ويرتاب في أنه قد يقابل نفسه وجهًا لوجه، ثم إنه يعي وجود تلك المرآة التي هو في أمسّ الحاجة إلى أن ينظر فيها والتي ينكص منكمشًا بعيدًا عنها وقد تملّكه خوف مريع.

* * *

ختامًا لدراستنا بقي هناك وهم آخر وأخير، أو ضلال أساسي يجب إيضاحه. إن كل لجوء إلى التفسير وعلم النفس وكل المحاولات لجعل الأمور مفهومة، إنما يتطلب وسطًا من النظريات، والأساطير والأكاذيب، وعلى الكاتب الذي يحترم نفسه أن لا يفعل عند نهاية عرض ما أن يبدد هذه الأكاذيب بكل ما لديه من طاقة. فإذا قلت «فوق» أو «تحت»، فهذا تقرير يتطلب تفسيرا، بما أن الفوق والتحت موجودان فقط في الفكر، فقط في المجردات. والعالم نفسه لا يعرف أي شيء عن فوق وتحت.

عندما نصل إلى النقطة محور البحث نجد أن ذئب البراري أيضًا هو وهم. فعندما يشعر هاري أنه مستذئب، ويفضل أن يكون مؤلَّفًا من كائنين عدائيين ومتناقضين، فهو فقط يستفيد من تبسيط ميثولوجي.

إنه ليس مستذئبًا على الإطلاق، فإذا بدا أننا نقبل بلا تدقيق هذه الكذبة التي لفّقها لنفسه وصدّقها وحاول أن يعتبره حرفيًا كائنًا مزدوجًا وذئب بَرارٍ، وهو بتسميته هكذا إنما فقط أملاً في أن يُفهم بسهولة أكبر بمساعدة وهم ما، والذي ينبغي علينا الآن أن نحاول أن نظهره على صورته الحقيقية.

إن هذا التقسيم إلى ذئب وإنسان وجسد وروح والذي يحاول هاري من خلاله أن يفهم قدره بسهولة أكبر ما هو إلا تبسيط هائل للأمر. إنه إجبار الحقيقة لتتناسب وتفسير مقبول، ولكنه مغلوط، لذاك التناقض الذي اكتشفه هذا الرجل في نفسه والذي يبدو له أنه أصل معاناته التي لا يمكن بأي حال تجاهلها. إن هاري يرى في نفسه «كائنًا بشريًا»، بمعنى، عالما من الأفكار والمشاعر، من الثقافة والطبيعة المروّضة أو المتسامية، وقد عثر أيضًا إلى جانب هذا في داخله على «ذئب»، أي، على عالم مظلم من الغريزة، من الهمجية والوحشية، على طبيعة سافلة وفجة، وعلى الرغم من هذا التقسيم الواضح ظاهريًا لكينونته إلى عالمين، يعادي أحدهما الآخر، فإنه كان يمرّ بين حين وآخر بلحظات سعادة، عندما يتصالح الإنسان والذئب فترة وجيزة. فعندما كان هاري يحاول أن يتحقق من حياته ومن أي عمل يقوم به في أي لحظة، من الدور الذي يلعبه الإنسان فيه والدور الذي يقوم به الذئب، إذا به يجد نفسه على الفور في مأزق، وتتهشم كامل نظريته الجميلة عن الذئب شذرًا. إذ ليس هناك كائن بشري واحد أو حتى زنجي بدائي أو حتى أبله، يتصف بالبساطة الكافية وهو ما يسمح بتفسير كيانه وكأنه مقدار من عنصرين أساسيين أو ثلاثة. إن تفسير إنسان على قدر كبير من التعقيد، وما تقسيم هاري بسذاجة إلى ذئب وإنسان إلاّ محاولة حمقاء إلى أبعد حد. إن هاري يتألف

من مئة أو ألف ذات، وليس فقط اثنتين. وحياته تتأرجح، كحياة أي إنسان، ليس فقط بين قطبين، كالجسد والروح، والقديس والآثم، بل بين آلاف الأقطاب، أقطاب لا حصر لها.

ينبغي ألاّ نفاجأ إذ نرى إنسانًا بذكاء وثقافة هاري، يعتبر نفسه ذئب بَرارٍ، ويحجِّم نظام حياته الغني والمعقد إلى صيغة غاية في البساطة والبدائية والسذاجة. إن الإنسان عاجز عن الارتقاء بالفكر عاليًا، وحتى أشد الرجال روحانية وعلوّا في الثقافة، يرى عادة العالم ونفسه من خلال صيغ مضللة وتبسيطات خرقاء، وخاصة نفسه. إذ يبدو أن كل إنسان بحاجة ملحة وفطرية إلى اعتبار نفسه وحدة واحدة. ومهما تكرر تهشيم هذا الوهم وكان ذلك موجعًا، فإنه دائمًا يعود فيلتئم. والقاضي الذي يطل من فوق مجلسه على القاتل ويحدّق إلى وجهه، ويتعرّف برهة من الزمن على كل مشاعر القاتل وإمكاناته واحتمالاته داخل روحه هو، فيسمع صوت القاتل وكأنه صوته هو يعود في اللحظة التالية واحدًا لا يتجزأ بوصفه قاضيًا، ويهرع متراجعًا إلى قوقعة ذاته المثقفة، ويؤدي واجبه، ويحكم على القاتل بالموت. فإذا ما انتاب الشك ذوي القدرات الخارقة، والتصورات المرهفة بشكل خارق في كيانهم المتعدد الجوانب، حتى أنهم، وكما يحدث مع كل العباقرة، يخترقون وهم وحدة الشخصية، ويدركون أن الذات مؤلفة من حزمة من الذوات، ويكفي أن يقولوا هذا حتى تعمد الأغلبية وعلى الفور إلى حبسهم بالقفل والمفتاح، وتطلب مساعدة العلم، وتثبت وجود انفصام في الشخصية، وتحمي الإنسانية من ضرورة سماع صرخة الحقيقة المنبعثة من بين شفاه هؤلاء التعساء. فلماذا إذن نهدر الكلمات؟ لماذا ننطق بشيء يقبله كل إنسان مفكر على أنه بديهي، في حين أن مجرد نطقه يكسر الذوق العادي؟ لذا، فإن كل إنسان يتوصل إلى حد

يجعل فيه وحدة الذات المفترضة ثنائية الجانب هو عبقري حتمًا، أو على الأقل شخص استثنائي إلى أقصى حد ومثير للاهتمام. ولكن على أرض الواقع كل ذات من ناحية كونها وحدة واحدة، هي عالم متعدد الجوانب على أعلى مستوى، وسماء مرصّعة بالنجوم، وعماء من الأشكال والحالات والمراحل والمواريث والاحتمالات. ويبدو من الضروري، ضرورة ملحة كالأكل والتنفس، بالنسبة إلى أي إنسان أن يُجْبَر على أن يعتبر هذا العماء وحدة واحدة، وأن يتحدث عن ذاته بوصفها أحادية الجانب وظاهرة منفصلة بجلاء وثابتة، حتى أفضلنا يشترك في تبني هذا الوهم.

الوهم يقوم ببساطة على أساس تشابه زائف، فكل إنسان منفرد جسديًا، أما في الروح فأبدًا لم يكن كذلك. وفي الأدب أيضًا حتى في أشد إنجازاته غنى، نعثر على هذا الهم المألوف عند الشخصياتِ الروائية مجتمعة ومنفردة. ومن بين كل فروع الإبداع الأدبي الذي أُنتج حتى يومنا هذا ظلت الدراما هي الشكل الأعلى تقديرًا من الكتّاب والنقاد، وهم على حق بما أنها تقدّم (أو قد تقدم) الاحتمالات الأعظم لإظهار الذات كهوية متعددة الجوانب، ولكن فقط أمام الوهم البصري، الذي يجعلنا نصدق أن شخصيات المسرحية هي هويات أحادية الجانب بإيداع كل منها في جسد رائع، منفرد، منفصل وبشكل نهائي. وعندئذ يكنّ النقد الجمالي الأخرق أعلى تقدير لما يسمى بالشخصية الدرامية التي تظهر فيها كل شخصية كهوية منفصلة ومنفردة بوضوح تام. ثم يبدأ الشك بالظهور من بعيد وشيئًا فشيئًا هنا وهناك، في أن كل هذا ربما كان مجرد فلسفة جمالية سطحية ورخيصة، وإننا نرتكب خطأً إذ ننسب إلى كتّابنا المسرحيين تلك المفاهيم الرفيعة في الجمال والتي تصلنا من عهد غابر. وهذه المفاهيم ليست متأصلة فينا، وإنما

فقط انتقيناها بطريقة غير مباشرة، ونعثر فيها، بما تشترك فيه من جسد مرئي، على وهم أصيل في ذات ما، أو فردٍ ما. ولا نجد أثرًا لمثل هذه الفكرة في قصائد الهند القديمة. فأبطالُ ملاحم الهند ليسوا أفرادًا، بل مجموعات هائلة من الشخصيات الفردية تتخذ سلسلة من التجسدات. وفي العصور الحديثة هناك إبداعات شعرية، الدافع الكامن فيها خلف غلالة من الاهتمام بسمات فردية وشخصية لم تخطر على بال المؤلف، هذا الدافع هو أن يقدم نشاطًا متعدد الجوانب للروح. وكل من يرغب في أن يلاحظ هذا يجب أن يقرر قرارًا نهائيًا أن لا يعتبر الشخصيات في ذلك الإبداع كيانات منفصلة، وإنما واجهات مختلفة وأوجهًا لوحدة أرقى، في اعتقادي، لروح الشاعر. وإذا عوملت مسرحية «فاوست» بهذه الطريقة، فإن شخصيات فاوست ومفيستوفيليس وفاغنر والباقين يشكلون وحدة واحدة وفردية أسمى، وفي هذه الوحدة الراقية وحدها، وليس في الشخصيات المتعددة يتجلى شيء من الطبيعة الحقة للروح. وفي بيت من الشعر خلَّده أساتذة المدارس وهلّل له المحافظون مع رعشة دهشة، عندما يقول فاوست: «روحان، واحسرتاه، تسكنان صدري!» فهو قد نسي ذكر مفيستو وكامل حشد الأرواح الأخرى التي كان يضمها أيضًا بين أضلعه. وذئب البراري بدوره يؤمن بأنه يحمل روحين (ذئب وإنسان) بين أضلعه ومع ذلك فهو يشعر أن صدره يضيق بهما. والحق أن الصدر والجسد شيء واحد، أما الأرواح التي تسكنه فليست فقط اثنتين، ولا خمسًا، وإنما لا حصر لها ولا عدّ. إن الإنسان بَصَلَة مكونة من مئة غلاف، نسيج مؤلف من خيوط عديدة. والآسيويون القدامى يعرفون هذا حق المعرفة، وفي اليوغا البوذية ابتكرت تقنية دقيقة لفضح وهم الهوية الشخصية. إن الدوامة الإنسانية تشهد تغيرات كثيرة: الوهم الذي

كلَّف الهند جهود آلاف السنين لفضحه هو نفسه الوهم الذي جاهد الغرب بعزم مساوٍ للمحافظة عليه وتعزيزه.

إذا تأملنا ذئب البراري من موقع النظر هذا فسيتضح سبب معاناته الفادحة تحت وطأة هذه الهوية الشخصية المزدوجة والمثيرة للسخرية. إنه يؤمن، مثل فاوست، بأن روحين هما أكثر مما يطيق صدرٌ على احتوائه بكثير، ويجب تمزيق الصدر شذرًا. وفي الحقيقة إنهما على العكس أقل بكثير مما ينبغي، وهاري إنما يعرِّض روحه المسكينة لصدمة عنيفة، عندما يحاول أن يفهمها بواسطة صورة غاية في البدائية. وعلى الرغم من كونه إنسانًا على درجة عالية من الثقافة، إلا أنه يتقدّم كهمجي يعجز عن العد إلى أكثر من اثنين. إنه يسمّي نفسه نصف ذئب ونصف إنسان، وهو بهذا يعتقد أنه قد وصل إلى نهاية المطاف، واستنفذ الإشكال، إنه يحشد في «الإنسان» كل ما هو روحي وسام أو حتى مهذب فيه، وفي الذئب كل ما هو غريزي وهمجي وعمائي. غير أن الأمور في الحياة ليست بهذه البساطة كما تبدو في أفكارنا، ولا هي صالحة لتسوية الحال كما تظهر في لغتنا السقيمة الحمقاء، وهاري يكذب مرتين على التوالي بشأن نفسه عندما يستخدم نظرية الذئب الهزيلة هذه، ونخشى أنه ينسب كامل عالم روحه إلى «الإنسان» الذي هو أبعد من أن يكون عالما إنسانيًا، وينسب أجزاءً من كيانه إلى الذئب الذي خلّف وراءه عالم الذئاب قبل زمن بعيد.

إن هاري يؤمن ككل البشر بأنه يعلم علم اليقين ما هو الإنسان، لكنه لا يعرف أي شيء، وإن كان في الأحلام وفي حالات أخرى لا يمكن التحكم فيها غالبًا ما تنتابه شكوك. ليته كان قادرا على تذكرها، والاحتفاظ بها لنفسه على الأقل، أطول مدة ممكنة. إن الإنسان

ليس بأي حال من الأحوال شكلاً ثابتًا ودائمًا. (كان هو المثل الأعلى للأقدمين، على الرغم من الشكوك المناقضة التي أبداها الحكماء). إنه أقرب إلى كونه تجربة ومرحلة انتقالية، وليس أكثر من جسر ضيق وخطر يمتد ما بين الفطرة والروح. وقدره الأكثر إيغالا يقوده إلى الروح وإلى الله. وتوقه الأعمق يعود به إلى الفطرة، إلى الأمّ. وتبقى حياته معلقة مرتعشة ومترددة بين قوتين. والمقصود عمومًا بكلمة «إنسان» ليس أكثر من اتفاق عابر، ليس أكثر من تسوية بورجوازية. وبعض الغرائز الأكثر عريًا قد أبعدت وعوقبت بسبب هذا الميثاق، كما في كل مثلٍ أعلى بورجوازي آخر، هو تسوية، تجربة رعديدة وماكرة بشكل أخرق، تهدف إلى خداع الطبيعة الأم الأولى الغاضبة والروح الأب المشاغب معًا لمطالبهما الملحاحة، وتصبو إلى العيش في المنطقة المعتدلة الواقعة بينهما، ولهذا السبب يتسامح الإنسان العادي مع ما يسميه بـ «الشخصية»، لكنه، في الوقت نفسه، يتنازل عن الشخصية إلى «دولة» مولوخ[1] ويصبحان في حالة مواجهة مستمرة. ولهذا السبب نرى البورجوازي اليوم يحرق الذين أقام لهم بالأمس نصبًا تذكارية كالمهرطقين، ويشنقهم كالمجرمين.

إن الإنسان خلقٌ لم يكتمل بعد بل هو بالأحرى تحدي الروح، احتمالٌ بعيدُ المنال يخشى جانبه بقدر ماهو مرغوب، وذئب البراري يخامره شعور أيضًا بأن الطريق إليه فرشت فقط مسافة قصيرة منها بالأحزان الرهيبة والنشوات حتى على يد تلك القلّة التي تُنصب المشانق لها اليوم وستُقام لها النصب التذكارية غدًا. إلا أن ما يسميه جانب «الإنسان» فيه، باعتباره نقيض الذئب، ليس في الغالب إلا هذا الإنسان العادي نفسه الذي يتبنى عُرف البورجوازي.

---

(1) مولوخ: إله قديم، كان يُضحّي بالأطفال لأجله. والإشارة هنا إلى الدولة المستبدة. (المترجم).

أما السبيل إلى الرجولة الحقة، السبيل المؤدي إلى الخلود، فصحيح أن لديه فكرة غامضة عنه وهو يخطو فيه بين حين وآخر بضع خطوات مترددة ويدفع ثمنها الكثير من الآلام والعديد من غصّات الوحشة. وأما عن المجاهدة مع ثقة في النفس، تلبيةً لحاجة سامية، باتجاه رجولة الروح الحقَّة، وطرق الدرب الضيقة الوحيدة المؤدية إلى الخلود، فهو ما يخافه خوفًا عميقًا. إنه يعلم عِلْمَ اليقين أنها تفضي إلى معاناة أفدح بكثير، إلى الإبعاد، إلى الزهد الأقصى، وربما إلى المشنقة، ومع كل ذلك يظل إغواء الخلود موجودًا عند نهاية الرحلة، ويظل غير راغب في تكبد تلك المعاناة وفي أن يموت كل تلك الميتات. وعلى الرغم من أن نهاية الرجولة معروفة لديه أكثر مما لدى البورجوازي، إلا أنه مع ذلك يتغاضى عنها. إنه مصمّم على أن ينسى التشبث اليائس بالذات والتشبث اليائس بالحياة وهما أضمن سبيلين إلى الموت الأبدي، في حين أن القدرة على الموت، على تعرية المرء لذاته، واستسلام الذات الأبدي، تجلب معها الخلود. وعندما يتعبَّد المفضَّلين لديه من الخالدين، فإنه ينظر، وربما دائمًا، إلى موتسارت وعلى المدى الطويل بعين البورجوازي. وهو يميل إلى أن يفسر كيان موتسارت المنجز على طريقة أستاذ المدرسة بوصفه هبة سامية وليس لكونه نتيجة لقدراته الهائلة على الاستسلام والمعاناة، وعلى لا مبالاته بمثل البورجوازي العليا، وعلى صبره تحت ضغوطات أعلى درجات الوحشة التي تخلخل جو العالم البورجوازي حتى يغدو أثيرًا من جليد، وحشة تحيط بالذين يعانون لكي يصبحوا أناسًا ليس أكثر.

صاحبنا ذئب البراري هذا طالما كان واعيًا على الأقل بالطبيعة الفاوستية المزدوجة داخله. وقد اكتشف أن الجسد أحادي الجانب لا تسكنه روح أحادية الجانب، وأنه في أفضل الأحوال موجود في بداية

رحلة حج طويلة وجهتها هذا التناغم المثالي. وهو يفضل إما أن يقهر الذئب ويصبح كله إنسانًا أو أن يتخلى عن البشر ويعيش في نهاية المطاف حياة ذئب كاملة. وقد يقول قائل إنه لم يشاهد قط من قرب ذئبًا حقيقيًا. ولو أنه قد فعل لأدرك ربما أنه حتى الحيوانات لا تخلو روحها من انفصام، حتى معها يُخفي جمال الجسد المتناسق كيانًا يتسم بتعدد الأحوال والصراعات. إن للذئب أيضًا لُججه. والذئب أيضًا يعاني. كلا، إن طريق العودة إلى الطبيعة هو مسار زائف لا يؤدي إلا إلى الآلام واليأس. ولا يمكن لهاري أن يعود من جديد ليغدو ذئبًا كله، ولو كان في وسعه أن يفعل ذلك لوجد حتى الذئب لا يتصف ببساطة بدائية، وإنما هو في الأصل مخلوق يتسم بتعقيد متعدد الجوانب. حتى الذئب يضم بين أضلعه نفسين، بل أكثر من نفسين، ومن يرغب في أن يكون ذئبًا يغرق في النسيان نفسِه الذي يغرق فيه الرجل الذي يرتّل: «ليتني أعود طفلاً من جديد». ومَنْ يرتّل بنبرة عاطفية مزمور الطفولة المباركة إنما يفكر في العودة إلى الفطرة وإلى البراءة وإلى أصل الأشياء، وقد نسي تمامًا أن هؤلاء الأطفال المباركين محاصرون بالصراع والتعقيدات وقادرون على المعاناة بكافة أصنافها.

الحقيقة هي أنه لا وجود لخط عودة سواء إلى الذئب أو إلى الطفل. إن البراءة والفردية مفقودتان منذ البداية. وكل مخلوق، حتى أبسطها، مذنب مسبقًا ومتعدد مسبقًا. لقد رُمي في سيل الوجود الموحل، وقد لا يسبح عائدًا قط إلى منبعه. إن الطريق إلى البراءة، إلى الأزلي وإلى الله تؤدي إلى الأمام، وليس إلى الوراء، ليس إلى العودة إلى الذئب أو إلى الطفل، ولكن أعمق فأعمق داخل الإثم، أعمق فأعمق داخل الحياة الإنسانية. وذئب بَرارٍ ذو ميول انتحارية، أو

حتى تعيس، لن يفيد غرضك حقًا. سوف تجد نفسك سائرًا في أطول الطرق المؤدية إلى الحياة الإنسانية وأشدها إرهاقًا ومشقة. وسيكون عليك أن تضاعف مرات عديدة كيانك المزدوج وأن تعقّد تعقيداتك أكثر. وبدل أن تضيّق عالمك وتبسّط روحك، سوف تحتوي أخيرًا العالم كله في روحك، مهما كلّفك الأمر، قبل أن تملّ وتركن إلى الراحة. هذه هي الطريق التي سلكها بوذا، وكل رجل عظيم رحل، عن وعي أو بلا وعي، طالما أن الخط يساند سعيه. إن كل مولد يعني الابتعاد عن الكل، الانغلاق داخل حدود، الانفصال عن الله، عذابات الولادة المتجددة دائمًا. والعودة إلى الكل يعني الارتقاء بالشخصية عبر المعاناة إلى أن تبلغ الله، وامتداد الروح إلى أن تعود قادرة من جديد على احتواء الكل.

نحن لا نتعامل هنا مع الإنسان بمنطق علم الاقتصاد والإحصاء كما يُرى وهو يحشد الشوارع مع الملايين من أمثاله الذين لا تفوق قيمتهم قيمة رمل الشاطئ أو رذاذ أمواجه. إننا لسنا مهتمين بالملايين قلّوا أم زادوا. إنهم أدوات لا أكثر. كلا، إننا نقصد بكلامنا الإنسان بالمعنى الأسمى، نهاية الطريق الطويلة المؤدية إلى الإنسانية الحقة، إلى العباقرة الخالدين. إن العبقرية ليست نادرة كما نعتقد أحيانًا، وطبعًا ليست ظاهرة متكررة كما يبدو من كتب التاريخ أو من الصحف. يجب أن نذكر أن هاري يتمتع بعبقرية كافية تتيح له أن يبحث عن الإنسانيّ بدل أن يتحدث بشكل مثير للشفقة عن نظريته الحمقاء حول ذئب البراري كلما قابلته صعوبة.

إنه لمن المدهش أيّما دهشة ومن المحزن أيضا أن يلجأ أصحاب مثل هذه الإمكانيات إلى ذئاب البراري وفكرة «إنهما روحان ويا للأسف!» بقدر ما يدهش أنهم غالبًا ما يُظهرون ذاك الحب المثير للشفقة

تجاه البورجوازية. فمن في وسعه أن يفهم بوذا ولديه حدس بنعيم الإنسانية وجحيمها ينبغي أن لا يعيش في عالم يحكمه «الحس السليم» والديمقراطية ومعايير البورجوازي. إن الجبن وحده يدفعه إلى العيش فيه، فإذا أطبقت أبعاده بشدة عليه وضاق صالون البورجوازي حتى الاختناق، يرمي به على عتبة باب ذئب البراري، ويرفض أن يفهم أن الذئب غالبًا ما يكون أفضل جزء فيه. إنه يسمّي كل ما هو جامح فيه ذئبًا، ويعتبره خبيثًا وخطرًا وبعبعا يهدّد الحياة المحترمة كلها. هو لا يدرك، على الرغم من أنه يعتبر نفسه فنانًا وصاحب تصورات مرهفة، أن أشياء أخرى كثيرة جدًا موجودة فيه إلى جانب الذئب وقبله. هو لا يفهم أنْ ليس كل ما يعض ذئبا وأن الثعلب والتنين والنمر والقرد وعصفور الجنة موجودون أيضًا هناك. إلا أنه يسمح لهذا العالم برمّته، لهذا النعيم بكل ما فيه من جمال ورعب، من عظمة وحقارة، من قوة ورقّة، أن يتراكم معًا وبإهمال، وينغلق بسبب أسطورة الذئب، كما يسجن الإنسان الحقيقي داخله بسبب زيف وادّعاء بورجوازيين.

تخيل بستانًا بمئة نوع من الأشجار وألف نوع من الزهور ومئة نوع من الفاكهة والخضروات، ولنفترض مثلاً أن الفرق الوحيد الذي يعرفه البستاني عنها هو أنها تؤكل أو لا تؤكل، فإن تسعة أعشار ما في هذا البستان لن يكون ذا فائدة له. سوف يقتلع أشد الزهور فتنة، ويقطع أنبل الأشجار. بل إنه سينظر إليها بعين مشمئزة وحاسدة، وهذا ما يفعله ذئب البراري بآلاف زهور روحه. فما لا يدخل في تصنيف الإنسان أو الذئب لا يراه أبدًا. وحين يعيد التفكير في هذا فإنه يعزو كل ما ينم عن جبن وتصنّع وحمق وخسة إلى «الإنسان»، بينما ينسب إلى الذئب كل ما هو قوي ونبيل، ذلك فقط لأنه لم ينجح في السيطرة عليه.

الآن نودّع هاري ونتركه كي يمضي وحده في طريقه. لو أنه كان أحد الخالدين، لو أنه كان قد بلغ الهدف الذي يُرجّح أن طريقه الشاقة توصله إليه، لنظر خلفه بذهول طاغ إلى كل تحركاته، إلى كل تلك الحيرة وآثار التردد الهائج. كم كان سيبتسم بمزيج من التشجيع واللوم ومن الشفقة والفرح على ذئب البراري هذا.

* * *

بعد أن فرغت من القراءة تذكرت أني قبل بضعة أسابيع خَلَتْ كنت قد كتبت ذات أمسية قصيدة مشوبة بشيء من الغرابة تدور أيضًا حول موضوع ذئب البراري. فأخذت أبحث بين ركام من الأوراق الموضوعة على طاولة مكتبي، وعثرت عليها، وقرأت:

يخبّ الذئب جيئة وذهابًا

والعالم يهجع تحت الثلوج

يطير غراب من مجثمه على الشجرة

لكن لا يُرى أرنب بري أو أنثى ظبي في الأفق

فإذا ما باغتُّ مخلوقاً عزيزًا، عذبًا، كأنثى الظبي

وانقضضتُ عليها، وغرزتُ فيها أنيابي

ماذا يبقى تحت قبة السماء؟

سوف أدّخر المخلوق الجميل

وأولِم على أفخاذه الريانة

وسأرجع دمه الأحمر حتى الثمالة

ثم أعوي حتى ينقضي الليل

حتى الأرنبُ البري لن أحتقره

لذيذ لحمه الدافئ في الليل
هل أرفض كل ما يجعل
الحياة أكثر إشراقًا قليلاً؟
الشعر على ذيلي اشتعل شيبا
وبصري يخبو في عينيّ
لقد ماتت وليفتي قبل سنين عديدة
وها أنا أخبّ وأحلم بأنثى ظبي
أخبّ وأحلم بأرنب بري
أسمع ريح منتصف الليل تعوي
أُبرِّدُ بالثلج فكّي الملتهب
وأحملُ إلى الشيطان روحي البائسة.

إذن أمامي الآن لوحتان شخصيتان لي، إحداها صورة شخصية مكتوبة بشعر هزيل، تثير الحزن والرثاء مثلي، والأخرى رُسمت بمسحة من الموضوعية المتغطرسة بيد شخص كان يقف خارجي ويعرف عني أكثر مما أعرف عن نفسي ولكن أيضًا أقل مني. وكلا هاتين الصورتين الشخصيتين لي، قصيدتي الكئيبة العرجاء والدراسة الحاذقة مجهولة المؤلّف، توجعاني بقدر متساوٍ. كلتاهما على حق. كلتاهما أعطت الحقيقة العارية عن وجودي العقيم. كلتاهما بيّنتا بجلاء أنّ حالتي ميؤوس منها إلى درجة لا تطاق. لقد كان الموت مقدّرًا لذئب البراري هذا. يجب أن يضع بيده حدًا لوجوده الممقوت إلا إذا ذاب في نار معرفة ذاتية متجددة وطرأ عليه تغيُّر وانتقل إلى ذاتٍ جديدةٍ وغير قابلة للتورية. واحسرتاه! لقد كنت أعرف هذه

المرحلة الانتقالية. كنت كثيرًا ما أمرُّ بها في السابق، ودائمًا يكون ذلك في فترات اليأس الأقصى. كلّما مررت بهذه التجربة الرهيبة التي تقتلعني من جذوري كانت ذاتي، كما كانت تسمى عندئذ، تتهشم شذرًا. في كل مرة كانت ذاتي ترجّها قوى راسخة عميقًا وتدمّرها، في كل مرة كان يتبع ذلك فقدان جزء عزيزٍ من حياتي لم يعد مخلصًا لي بعد أن كان يحظى بحب خاص. ذات مرّة خسرت سمعتي وأسباب رزقي، وكان لا بد لي من أن أخسر احترام أولئك الذين كانوا من قبلُ يلمسون أطراف قبعاتهم احترامًا لي. بعد ذلك انهارت حياتي العائلية، وتحطمت بين ليلة وضحاها، عندما طردتني زوجتي المختلة عقليًا من منزلي وبيتي، وانقلب الحب والثقة فجأة إلى كراهية وعداء لدود، وشاهدني الجيران أرحل محقّرًا ومثيرًا للشفقة. عندئذ بدأت عزلتي وتوالت سنوات المشقة والمرارة. كنت قد أنشأت مثلاً أعلى لحياةٍ جديدة، ألهمني إيّاه زهد العقل، وحققت من جديد قدْرًا من صفاءِ الحياة وسموّها، مستسلمًا لممارسة الفكر المجرد ولنظام من التأمل الصارم. لكن هذا القالب أيضًا انكسر وفَقَد بنفخة واحدة كل فحواه النبيل الممجَّد. ودفعتني دوامة السفر من جديد إلى أرجاء الأرض، وتراكمت آلام جديدة وإحساس جديد بالذنب. وفي كل مرة كان يتمزق فيها قناع، ويتحطم مثلٌ أعلى، كان يسبقها هذا الإحساس الكريه بالفراغ والسكون، هذا الانقباض الرهيب والشعور بالوحشة وبالغربة، هذا الجحيم المقفر والخاوي من اللاحب واليأس، والآن هذا ما سأعانيه من جديد.

صحيح أني في آخر المطاف أكون قد اكتسبت وجها مرهقا وقدرًا من الحرية لا يمكن نكرانه، ونموًا في الروح وعمقًا، لكن كل هذا كان مرفوقا بزيادة في الإحساس بالوحشة حتى يصير الانفصالُ أشدّ

برودَةً، وأبرد منه الاغترابُ. فإذا نظرت إلى حياتي بعين بورجوازية لبدت انحدارًا متواصلاً من إرهاق إلى آخر، كان مع كل خطوة أخطوها يبعدني أكثر عن كل ما هو طبيعي ومباح، ومعافى. وقد جرَّدتني السنون المنصرمة من اندفاعي إلى العمل ومن عائلتي وبيتي. ونأيت بنفسي عن كل الحلقات الاجتماعية، ووقفت وحيدًا، لا يحبني أحد، ويرتاب فيَّ الكثيرون، وأنا في حالة صراع متواصل مرير مع رأي العامة وأخلاقهم. وعلى الرغم من أني كنت أعيش ضمن محيط بورجوازي، فإني مع ذلك كنت غريبًا تمامًا عن هذا العالم بكل أفكاري ومشاعري. حتى الدين والوطن والعائلة والدولة قد فقدوا كل قيمة وباتوا لا يعنون لي أي شيء. وأصبحت أبهة العلوم والمجتمعات والفنون تثير اشمئزازي. وشاخت آرائي وميولي وكل أفكاري في غياهب الإهمال، بعد أن كانت حلى براقة يتزين بها كل موهوب ومرغوب، وأصبح يُنظر إليها بارتياب. وإذا افترضنا أني خلال كل تحولاتي المؤلمة قد حققت مكسبا خفيا ومحيّرا، فقد كان عليّ أن أدفع مقابله ثمنًا باهضًا، وكانت حياتي تغدو عند كل منعطف أكثر خشونة وصعوبة ووحشة، ومحفوفة بالأخطار. والحق، لم يكن لدي من الأسباب ما يجعلني أرغب في أن أستمر على هذا المنوال الذي كان يؤدي بي إلى مزيد من التلاشي، مثل الدخان في قصيدة نيتشه عن الخريف.

آه، نعم، لقد خبرت كل هذا التغيرات والتحولات التي يخبّؤها القدر لأولاده صعيبي المراس، لأولاده الأشد حساسية. لقد عرفتهم حق المعرفة. عرفتهم كما يعرف عدّاء متحمّس ولكن فاشل مواقع الانطلاق، وكما يعرف مقامر عجوز في سوق البورصة كل مرحلة من مراحل المضاربة: السبق الصحفي، السوق المتضعضعة والتدهور ثم الإفلاس. أما كان مقدّرًا لي أن أعايش كل هذا من جديد؟ كل

هذا العذاب، كل هذه الحاجة المُلحة، كل هذه النظرات الخاطفة إلى حقارة ذاتي وتفاهتها، والخوف المريع من أن أستسلم، والخوف من الموت. أما كان من الأفضل والأشد بساطة أن أمنع تكرار الكثير من الآلام وأن أغادر مسرح الأحداث؟ حتمًا، لكان أشد بساطة وأفضل. فمهما كانت حقيقة ما قيل في الكتاب الصغير الذي يدور حول ذئب البراري عن «الانتحاريين»، ما كان لأحد أن يحرمني متعة الاستنجاد بمدفأة على الغاز. الاستنجاد بموسى أو بمسدس، لأوفر بذلك على نفسي هذا التكرار لعملية كان عليّ أن أجرع كأس معاناتها المُرّة مرات كثيرة، بلا شك، وحتى آخر قطرة حنظل. كلا، يقينًا، لم تكن هناك قوة في العالم بوسعها أن تقنعني أخيرًا باختبار الرعب الهائل لمواجهة أخرى مع ذاتي، لمواجهة إعادة تنظيم أخرى، تجسّد آخر، حين لن يبقى هناك في آخر الدرب سلام ولا سكينة – بل تدمير أبدي للذات من أجل تجديدها. قُل عن الانتحار إنه أحمق، جبان، جائر قدر ما تشاء، سمّه هروبًا مشينًا ومخزيًا، ومع ذلك فإن الهروب، حتى الأشد خزيًا، من دوامة العذاب هذه كان الأمل الوحيد المنشود. لم تعد هناك خشبة مسرح للقلب النبيل والبطولي. لم يبق غير الاختيار البسيط بين غصّة قصيرة وسريعة ومعاناة مهلكة لا تصدَّق ولا تنتهي. وكنت قد لعبت دور دون كيخوته كثيرًا خلال حياتي المجنونة والصعبة، ووضعت الشرف قبل الراحة، والبطولة قبل العقل. ثم كانت نهاية كل ذلك!

كان الفجر ينبلج ويتسلل عبر زجاج النافذة، فجر ثقيل وجحيمي في يوم شتائي ماطر، عندما أويت أخيرًا إلى سريري لأنام. صحبت معي قراري إلى السرير. ولكن في آخر لحظة، عندما كنت قد وصلت إلى شفا الوعي عند نقطة الاستغراق في النوم، وَمَضَتْ داخلي الفقرة الرائعة من كرّاس ذئب البراري التي تعالج مسألة الخالدين. جاءت

مصحوبة بالذكرى الفاتنة، لقد تذكّرت أني شعرت مرات عديدة، آخرها كان في عهد قريب، باقترابي من الخالدين إلى حدّ يمكنني فيه مشاركتهم بقدرٍ متساوٍ في تذوق الموسيقى القديمة بأسلوب حكمتهم الصافية والبراقة والصارمة والمبتسمة أيضًا. وحلّقت هذه الذكرى، ثم سطعت، ومن ثم خمدت، وبعد ذلك هبط النوم على رأسي ثقيلاً كجبل.

استيقظت عند منتصف النهار، وفي الحال عاد إليّ الوضع، كما كنت قد تركته. ها هو الكتيّب على طاولتي المجاورة للسرير وقصيدتي، وقراري أيضًا كان حاضرًا. فبعد النوم اتخذ شكلاً وأخذ ينظر إليّ من فوضى حياتي قريبة العهد ملقيًا عليّ تحية هادئة ودودا. العجلة لا تعني السرعة، وقرار موتي لم يكن نزوة وليدة لحظة، بل كان ثمرة ناضجة ومتينة، نمت ببطء حتى اكتمل حجمها، هدهدتها رياح القدر بخفة، وكانت تكفي هبّة واحدة لكي تسقطها على الأرض.

كان لديّ في صندوق أدويتي مادة ممتازة لتسكين الألم، صبغة قوية بشكل خارق من مادة اللودنوم. وكنت نادرًا ما أتساهل في اللجوء إليها، وغالبًا ما أمتنع عن استخدامها فترة طويلة من الزمن. ولم أكن ألجأ إلى العقار إلا عندما يتجاوز الألم الجسدي حد الاحتمال. ولسوء الحظ لم يكن ذا فائدة من أجل وضع حد لحياتي. وكنت قد برهنت على هذا من قبل ذلك ببضع سنين. فذات مرة عندما كان اليأس قد بلغ عندي مبلغه ابتلعت جرعة كبيرة منه كافية لقتل ستة رجال، ومع ذلك لم تقتلني. صحيح أني استغرقت في النوم، وانطرحت ساعات عدة وأنا مخدَّر تمامًا، إلا أني لسوء حظي المريع استيقظت بعد ذلك نصف واعٍ بفعل تشنجات معدية عنيفة، وتقيأت السم كله، ثم استغرقت في النوم من جديد. ولم أستيقظ وأنا واعٍ وفي حالة من

الرصانة المفعمة إلا في منتصف اليوم التالي. وكان رأسي الفارغ ملتهبًا وكنت تقريبًا فاقدًا للذاكرة. وما عدا فترة من الأرق والشعور بآلام حادة في المعدة لم يبق للسم أي أثر.

إذن لم تكن هذه الوسيلة مجدية. لكني صمّمت على ما يلي: في المرة القادمة، حين يصير اللجوء إلى الآفيون قدرا محتوما، قد أعمد إلى أسلوب أكثر نجاعة بتوسّل أداة تكون في مستوى الحدث، أي، موت مؤكد لا ريب، بإطلاق رصاصة أو باستخدام موسى حلاقة. عندئذ يمكن أن أطمئنّ لنفسي. أما عن انتظار عيد ميلادي الخمسين، كما يوصي الكتيّب ببراعة، فقد بدا لي أنه تأخير طويل جدّا. كان ما يزال هناك سنتان حتى ذلك الحين.

لم يكن يهم إن كان الباقي هو سنة أو ستة أشهر، أو حتى إن كان الموعد في اليوم التالي، فالباب مشرَّع.

لا أستطيع أن أجزم بأن القرار قد غيّر حياتي تغييرًا جذريًا. لقد جعلني، نسبيا، لا مباليا أكثر بأوجاعي، ومتحرّرا أكثر في استخدام الأفيون والنبيذ، وأكثر فضولاً لمعرفة حدود التحمل، ولكن لا أبالغ في شيء من هذا كله. كان للتجارب الأخرى في تلك الليلة أثر قوي. أعدت قراءة أطروحة ذئب البراري مرات عديدة، وكأني أستسلم بامتنان لساحر خفي بسبب إدارته الحكيمة لقدري، تارة مؤنبًا نفسي وطورًا مشمئزًا من عقمها لقلة ما تبديه من تفهم لمزاجي وأزمتي الحقيقيّين. ولا شك في أن كل ما كُتب فيها عن ذئاب البراري والانتحاريين كان جيدًا وعلى جانب كبير من الحذاقة. كان يمكن أن يكون مفيدًا للنوع، للنمط، إلا أنه كان شبكة لها من الاتساع ما يعجز عن أسر روحي المتفردة وقدري الفريد والفذ.

غير أن أكثر ما شغل أفكاري كان الهلوسة، أو الرؤيا الموجودة على

جدار الكنيسة. لقد كان الإعلان المصمَّم بالأحرف المضاءة الراقصة يَعِدُ بأكثر ممّا أُشير إليه في الأطروحة. لقد أثارت أصوات ذلك العالم الغريب فضولي بقوة. وأمضيت ساعات طوالاً أتفكر فيها عميقًا. في تلك المناسبات كان يزداد تأثري بالتخدير الذي يشير إليه ذلك النقش – «ليس للجميع!» و«للمجانين فقط!» – إذن لا بد أني مجنون، بلا شك، وأبعد ما يمكن عن صيغة «أي إنسان» حتى تصلني تلك الأصوات ويتحدث ذلك العالم إليّ. بحق الله، ألم أكن منذ أمد بعيد نائيًا عن حياة كل إنسان وعن التفكير الاعتيادي والوجود العادي؟ ألم أخصص ومنذ أمد بعيد هامشًا فسيحًا للعزلة والجنون؟ إلا أني، مع ذلك، فهمت فحوى الاستدعاء فهمًا جيدًا في قرارتي. نعم، فهمت مغزى الدعوة إلى الجنون ومسألة نبذ العقل والهروب من معوقات التقليد بالاستسلام إلى صخب الروح والمخيلة الجامحتين.

وذات يوم، وبعد أن قمت في الشوارع والساحات بجولة بحث أخرى عقيمة عن الرجل حامل اللوحة وجستُ مرات عديدة مارًّا من أمام الجدار الذي فيه الباب الخفي ذو العين اليقظة، قابلت موكبًا جنائزيًا في كنيسة القديس مارتن. وبينما أنا هكذا أتأمل وجوه المفجوعين الذين يتبعون النعش بخطى مترنحة، قلت في نفسي: «أين أجد في هذه البلدة أو في العالم كلّه الإنسانَ الذي يشكل موته بالنسبة إليّ خسارة؟ وأين هو الإنسان الذي سيهتم لموتي أنا؟ صحيح إن هناك إريكا، لكننا منفصلان منذ أمد طويل، إننا نادرًا ما نجتمع دون أن نتشاجر وأنا الآن لا أعرف عنوانها، إنها تزورني بين حين وآخر، أو أقوم أنا بزيارتها، وبما أن كلينا وحيد، وذوي المراس الصعب يتواصلون، نوعًا ما، في الروح، وفي سقم الروح، فقد كان يصل بيننا رابط ظل متين على الرغم من كل شيء. ولكن أليس من الممكن أنها ربما سوف تتنفس

بحرية أكثر إذا ما سمعت خبر موتي؟ لا أدري. ولا أدري أيضًا إلى أي مدى يمكن الركون إلى مشاعري نحوها. فلكي يعرف المرء أي شيء عن هذه المسألة يحتاج إلى أن يعيش في عالم من الاحتمالات الممكنة.

في تلك الأثناء، وبينما أنا راضخ لتخيلاتي، انضممت إلى آخر موكب الجنازة وسرت خلف المعزين بخطى وئيدة إلى المقبرة. كانت مكانًا حديث الطراز، كلّه من الإسمنت المسلح ولا تنقصه محرقة الجثث. إلا أن المتوفى الحاضر لم يكن ليحرق. وُضع التابوت عند حفرة بسيطة في الأرض، ورأيت القسيس وبقية عجائز وموظفي إحدى مؤسسات دفن الموتى منهمكين في أداء عملهم. حاولوا أن يضفوا عليه كل مظاهر المراسم الفخمة والحزينة بإتقان عال تفوقوا فيه على أنفسهم حتى كشف تمثيلهم الصرف كذبهم، فانقلب المشهد وصار مضحكًا. رأيت أرديتهم الرسمية تنطوي وهي تتكمش، والمشقة التي يتحملونها لإثارة مشاعر جموع المعزين ولإجبارهم على أن يركعوا أمام جلال الموت. وكان جهدًا عقيمًا.لم يبك أحد، وبدا أن بقاء المتوفى بينهم لم يكن ضروريًا، ولا كان بالإمكان إقناع أي منهم باتخاذ حالة نفسية ورعة، وعندما خاطب القس المجموعة مكررًا «إخوتي في الإيمان الأعزاء»، انخفضت بارتباك كل السحنات الصامتة، سحنات أصحاب الدكاكين والخبازين الكبار وزوجاتهم، ولم تبد عليهم غير الرغبة في أن ينتهي هذا العمل المزعج في أقرب وقت. وعندما هلّت النهاية صافح أول اثنين من الإخوة المسيحيين يد القس، وعند الكاشطة التالية كشطا عن حذائيهما الطين المبلل الذي كان الميت يستلقي فيه، ورسم وجهاهما من جديد ودون تردد تعبيريهما الطبيعي، وعندئذ بدا أحدهما مألوفًا لدي. أوليس هذا الرجل هو نفسه من كان يحمل اللافتة، وأقحم الكتيّب في يدي؟

ﹱ اللحظة التي اعتقدتُ أني قد تعرفتُ عليه توقف، ومال إلى أسفل، ثنى بعناية طرفي بنطاله الأسود، ومن ثم سار مبتعدًا بخطى ناشطة وقد أمسك بإحكام بمظلته تحت ذراعه. لحقتُ به، ولكن عندما تجاوزته وأومأت له برأسي، لم يبدُ عليه أنه تعرف عليّ.

سألته وحاولت أن أغمزه كما يفعل متآمران: «أليس هناك عرض هذا المساء؟». لكني لم أكن قد مارست هذه الحركة الإيمائية منذ زمن بعيد. والحق، إنني بأسلوب حياتي ذاك، كدت أنسى عادة الكلام وشعرت أن كل ما قمت به هو تكشيرة سخيفة.

دمدم قائلاً: «عرض هذا المساء؟»، ورماني بنظرة وكأنه لم يكن قد رآني قط من قبل «اذهب إلى «النسر الأسود» يا رجل، إن كان هذا ما تسعى إليه».

الحقيقة هي أني لم أعد متأكدًا من أنه الرجل نفسه. وشعرت بالخيبة، وانطلقت أسير بلا هدف.لم يكن لدي أي دوافع أو حوافز أبذل نفسي فيها ولا واجبات. وكان مذاق الحياة مرًا كالحنظل. الإحساس القديم بالاشمئزاز جعلني أشعر أني مُقْدِمٌ على أزمة وأن الحياة لفظتني ونحّتني جانبًا. اخترقت شوارع كئيبة وأنا حانق، كان كل شيء يفوح برائحة الأرض الرطبة ويذكّر بالدفن. أقسمت على أن لا أدع أيّا من عجائز الموت هؤلاء يقفون عند قبري، بغفاراتهم وترنيمهم بـ«إخوتنا ﹱ الإيمان». آه، إنني أنظر إلى ما أشاء وأفكر ﹱ ما أريد، لا شيء يبهجني ولا شيء يغريني. لا شيء يفتنني أو يغويني. كل شيء عتيق، ذاو، كئيب ومُستهلك، ويفوح بنتانة الابتذال والتفسخ. سبحانك يا رب، كيف كان ذلك ممكنًا؟ كيف توصلت إلى ذلك، على أجنحة الشباب والشعر؟ أولاً بالفن ووبالسفر وبوهج المثل العليا – والآن بهذا! كيف تمكن هذا الشلل الذي هو كراهيتي لنفسي ولكل

إنسان، هذا الانسداد لكل المشاعر، وحمأة جحيم القلب الخاوي هذه، وهذا اليأس، من أن يجتاحني بهدوء وبطء شديدين؟

لدى مروري بالمكتبة العمومية قابلت أستاذًا جامعيًا شابًا كنت في سنوات سابقة أراه كثيرًا. بل إنني أثناء فترة مكوثي في البلدة، قبل بضع سنوات، زرته في منزله مرات عديدة لنتجاذب أطراف الحديث حول الأساطير الشرقية، وهو بحث كنت شديد الاهتمام به. كان قادمًا باتجاهي يسير بخطى متصلبة وبملامح تشير إلى أنه حسير البصر ولم يتعرف عليّ إلا في اللحظة الأخيرة قبل أن أتجاوزه. شعرت، وأنا في حالتي التي تبعث على الأسى، بشبه امتنان للطريقة الودود التي ارتمى بها عليّ. وأضحى سروره بلُقياي مفعمًا بالحيوية عندما راح يتذكر الأحاديث التي تبادلناها وأكد لي أنه يدين بالكثير للإثارة التي استمدها منها، وأنه كان دائمًا يفكر فيّ. ومنذ ذلك الحين نادرًا ما عقد مثل تلك النقاشات المثيرة والثرية مع أي من زملائه. وسألني إن كنت قد عدت إلى البلدة منذ مدة، (كذبت وقلت منذ بضعة أيام) فأضاف سائلا عن سبب تخلفي عن زيارته. وشملني رجل العلم ذاك بعين الود، ولم أقو على كبح نفسي وصدّها عن الاستمتاع بذلك الفُتات من الدفء والرقة، على الرغم من أني وجدت ذلك مثيرًا للسخرية، وكنت ألعقها ككلب جائع. لقد تأثر هاري، ذئب البراري، إلى حد رسم تكشيرة. وتجمع الرضاب في حنجرته الجافة، وانحنى رغمًا عنه انحناءة كبيرة أمام رقة شعوره. نعم، رحت أسرد الكذبة تلو الكذبة بكل حماس، وقلت إنني مارّ من هنا بالمصادفة، من باب القيام بالتقصي، وإنه كان يجب أن أزوره لولا أني كنت متوعكًا. وعندما عمد إلى دعوتي من كل قلبه لقضاء الأمسية معه، وافقت بكل امتنان، وحمّلته تحياتي لزوجته، حتى أن وجنتيّ آلمتاني تمامًا من فرط الجهود

غير المعتادة التي بذلتها وأنا أرسم قسرًا كل تلك الابتسامات وأبادله تلك الأحاديث. وبينما كنت أنا، هاري هاللر، واقفًا هناك في الشارع، مشبعًا بالغرور ومندهشًا وحريصًا على أن أبدي الأدب وأبتسم في وجه الرجل الطيب الودود والحسير النظر، كان هاري الآخر، أيضًا، يقف بالقرب مني ويكشّر مثلي. وقف هناك وكشّر لأنه كان يعتقد أني شخص غريب الأطوار ومجنون ومخادع، لأني أكشف عن أسناني حنقًا، وأصب لعناتي على العالم برمته في لحظة، وفي اللحظة التالية، أبذل ما في وسعي توقًا إلى أن أردّ التحية بأحسن منها على أول إنسان صادق وطيب أصادفه، ولأني أتقلب مثل خنزير رضع من نعيم إحساس صغير ممتع واحترام ودود. وهكذا وقف الهاريان وجها لوجه مع الأستاذ الكفؤ، وما يقوم به أي منهما ليس دورًا ممتعًا، يسخر كل منهما من الآخر محاكيًا، ويراقب كل منهما الآخر، ويتراشقان بالبصاق، في حين أن السؤال الأبدي الذي يطرح نفسه دائمًا في مثل هذه الورطات هو ما إذا كان كل هذا محض حماقة وضعفًا إنسانيًا، وفسادًا تامًا، أم إن هذه الأنانية العاطفية والانحراف، وهذه القذارة والمراءاة في الشعور هي مجرد خاصية ينفرد بها ذئاب البراري. فإذا كانت هذه القذارة شائعة بين الرجال عمومًا، كان بإمكاني أن أرتد من هذه العثرة بطاقة متجدّدة لأصبّ جام كراهيتي على العالم كله، ولكن إذا كانت ضعفًا فهي مناسبة جيدة لأنغمس في كراهيتي لذاتي.

بينما كانت ذاتاي مشتبكتين هكذا للسيطرة، كادتا تنسيان وجود الأستاذ، وعندما عدت فجأة إلى وعي حضوره ثقيل الوطأة عجّلت إلى التحرر منه. ورحت أتابع الأستاذ بنظري فترة طويلة وهو يختفي في المدى على طول الجادة القاحلة بخطوة إنسان مثالي، مؤمن، تدل على الود ومضحكة قليلاً. وكان الصراع يحتدم عنيفًا في داخلي. ورحت

بحركة آلية أثني أصابعي المتيبسة وأبسطها كأنما أستعدّ لمجابهة ما خلَّفه سمٌّ خفي من تلف، وكان عليّ في الوقت نفسه أن أدرك أني صحيح البنية. وكانت تكبلني دعوة الساعة الثامنة والنصف بكل ما تلزمني به من إبداء التهذيب، والتحدث عن عملي والتأمل في النعيم العائلي لإنسان آخر. وهكذا انطلقت إلى المنزل أضطرم في حنق. وحالما وصلت صببت لنفسي كأس براندي مع الماء، وابتلعت معه بعض حبوب مكافحة النقرس، ثم استلقيت على الصوفا، وحاولت أن أقرأ. وما إن نجحت في الاستغراق برهة في كتاب «رحلة صوفي من ممل إلى ساكسوني»، وهو كتاب قديم ممتع من القرن الثامن عشر، حتى انتبهت فجأة إلى أمر الدعوة، وتذكرت أني لم أحلق ذقني ولا ارتديت ملابسي. بحق الرب لماذا جلبت لنفسي كل هذا؟ حسن، قلت لنفسي انهض، ضع الصابون على ذقنك، واحلقها جيدًا حتى تدمى، وارتد ملابسك، وأظهِر شيئًا من البشاشة لأقرانك الناس. وبينما كنت أرغو الصابون على وجهي رحت أفكر في تلك الحفرة القذرة المحفورة وسط الطين في المقبرة، وأنزل فيها في ذلك اليوم شخص لا أعرفه. فكرت في الوجوه الذابلة للإخوة المؤمنين الضجرين ولم تثر عندي حتى الضحك. وقلت في نفسي، هناك في تلك الحفرة الطينية القذرة، وبمصاحبة خدمات كهنوتية حمقاء وكاذبة وسلوك لا يقل حماقة وكذبًا عن مجموعة من المعزين وسط مشهد مزعج لكل الصلبان المعدنية والألواح الرخامية والأزهار الاصطناعية المؤلفة من أسلاك وزجاج، انتهت رحلة ذلك الرجل المجهول، ليست رحلته هو فقط، فسرعان ما سألحق به ذات يوم، وسأدفن في التراب يصحبني عرضٌ منافق من الحزن، كلا، بل هناك وبتلك الطريقة سينتهي كل شيء، كل كفاحنا، كل ثقافتنا، كل معتقداتنا، كل فرحنا وسرورنا في الحياة، إنني سئم

منذ الآن وقريبًا سأدفن أنا أيضًا هناك. إن حضارتنا بأكملها مقبرة ليس يسوعُ المسيح وسقراط، وموتسارت وهايدن، ودانتي وغوته، إلا أسماء مبهمة منقوشة على شواهد بالية، والمعزّون المحيطون بالقبر وهم يتكلّفون الحزن لن يؤمنوا بهذه الأسماء المنقوشة التي كانت ذات يوم مقدسة، ولن يتمكنوا حتى من أن ينطقوا كلمة واحدة صادقة تعبر عن الحزن واليأس من هذا العالم الذي لم يعد له وجود. ولم يبق لهم غير التكشيرات المرتبكة المرسومة على سحنات عصبية تتحلّق حول قبر. وبينما كنت أتفكر جرحت ذقني في الموضع المعتاد وكان لا بد أن أضع بوتاسًا كاويًا مكان الجرح، ومع ذلك ها هي ياقتي النظيفة قد تلطخت. كنت قد ارتديتها للتو، ويجب تبديلها مرة أخرى. كل ذلك من أجل دعوة لا تكاد تمنحني بعض البهجة. ومع ذلك فهذا جزء مني قد أخذ يتجلّى من جديد، ويقول عن الأستاذ إنه شاب متعاطف، يتوق إلى إثارة حديث قصير مع أقرانه من الرجال وإلى الاتصال بهم، يذكرني بزوجة الأستاذ الجميلة، يحثني على أن أصدق أن أمسية أمضيها مع مضيفي ومضيفتي الأنيسين سوف تكون في الواقع أمسية مبهجة جدًا، ويساعدني على لصق لزقة جرح على ذقني، وعلى ارتداء ملابسي، وأيضًا على عقد ربطة عنقي، ويبعدني بلطف، في الواقع، عن رغبتي الحقيقية في أن ألازم البيت. وعلى الفور تبدّى لي —وهذا ما يحدث مع كل إنسان—. فكما أرتدي ملابسي وأخرج لأزور الأستاذ وأتبادل معه بضع عبارات التملق الكاذبة إلى حد ما، دون أيّ رغبة حقيقية في ذلك، كذلك الأمر مع أغلب البشر، يومًا بعد يوم وساعة بعد ساعة في حياتهم اليومية وفي شؤونهم. وبلا أي رغبة من جانبهم، يتزاورون، وينخرطون في أحاديث، ويمضون أوقات عملهم جلوسًا إلى طاولات مكاتب أو على كراسٍ، وكل ذلك إجباري، آلي وضد الفطرة، ويمكن

إنجازه أو تركه بلا إنجاز أيضًا بواسطة آلات، والحق إن هذه الآلية التي لا تتوقف هي التي تمنعهم من أن يكونوا مثلي نقّادا حياتهم الخاصة، ومن أن يتعرفوا على حماقاتهم وسطحيتهم، وعلى مأساة حياتهم العبثية وعقمها، وعلى الغموض الهائل الذي يكشّر هازئًا بكل هذا. وهم على حق، على حق ألف مرة بعيشهم على هذا النمط، يؤدّون أدوارهم التمثيلية، وينهمكون في أداء أعمالهم، بدل أن يقاوموا الآلة الرهيبة وأن يحدّقوا إلى الفراغ كما أفعل أنا الذي خرجت عن الخط المرسوم. ولا يعتقدنّ أحد أني أضع اللوم على بقية الناس، وإن كنتُ بين حين وآخر خلال هذه الصفحات قد أنّبتهم بل وسخرت منهم، أو أنني أتّهمهم بمسؤوليتهم عن بؤسي الشخصي. ولكن الآن وقد وصلت إلى هذا الحد، وها أنا أقف عند آخر شفا الحياة حيث تهوي الأرض أمامي إلى ظلمة لا قرارة لها، أخطئ وأكذب إذ أتظاهر أمام نفسي أو أمام الآخرين بأن هذه الآلة مازالت تدور بالنسبة إليّ، وأني مازلت ممتثلاً لعبث الأطفال الأبدي، لذاك العالم الفاتن.

على أساس كل هذا أوحت إلي الأمسية التي تنتظرني بتعليقٍ رائع. فتوقفت برهة أمام المنزل ورفعت بصري إلى النوافذ. وقلت في نفسي، إنه يقطن هنا ويواصل حمل أثقاله سنة تلو الأخرى، يقرأ النصوص ويزوّدها بالحواشي، يفتّش عن أوجه التشابه بين أساطير آسيا الغربية والهند، وهذا يرضيه، لأنه يؤمن بالدراسات التي هو خادمها، وهو يؤمن بقيمة المعرفة المحض، وباكتسابها، لأنه يؤمن بالتقدم وبالنشوء. إنه لم يخض الحرب، ولا هو مطّلع على تهشّم أسس الفكر على يد أينشتاين (فهو يعتقد أن هذا مقتصر على مجال الرياضيات). ولا يلاحظ وجود أي تحركات استعدادًا لحربٍ تالية تجري في كل مكان من حوله. وهو يكره اليهود والشيوعيين،

وهو طفل سعيد، غافل وطيب وجدّي، والحقّ إنه يستحق أن يُحسد بلا هوادة. وهكذا، استجمعت شتات نفسي، وولجت المنزل. فتحت لي الباب خادمة تعتمر قلنسوة وترتدي مئزرًا. رمقت، بحذر يحدوه حسٌّ داخلي، المكان الذي وضعت فيه قبعتي ومعطفي. ثم قادتني إلى غرفة دافئة لطيفة الإضاءة، وطلبت مني أن أنتظر. وبدلاً من أن أتلو صلاة أو آخذ غفوة، تبعت حافزًا معاندًا والتقطتُ أول شيء رأيته. وتصادف أن كان صورة مؤطّرة موضوعة على طاولة مستديرة تميل إلى الخلف وترتكز على دعامتها من الورق المقوّى. وكانت حفرًا يشبه الشاعر غوته، رجل عجوز مهيب الطلعة، ذي وجه رائع التقاطيع وشعر غزير جدير بعبقري. ولم يكن ينقصه لا اللهب الشهير المنبعث من عينيه ولا التعبير المأساوي والمتوحد المستتر تحت البياض الصقيل. وقد أولى الفنان اهتمامًا خاصًا بهذا، ونجح في أن يجمع ما بين القوة الجوهرية التي يتمتع بها الرجل العجوز وبين التركيبة الحِرفية مضيفا نوعًا من الانضباط الذاتي والاستقامة، دون إجحاف في حق عمقه، وقد جعل منه، بشكل عام، جنتلمانًا عجوزًا فاتنًا حقًا، جديرًا بأن يزين أي غرفة جلوس. ولا شك في أن هذه الصورة الشخصية لم تكن أسوأ من أخريات مثيلاتها. كانت تشبه كثيرًا صور المخلّص والرُسُل والأبطال والمفكرين ورجال الدولة، صور يؤدّيها رسامون محترفون بدقة عالية. ولعلي وجدتها مثيرة للسخط لهذا السبب بالذات، أي بسبب براعتها الفنية الفائقة حدّ الادّعاء. على أي حال، ومهما يكن، لقد صرخت على الفور هذه الصورة الجوفاء والمغرورة في وجهي بكونها تمثل تنافرًا مميتًا ومثيرا للسخط وللأعصاب. وهكذا كان حالي فعلاً. لقد نبّهتني إلى أنه ما كان يجب أن آتي قط. هنا كان المكان الأليف للأساطين العجائز ولعظام رجالات الأمة، وليس لذئاب بَرارٍ.

لو أنّ سيد المنزل كان قد أتى، لواتاني الحظ وعثرت على ذرائع مقبولة لانسحابي. وللتو جاءت زوجته، واستسلمت للقدر على الرغم من أني شممت رائحة خطر. تصافحنا وتلا التنافر الأول تنافرات أخرى جديدة. راحت السيدة تقرظ مظهري، مع أني كنت أعرف جيدًا إلى أي درجة محزنة انحدرت بفعل ما تركته السنون عليّ من أثر منذ التقينا آخر مرة. وقد ذكّرتني بهذا للتو قبضة يدها المشدودة على أصابعي المصابة بالنقرس. ومن ثم تابعت فسألتني عن زوجتي العزيزة، فاضطررت إلى القول إن زوجتي قد تركتني وإننا الآن مطلقان. وقد سُرَّ كلانا بحق عندما دخل الأستاذ. هو أيضًا هشَّ وبشَّ مرحّبًا بي، ووصلت الملهاة السمجة إلى ذروة جميلة. كان يحمل صحيفة له فيها اشتراك سنوي وهي الناطقة بلسان الحزب المشرَّب بالروح العسكرية والشوفينية، وبعد المصافحة أشار إليها وعلّق على فقرة عن شخص سمّاه لي، خبير في الشؤون العامة ويدعى هاللر، وهو إنسان سيء ووطني عفن، كان يهزأ بالقيصر ويعبر عن وجهة نظر تقول إن بلده لا يقل مسؤولية في اندلاع الحرب عن الدول المعادية. هذا رجل يعجبك! وقد أعطاه الناشر ما يستحق وشهّر به. ولكن، عندما لاحظ الأستاذ أني لست مهتمّا للأمر انتقلنا إلى مواضيع أخرى، ولم يكن قد خطر لأي منهما مطلقًا أنه من الممكن أن يجلس قبالتهما مثل هذا الشخص الفظيع. نعم، هذا ما حدث، وكنت أنا هو ذاك الشخص الفظيع. حسن، وما الداعي لإثارة القلق وإزعاج الناس؟ ضحكت بيني وبين نفسي، لكني عندئذ كنت قد تخليت عن أي أمل في قضاء أمسية ممتعة.

لازلت أذكر بجلاء لحظة تحدَّث الأستاذ عن هاللر بوصفه خائنًا لبلده. فعندئذ بالذات تكثّف ذاك الشعور الرهيب بالانقباض واليأس.

شعور كان يتصاعد داخلي ويقوى باضطراد منذ مشهد الدفن حتى أضحى اكتئابًا مزمنًا. وقد ازداد حتى بلغ درجة الألم الجسدي، مثيرًا داخلي هاجسًا خانقًا ورهيبًا. شعرت أنّ هنالك ما يتربّص بي، خطرًا ما يطاردني خلسة. ولحسن الحظ تلا ذلك إعلان أن طعام العشاء بات جاهزًا على المائدة. فولجنا غرفة الطعام، وبينما كنت أجهد عقلي لتذكّر شيء بريء أقوله، تناولت من الطعام أكثر مما اعتدت أن أفعل وشعرت بأني أزداد بؤسًا في كل لحظة. كنت طوال الوقت أقول لنفسي، يا إلهي، لماذا نسبّب لأنفسنا كل هذا التوتر؟ شعرت بوضوح أن مضيفيّ أيضًا لم يكونا مرتاحين وأن حيويتهما كانت مفتعلة، إما لأنه كان لي تأثير الشلل فيهما أو لمصدر إحراج آخر، لعلّه عائلي. ولم يطرحا عليّ سؤالاً واحدًا يمكنني أن أجيب عنه بصراحة، وسرعان ما وجدتني متورطًا في شبكة من أكاذيبي متصارعًا مع إحساس بالغثيان عند كل كلمة أقولها. وأخيرًا، ومن باب تغيير الموضوع، أخذت أحكي لهما عن الجنازة التي كنت قد شهدتها في وقت مبكر من ذاك النهار. لكني فشلت في الضرب على الوتر الصحيح. لقد أخفقت جهودي في إشاعة روح الفكاهة إخفاقًا تامًا، وازدادت الفرقة بيننا أكثر من ذي قبل. وكشّر داخلي ذئب البراري عن أنيابه. وفي الوقت الذي وصلنا إلى فاكهة ما بعد الطعام كان الصمت المطبق قد ران علينا نحن الثلاثة.

عدنا إلى الغرفة التي أتينا منها لكي ننشد ساقي القهوة والكونياك، ولكن هناك وقعت عيناي مرة أخرى على قطب الشعر، إلا أنه كان قد وُضع على خزانة بأدراج في إحدى نواحي الغرفة. ولما كنت عاجزًا عن الابتعاد عنه، حملته مرة ثانية بين يديّ، متجاهلاً أصواتًا محذّرة كنت أسمعها بوضوح، وباشرتُ في مهاجمته. كنت كالممسوس من فرط الإحساس بأن الوضع غير محتمل وأن الوقت قد حان، إما أن

أبث الحرارة في مضيفيّ، أن أشعلهما بالحماس وأجعلهما يتناغمان معي، أو أن أحدث انفجارًا أخيرًا.

قلت: «آمل أن لا يكون غوته هكذا حقًا. أي عالم من العاطفة الفاتنة يكمن تحت هذه النبالة المعجبة بذاتها، ونظرة الحب التي يسددها الرجل العظيم إلى الصحبة المتميزة، وتحت المظهر الرجولي البادي! لا شك في أن هناك الكثير مما يؤخذ عليه. وأنا نفسي لدي الكثير من المآخذ على تباهيه المهيب. أما أن أمثّله هكذا، لا، هذه مغالاة فادحة».

انتهت سيدة المنزل من صب القهوة وقد ارتسمت على وجهها خطوط الأذى العميق ومن ثم عجّلت بمغادرة الغرفة، وأخذ زوجها يشرح لي بمزيج من الارتباك والتأنيب أن لوحة غوته تخص زوجته وأنها إحدى أعز الممتلكات لديها «وحتى لو كنت على حق، من الناحية الموضوعية، وإن كنتُ لا أوافقك الرأي، فما كان يجب أن تكون صريحًا هكذا».

اعترفت قائلاً: «أنت على حق. لسوء الحظ إنها عادة مرذولة عندي، فأنا دائمًا أبوح بما يجول في خاطري قدر ما أستطيع، تمامًا كما كان غوته يفعل بدوره، في أفضل حالاته. إن غوته ما كان ليسمح لنفسه قط، في غرفة جلوس ذات طابع محافظ كهذه، أن يستخدم تعبيرًا قاطعًا وصادقًا وشائنًا. إنني بكل صدق ألتمس عفو زوجتك وعفوك. قل لها، أرجوك، إنني مصاب بالفصام. والآن، اسمح لي بالرحيل».

أبدى اعتراضه على ذلك رغم ارتباكه. بل إنه عاد إلى موضوع نقاشاتنا السابقة، وعاد يقول من جديد كم كانت مثيرة للاهتمام ومحفزة وكم تركت نظرياتي عندئذ حول ميثراس وكريشنا أثرًا بليغًا فيه. وعبَّر عن أمله في أن تكون المناسبة الحاضرة فرصة لتجديد فتح

هذه النقاشات. فشكرته على كلامه هذا. ولسوء الحظ كان اهتمامي بكريشنا قد تلاشى ومعه تلاشى استمتاعي بالنقاشات الثقافية. زيادة على ذلك، كنت قد ألقيت على مسمعه عدة أكاذيب في ذلك اليوم. فمثلاً، كنت موجودًا في البلدة منذ أشهر عديدة، وليس منذ بضعة أيام، كما قلت. إلا أني كنت أعيش في عزلة تامة، ولم أعد ملائمًا للمجتمع الراقي، فأولاً كنت دائما تقريبًا عكر المزاج ومبتليًا بداء النقرس، وثانيًا، أكون في العادة ثملاً. وأخيرًا، ولكي أنقّي سجلّي، وحتى لا أعرف بالكذاب إلى الأبد على الأقل، كان من واجبي أن أبلغه أنه قد أهانني بدرجة محزنة في تلك الأمسية. فقد صادق على الموقف الذي اتخذته صحيفة رجعية من آراء هاللر، وهي صحيفة فظة بلهاء، جديرة بضابط بنصف أجر، وليس برجل مثقف. إلا أن هذا الإنسان السيء والوطني الغض هاللر وأنا شخص واحد، وهذا أفضل لبلدنا وللعالم كله، على الأقل إذا ما دعمت القلة القادرة على التفكير العاقل وحب السلام بدل أن تندفع بهياج يحدوها مسٌّ أعمى لشن حرب جديدة. وبهذا ودعته.

هنا نهضت واقفًا واستأذنت من غوته ومن الأستاذ الجامعي بالمغادرة. تناولت قبعتي ومعطفي من المنصب في الخارج، وغادرت المنزل. عوى الذئب في داخلي بصوت مدوّ معبرًا عن طربه، وامتد بيننا ميدان مترامي الأطراف لإجراء العمليات الحربية. فقد اتضح لي على الفور أن هذه الأمسية البغيضة كان لها من المغزى بالنسبة إليّ أكثر مما كان للأستاذ. فبالنسبة إليه كانت خيبة أمل وإهانة حقيرة. وبالنسبة إليّ كانت فشلاً ذريعًا وهروبًا. كانت بمثابة فترة إجازة من العالم المثقف، الأخلاقي والمحترم، وانتصارًا ساحقًا لذئب البراري. لقد تُركتُ لأهرب مهزومًا من الساحة، والإفلاس باد في

عيني، مطرودًا ومجرّدًا من أدنى إحساس بالشرف، ولم أجد داخلي أيّ حسّ من الفكاهة ليواسيني. لقد غادرت العالم الذي وجدت فيه ذات يوم وطنًا، عالم العُرف والثقافة، على صورة رجل مصاب بعسر الهضم كفّ عن أكل لحم الخنزير. ومضيت في طريقي وأنا حانق أسير تحت مصابيح الشارع حانقًا ومريضًا حتى الموت. أي يوم شنيع مملوء بالخزي والبؤس منذ الصباح وحتى الليل، من المقبرة وحتى المشهد الذي جرى مع الأستاذ الجامعي. ما الهدف؟ لماذا؟ أكان ثمّت مغزى في تنكّب عبء أيام أخرى كهذا اليوم أو في تلبية المزيد من مثل هذه الدعوة على العشاء؟ لا مغزى. وفي هذه الليلة بالذات سوف أضع حدّا لهذه المهزلة، سوف أمضي إلى البيت وأحزّ عنقي. كفاني توانيًا.

قطعت شوارع تمتدّ في كل الاتجاهات، يحثني بؤسي. لا شك في أنه كان حمقًا مني أن ألوث زخارف غرفة جلوس وجهاء القوم، حماقة وجلافة، ولكن لم يكن لي حيلة في ذلك، وحتى الآن لا حيلة لي. لم يعد في مقدوري أن أتحمّل هذه الحياة الجلفة، المنافقة، التافهة. أي مخرج تبقّى لي بما أن عجزي عن تحمّل عزلتي قد بات جليًا، وصحبتي أضحت كريهة ومثيرة للغثيان بشكل يستعصي على الوصف؟ أين المخرج وأنا أجاهد كي أتنفس في جحيم خانق وخال من الهواء؟ لا مخرج. ورحت أفكر في أمي وأبي، في اللهب المقدس لشبابي الذي انطفأ منذ أمد بعيد، في آلاف المتع والأهداف والمشقات التي حفلت بها حياتي. لم يتبق لي شيء منها، ولا حتى الندم، لا شيء غير الألم والغثيان. ولم يبد قط التشبث بالحياة المحض موجعًا كما بدا عندئذ. أخذت قسطًا من الراحة في إحدى الحانات الموجودة في جزء قصي من البلدة، وتجرّعت بعض البراندي الممزوج بالماء، ومن ثم انطلقت أقطع الشوارع من جديد، والشيطان يجري في إثري، في

طول الشوارع وعرضها، قاطعا البلدة القديمة الملتوية والمنحدرة، على امتداد الجادات، عبر ساحة المحطة. وأوصلني التفكير إلى التوجه نحو مكان معين إلى داخل المحطة. فأمعنت النظر في لوائح المواعيد المعلقة على الجدران، وشربت بعض النبيذ، وحاولت أن أستعيد وعيي. ثم اقترب مني الشبح الذي أصابني بالرعب، حتى بت أراه بوضوح. كان رعب العودة إلى غرفتي فتوقفت عن السير، ووقفت وجهًا لوجه مع يأسي. لا مهرب من تلك اللحظة على الرغم من بقائي سائرًا أجوب الشوارع ساعات طوال. وعاجلاً أو آجلاً سأصل إلى عتبة غرفتي، إلى الطاولة التي تحمل كتبي، ولأجلس على الصوفا المعلقة فوقها صورة إريكا الفوتوغرافية. وعاجلاً أو آجلاً ستأتي اللحظة التي سأخرج فيها موسى حلاقتي وأحزُّ عنقي. وكانت الصورة تتضح أكثر فأكثر أمامي. وراح شعوري بأشد أنواع الخوف من الموت يتكثف باضطراد، ووجيب قلبي يدمدم. نعم، كنت خائفًا خوفًا مريعًا من الموت. وعلى الرغم من أني لم أر مخرجًا آخر، على الرغم من أن الغثيان والألم واليأس هددوا بأن يُحدِقوا بي، على الرغم من أنه ليس لدى الحياة ما تغريني به، ولا شيء تمنحه لي سواء أكان فرحًا أم أملاً، مع ذلك انتابتني رعشة مصحوبة برعب لا يوصف من تنفيذ العملية، من الجرح المفتوح في لحمي.

لم أجد وسيلة أخرى للهرب من هذا الشبح المخيف. لنفرض أن الجبن أحرز اليوم انتصارًا على اليأس، فإني غدًا وفي كل يوم يتلوه سأعود لأواجه اليأس من جديد وقد تفاقم بفعل ازدراء الذات. إن الأمر كله لا يتعدى رفع السكين ثم الإطاحة بها إلى أن يتم الأمر أخيرًا والأفضل أن يحدث اليوم إذن. وتفكرت بيني وبين نفسي كما لو أني أتحدّث إلى طفل خائف. لكن الطفل رفض أن ينصت. لقد أردتُ أن

أعيش. وجدّدتُ جولاتي المتشنجة في أرجاء البلدة، وقمت بالتفافات كثيرة متجنبًا العودة إلى المنزل، العودة التي كانت لا تبرح تفكيري فأسارع بتأجيلها. كنت أتوقف هنا وهناك وأتلكأ، أشرب كأسًا أو اثنين، ومن ثم، وكأنما ثمت من يلاحقني، أركض باتجاه دائري حول الهدف، حول الموسى، حول الموت. وأحيانًا كنت أجلس، من فرط الإرهاق، على مقعد عام، على حافة نافورة، أو على حافة الطريق لأمسح العرق على جبيني، ولأنصت إلى وجيب قلبي. ومن ثم إلى الانطلاق من جديد يمسّني رعب مميت ويملؤني توق يتلظى إلى الحياة.

هكذا وجدتني في وقت متأخر من الليل في جزء قصي وغير مألوف من البلدة، وهناك دخلت إلى حانة كان يصدر عنها صوت موسيقى راقصة وحيوية. فوق المدخل قرأت وأنا أدخل عبارة «النسر الأسود» على اللافتة. وفي الداخل وجدت أن الأمسية مجانية، حشود ودخان ورائحة نبيذ وصخب أصوات، ورقص يدور في غرفة كائنة في الخلفية، ومنها يصدر ضجيج الموسيقى المسعور. فجلست في أقرب غرفة لا يشغلها إلا أناس بسطاء، وبعضهم كان يرتدي ملابس رثة، في حين أن في القسم الخلفي من قاعة الرقص كان يُرى أيضًا أناس أنيقو الملبس. وجرّني الحشد معه، وسرعان ما وجدتني بالقرب من البار، محشورًا على طاولة تجلس عليها فتاة جميلة وشاحبة، وتستند إلى الجدار. كانت ترتدي ثوب رقص رقيقًا وقصيرًا جدا، وتضع زهرة ذابلة في شعرها. رنت إليّ بنظرة منتبهة وودية لدى اقترابي منها ثم ابتسمت وأزاحت إلى أحد الأطراف تفسح لي مكانًا.

سألتها: «أتسمحين؟» وجلستُ إلى جوارها.

قالت: «طبعًا، أسمح. ولكن من أنت؟».

أجبت: «شكرًا، إنني لا أستطيع أن أذهب إلى البيت، لا أستطيع،

لا أستطيع. سأمكث معك إن سمحت لي. لا، لا أستطيع أن أعود إلى البيت».

هزت رأسها وكأنما فهمت، وبينما هي تهز رأسها لاحظتُ العقصة المنسدلة من صدغها على أذنها، ورأيت أن الزهرة الذابلة كانت زهرة الكاميليا. وكانت الموسيقى في الجزء الداخلي تهدر وعلى مائدة الطعام المفتوحة كانت النادلات يصدرن أوامرهن بأصوات عالية.

قالت بصوت أراحني: «فابق هنا، إذن. لم لا تستطيع أن تذهب إلى البيت؟».

«لا أستطيع. ثمّت شيء ينتظرني هناك. لا، لا أستطيع، إنه مخيف جدا».

«دعه ينتظر إذن وابق هنا. أولاً امسح نظارتك. إنك لا تستطيع أن ترى أي شيء. أعطني منديلك. ماذا سنشرب؟ براندي؟».

بينما كانت تمسح نظارتي، كوَّنت أول انطباع واضح عن وجهها الصارم، الشاحب، ذي العينين الرماديتين الصافيتين والجبين الأملس، والعقصة الثابتة، القصيرة المنسدلة على أذنها. وبدأت بالإمساك بيدي بحركة ودية مع لمسة سخرية. طلبت نبيذًا، وبينما كانت تقرع كأسها بكأسي، وقع بصرها على حذائي.

«يا إلهي، من أين أنت قادم؟ تبدو كأنك قادم من باريس سيرًا على قدميك. ليست هذه هي الحالة المناسبة لحضور حفل راقص».

أجبت بـ«نعم» و«لا»، وأنا أضحك بين حين وآخر، وتركتها تتكلم. وجدتها فاتنة، فتنة طاغية ومدهشة، لأني طالما تفاديت الفتيات أمثالها وكنت أرقبهن بارتياب. وقد عاملتني في ذلك الوقت المعاملة المناسبة تمامًا لحالتي، وواظبت على ذلك دون تبديل. طوتني تحت جناحيها كما كنت أحتاج تمامًا، وسخرت مني، أيضًا، كما كنت

أحتاج. طلبت لي شطيرة وأمرتني أن آكلها. وملأت كأسي وأمرتني أن أرشفها رشفًا لا أن أجرعها بسرعة كبيرة. ثم أطرت سهولة انقيادي.

قالت تشجعني: «هذا رائع، إنك لست صعب المراس. أنا مستعدة للمراهنة على أنه قد مرَّ عليك زمن طويل لم تطع خلاله أحدًا».

«لقد ربحت. كيف عرفت؟».

«الأمر سهل. إن الطاعة مثل الأكل والشرب. عندما تتركه ردحًا طويلاً من الزمن يصبح شيئًا فريدًا. أليس كذلك، ألست سعيدًا لإطاعة أوامري؟».

«بل في غاية السعادة. أنت تعرفين كل شيء».

«إنك تجعل الأمر هيّنًا. لعل في مقدوري، يا صديقي، أن أخبرك، أيضًا، بما ينتظرك في البيت وما يسبب لك الرعب الشديد، لكنك تعرف ذلك بنفسك، لذا فلا حاجة بنا إلى التحدث عنه، هه؟ شيء سخيف! إن الإنسان إما أن يذهب ويشنق نفسه، وعندئذ يكون الأمر قد بُتَّ، وتكون لديه أسبابه الموجبة لذلك، أو أن يستمر في الحياة وعندئذ كل ما عليه أن يفعله هو أن يهتم بإدارة أسلوب حياته، الأمر بسيط».

هتفتُ: «آه، ليته كان بهذه البساطة. يعلم الله إني انهمكت كثيرًا في القلق بشأن الحياة ولم يفدني ذلك بشيء. لعل الانتحار أمر صعب. لا أدري، أما العيش فأشدّ صعوبة، يا إلهي كم هو أشد صعوبة».

«سوف ترى أنه لعب أطفال، لقد قمنا لتونا بالخطوة الأولى، لقد نظفت نظارتك، وتناولت شيئًا من الطعام والشراب. والآن سوف نذهب لننظف حذاءك وبنطالك وبعد ذلك سوف تراقصني».

هتفتُ في ارتباك: «الآن هذا يبين أني كنت على حق! لا شيء يحزنني أكثر من عجزي عن تنفيذ أي من أوامرك، لكني لا أحسن

أداء الرقصة الشيمية أو الفالس أو البولكا، ولا أي من الأخريات. إنني لم أرقص مرة في حياتي. ها أنت ترين أن الأمر ليس بالسهولة التي تظنين».

افترت شفتاها الحمراوان البراقتان عن ابتسامة وهزت بتصميم رأسها ذا الشعر القصير والمتماوج، وبينما كنت أنظر إليها، تهيأ لي أنها تشبه روزا كرايزلر، التي كنت قد عشقتها وأنا فتي. إلا أن بشرتها كانت سمراء وشعرها أسود. لا، لا أذكر بمن ذكرتني. كل ما أعرفه أنه شخص في عهد الشباب الأول والفتوة.

هتفتْ: «انتظر لحظة. أتقول إنك لا تحسن الرقص؟ أبدًا؟ ولا حتى خطوة واحدة؟ ومع ذلك فأنت تتحدث عن المشقة التي تكبدتها وأنت تعيش؟ لقد كذبت هنا، يا صاحب، ولا يجدر بك أن تفعل هذا وأنت في حضرة الكأس. كيف يمكنك أن تقول إنك تكبدت أيّ مشقة في العيش وأنت ترفض حتى أن ترقص؟».

«ولكن أنا لا أستطيع، أنا لم أتعلم قط!».

ضحكتْ.

«لكنك تعلمت القراءة والكتابة والحساب، كما أعتقد، والفرنسة واللاتينية، وأمورًا أخرى كثيرة؟ لا مانع لدي أن أراهن على أنك أمضيت في المدرسة عشر سنين أو اثنتي عشرة سنة ودرست كل ما استطعت دراسته. لعلك حصلت على درجة دكتوراه وتعرف الصينية أو الإسبانية. ألستُ محقة؟ حسن إذن. ولكن لم يتوفر لك الوقت والمال اللازمين لتتلقى بضعة دروس في الرقص! لا، حتمالم تفعل!».

قلت مبرّئا نفسي: «الحق على والديّ، لقد دفعاني إلى دراسة اللاتينية واليونانية وكل الأشياء الأخرى. لكنهما لم يسمحا لي بتعلُّم الرقص. لم يكن هذا شائعًا بيننا. والداي نفساهما لم يرقصا مرة في

حياتهما».

رمتني بنظرة باردة تمامًا، مِلْؤُها الامتعاض، ومرة أخرى ذكّرني شيء في وجهها بعهد شبابي.

«إذن فاللوم كله يجب أن يقع على والديك. هل طلبت منهما أن يسمحا لك بقضاء أمسية في «النسر الأسود»؟ هل فعلت؟ أتقول إنهما قد توفيا قبل زمن بعيد؟ لا مزيد يقال. والآن لنفرض أنك عندما كنت صغيرًا كنت مفرطا في الطاعة حتى تعذّر عليك أن تتعلم الرقص (وإن كنتُ لا أصدق أنك كنت طفلاً مثاليًا)، فماذا كنت تفعل بنفسك طوال كل تلك السنين؟».

اعترفتُ قائلاً: «في الواقع لا أكاد أعرف، لقد درست، عزفت الموسيقى، قرأت كتبًا، ألّفت كتبًا، سافرت».

«إن لديك وجهات نظر راقية من الحياة. كنت دائمًا تقوم بالأعمال الشاقة والمعقدة حتى أنك لم تتعلم الأشياء البسيطة. لم يكن لديك وقت، طبعًا، كانت لديك أمور أكثر إمتاعًا تقوم بها. حسن، أشكر الله لأني لست أمّك. ولكن أن تفعل ما فعلته ومن ثم تقول إنك قد اختبرت الحياة حتى العمق، ولم تعثر على شيء فيها فهو مغالاة مفرطة».

قلت أناشدها: «لا تعنّفيني، أنا أعرف أني مجنون».

«أوه، لا تجعل من آلامك نشيدًا. أنت لست مجنونًا، يا بروفيسور. بل لست مجنونًا بنصف المقدار الكافي لإرضائي. ويبدو لي أنك مفرط في الذكاء بشكل سخيف، جدير ببروفيسور. خذ قطعة أخرى. يمكنك أن تحكي لي المزيد لاحقًا».

ناولتني قطعة أخرى، رشّتْ عليها بعض الملح، ووضعت بعض المستردة، وأخذت جزءًا منها لنفسها، وأمرتني أن آكلها. كنت مستعدًا لتنفيذ كل ما تطلبه منّي فيما عدا الرقص. كان يريحني أيما راحة

أن أنفذ كل ما تأمرني به، وأن أجد من يجلس إلى جانبي ويُصدر إليّ الطلبات والأوامر ويعنّفني. ولو أن البروفيسور أو زوجته قد فعلا هذا معي قبلها بساعة أو ساعتين، لوفر ذلك عليّ الكثير من المتاعب. ولكن لا، إن سير الأمور هكذا أفضل. إلا إن كان فاتني الكثير.

فجأة سألتني: «ما اسمك؟».

«هاري».

«هاري؟ يا له من اسم صبياني. وأنت مازلت طفلاً صغيرًا يا هاري، على الرغم من الشعرات القليلة البيضاء. أنت طفل وتحتاج إلى من يعتني بك. لن أعود إلى ذكر الرقص. ولكن أنظر إلى شعرك! أليست لديك زوجة أو حبيبة؟».

«لم تعد لدي زوجة، نحن مطلقان. أما عن الحبيبة، فنعم ولكنها لا تقيم هنا. إنني لا أراها كثيرًا. علاقتنا لا تسير سيرًا حسنًا».

صفّرتُ بصوت خافت.

«لا بد أنك رجل صعب المراس حتى لا يخلص لك أحد. ولكن قل لي الآن ما الذي حصل تحديدا هذا المساء؟ ما الذي دفعك إلى أن تركض محوّمًا كمن فقد عقله؟ هل تورطت في عراك أم خسرت في لعبة الورق؟».

لم يكن من السهل شرح هذه النقطة.

باشرت بالقول: «في الواقع، لقد كانت مسألة تافهة تمامًا. فقد تلقيت دعوة لتناول العشاء مع أستاذ جامعي، وبالمناسبة أنا لست أستاذًا، والحق أنه ما كان يجب قط أن ألبي الدعوة. لقد فقدت عادة الاندماج مع الآخرين والانخراط في الأحاديث. لقد نسيت كيف أفعل ذلك. وما إن ولجت المنزل حتى ساورني شعور بأن خطبًا ما سيقع، وعندما كنت أعلّق قبعتي على المشجب قلت في نفسي إنني ربما أريده

أن يقع بأسرع مما أتوقع. وفي منزل البروفيسور كانت هناك صورة شخصية موضوعة على الطاولة، صورة رديئة أزعجتني».

قاطعتني قائلة: «أي صورة؟ وتقول إنها أزعجتك، لماذا؟».

«في الحقيقة كانت صورة تمثل غوته، غوته الشاعر، أنت تعرفينه. لكنها لم تكن تشبهه في شيء. وطبعًا هذا أمر لا أحد يعرفه بالضبط. فقد توفي قبل مئة سنة. مهما يكن، كان أحد الرسامين المعاصرين قد رسم صورة له كما تخيله وجمَّله، وهذه الصورة أزعجتني. أثارت اشمئزازي التام. ولا أدري إن كان في وسعك أن تفهمي ذلك».

«بل أفهم تمامًا. لا تقلق، تابع».

«على كل حال، قبل ذاك اللقاء لم أكن قد قابلت البروفيسور. وقد كان، ككل أساتذة الجامعة تقريبًا، وطنيًا كبيرا، وخلال الحرب قام بواجبه وساهم في خداع الناس، وطبعًا بكل النوايا الحسنة. غير أني مناهض الحرب. ولكن، لا علينا. فلأواصل قصتي. ولم تكن بي أي حاجة إلى أن أنظر إلى الصورة».

«حتما لا».

«إنها جعلتني أرثي لحال غوته الذي أحبه حبّا مرعبا، ثم إنني قلت في نفسي» الأفضل أن أعبر بالضبط عن رأيي أو شعوري. لقد كنت جالسًا مع أناس كواحد منهم ومعتقدًا أن رأيهم في غوته مثل رأيي فيه، وأني أتصوره كما يتصورونه، وإذا بتلك اللوحة السقيمة الزائفة عديمة الذوق تقف هناك وهم يعتقدون أنها جميلة وليست لديهم أدنى فكرة عن أن روح تلك اللوحة وروح غوته يقفان على طرفي نقيض. لقد رأوا أنها صورة ممتازة، ولا يهمني رأيهم في هذا، أما أنا فرأيت أنها قد وضعت حدّا باتّا قاطعًا لأي ثقة، أي علاقة صداقة، أي شعور بالألفة كان يمكن أن أكنّه لأولئك البشر. وعلى أي حال،

فإن صداقتي بهم لم تتوطد كثيرًا. وهكذا ثار غضبي وحزني، أيضًا، عندما وجدتني وحدي ولا أحد يفهمني. أتدركين ما أعني؟».

«من السهل جدًّا إدراكه. وماذا بعد؟ هل رميتهم بالصورة؟».

«لا، إني أهنتهم ومن ثم غادرت المنزل. وأردت أن أتوجه إلى بيتي، ولكن...».

«ولكنك شعرت أنك لن تجد هناك أي مومياء لتواسي الطفل الأحمق وتعنّفه، يجب أن أقول، يا هاري، إنك تكاد تجعلني أرثي لحالك. إني لم أقابل قط طفلاً مدلّلاً مثلك».

بدا لي أن عليَّ أن أعترف بذلك. وناولتني كأسًا من النبيذ لأشربه. والحقيقة هي أنها كانت كالأم بالنسبة إليّ. وإن كنت قد لاحظت، من خلال نظرة سريعة كنت ألقيها عليها بين حين وآخر، أنها صغيرة جدًّا وجميلة جدًّا.

باشرتْ تقول من جديد: «إذن، غوته مات قبل مئة عام، وأنت مولع به، وتحمل في مخيلتك صورة رائعة لما يمكن أن يكون عليه شكله، وأعتقد أن هذا من حقك. لكن الفنان الذي يعبد غوته أيضًا، ويرسم له صورة، لا يحق له أن يفعل ذلك، ولا البروفيسور، ولا أي إنسان آخر لأنك لا تحب هذا، تجده شيئًا لا يطاق. وكان لا بد أن تكون مهينًا وأن تغادر المنزل. ولو كنت تتمتع بموهبة حسن التقدير لضحكتَ من الفنان ومن البروفيسور، لضحكتَ وانتهيت من الأمر. ولو كنتَ فاقدًا لوعيك، لهشّمت الصورة على وجوههم. ولكنك مجرد طفل صغير، تهرع راكضًا إلى البيت لكي تنتحر. إنني أفهم قصتك فهمًا جيّدا يا هاري، إنها قصة مضحكة. لقد جعلتني أضحك. ولكن لا تسرع في الشرب. يجب ترشف البرغندي رشفًا، وإلا ارتفعت حرارتك. ولكن لا بد من أن تُلقَّن كل شيء ككل طفل صغير».

وجَّهت لومها إليَّ وهي ترميني بنظرة جديرة بأن تصدر عن مربية قاسية في الستين من العمر.

قلت راضيًا: «أوه، أعرف هذا. هيا واصلي تلقيني».

«ماذا أقول لك؟».

«كل ما ترغبين في قوله لي».

«عظيم. إذن سأقول لك شيئًا. إنني منذ ساعة أخاطبك مع رفع الكلفة، وأنت تتكلف في مخاطبتي. إنك دائمًا متأثر باللغة اللاتينية واليونانية، دائمًا مصقول قدر الإمكان. عندما تخاطبك فتاة بمودة وتجد أنها لطيفة معك، فيجب أن تعاملها بالمثل. ها أنت ذا قد تعلمت شيئًا. وثانيًا – إنني أعرف منذ نصف ساعة أن اسمك هو هاري. أعرفه لأني سألتك عنه. ولكنك لا تأبه بمعرفة اسمي».

«أوه، ولكن صدقًا أحب كثيرًا أن أعرفه».

«لقد تأخرت كثيرًا ! إذا تقابلنا ثانية، يمكنك أن تسألني عندئذ. أما هذا اليوم فلن أخبرك به. والآن سأذهب لأرقص».

لحظة قرَّرتْ أن تنهض واقفة، غاص قلبي كقطعة من رصاص. أرعبتني فكرة أن تذهب وتتركني وحدي، فعندئذ ستعود إليّ الحالة السابقة. وللتو تملكني الرعب القديم والشعور بالبؤس مثل ألم الأسنان الذي يختفي ومن ثم يعود فجأة ليحرق كالنار. ولكن آه، يا إلهي، هل كنت عندئذ قد نسيت ما كان في انتظاري؟ هل تغير كل شيء؟.

ناشدتها: «قفي لا تذهبي. طبعًا يمكنك أن ترقصي، وقدر ما تشائين، ولكن لا تطيلي غيابك، عودي ثانية، عودي ثانية».

ضحكت وهي تنهض واقفة. تخيلتها أطول قامة. كانت نحيلة ولكن ليست طويلة القامة. ومرة أخرى وجدتها تذكرني بشخص ما. بمن؟

لم أتذكر.

«ستعودين؟».

«سأعود، لكن ربما ليس قبل نصف ساعة أو ساعة. أريد أن أقول لك شيئًا: أغمض عينيك ونم قليلاً. هذا ما تحتاجه».

أفسحت لها مجالاً لتعبر. حفَّ طرف ثوبها بركبتيّ وألقت أثناء مرورها نظرة إلى نفسها في مرآة جيب صغيرة، ورفعت حاجبيها، وضمخت ذقنها بالبودرة، ومن ثم اختفت داخل صالة الرقص. ورحت أجيل النظر، وجوه غريبة، رجال يدخنون، بيرة مسفوحة على السطوح الرخامية، قرقعة وصخب في كل مكان، والموسيقى الراقصة تضج في أذني. قالت إن عليّ أن أنام. آه، يا صغيرتي الطيبة، إنك تعرفين الكثير عن طبيعة نومي الأشد مراوغة من ابن عرس. أنام وسط هذا الهرج والمرج، وأنا جالس عند طاولة، بين قرقعة قوارير البيرة! رحت أرشف النبيذ، وأخرجت سيجارًا، وتلفَّتُّ حولي بحثًا عن كبريت، وبما أنه لم تكن بي أي رغبة في التدخين، وضعت السيجار على الطاولة أمامي. كانت قد قالت لي «أغمض عينيك». يعلم الله من أين لتلك الفتاة بصوتها ذاك، صوت شديد العمق ومريح وأمومي. كان مريحًا إطاعة مثل ذاك الصوت، اكتشفت ذلك لتوّي. أغمضت عينيّ طائعًا، أسندت رأسي إلى الجدار وسمعت هدير مئة نوع من الضجيج الممزوج يصطخب من حولي، وابتسمت لفكرة النوم في مثل ذاك المكان. ومن ثم قررت أن أذهب إلى باب صالة الرقص لألقي نظرة من هناك على فتاتي الجميلة وهي ترقص. هممت بالوقوف، لكنّ هذه الحركة الخفيفة كشفت لي قدر التعب الذي استنزفني من فِرط ما طفت، فلزمت مقعدي. وعلى الأثر استغرقت في النوم كما أُمِرت. استغرقت في النوم بنَهَمٍ، وحلمت أحلامًا خفيفة، ممتعة، كما

لم أحلم منذ مدة طويلة.

حلمت أني جالس في غرفة انتظار. لم أميِّز شيئا أول الأمر، إلا أن الجمهور كان على شيء من الرقي. ثم تسرّب إلى ذهني أن غوته سيستقبلني. ولسوء الحظ، لم أكن موجودًا هناك لتلبية دعوة شخصية. كنت مراسلاً صحفيًا، مما سبّب لي إزعاجًا شديدًا ولم أفهم كيف وقعت في مثل تلك الورطة. ثم إني كنت مضطربًا لوجود عقرب كنت قد رأيته برهة وهو يحاول أن يرتقي ساقي. وكنت قد هززت نفسي لأتخلص من الحشرة السوداء الزاحفة، لكني لم أعرف إلى أين ذهبت ولم أجرؤ على تعقبها.

كما أني لم أكن واثقًا تماما ما إذا كنت سأدخل خطأ إلى ماتيسن[1] بدل غوته، ومرة أخرى خلطت خطأ في حلمي بين هذا الأخير وبين برغر[2]، لأني ظننته مؤلف قصائد إلى موللي. زيادة على ذلك كنت أودّ بشدّة أن أقابل موللي. كنت أتخيلها رائعة الجمال، رقيقة، عذبة. ليتني لم أكن موجودًا هنا بناءً على أوامر صادرة من مكتب الصحيفة الملعون ذاك. وازداد نكدي من هذا الأمر إلى أن امتدّ تدريجيًا حتى طال غوته الذي بتُّ أقترب منه بكل صنوف الريبة واللوم. سيكون لقاءً صحفيًا مملوءً حيوية. ولعل العقرب، على الرغم من كونه خطرًا ومختبئًا بلا ريب في مكان ما داخلي على عمق إنش مني، أقلّ شرًا ممّا كنت أظنّ. بل لعله قد ينمّ عن شيء ودّي. وبدا لي من المحتمل إلى أقصى حد أن له قاسمًا مشتركًا مع موللي: فلعله أشبه منها بحامل رسائل أو حيوان يستخدم كشعار، يرمز بإيحاء خطر وجميل إلى المرأة والإثم. أيمكن أن لا يكون اسمه هو فَلْبيوس؟ ولكن في تلك

---

(1) فريدريتش ماتيسن – matthisson. (المترجم).

(2) غوتفريد برغر (1747-1794): شاعر غنائي ألماني. (المترجم).

اللحظة فتح أحد الخدم الباب بقوة. فنهضت واقفًا ودخلت. وإذا بي أمام العجوز غوته، القصير بقامته المنتصبة بدقة تامة، وقد علّق على صدره الكلاسيكي، بشكل واضح، نجمة ضخمة لوسام ما. ولم يتخل لحظة عن وقفته المسيطرة، عن هيئةِ مَنْ يخاطب جمهورًا غفيرًا، وعن التحكم في العالم من متحفه ذاك الكائن في فايمار. والحق، إنه لم يكن قد نظر إليّ مباشرة من قبل، وباشر بالقول بأسلوبه الطنان، وهو يومئ برأسه ويهتز كغراب عجوز: «أعتقد أنكم، معشر الشبان، لا تكنّون أي تقدير لنا ولجهودنا».

قلت، وقد أشاعت نظرته الملكية القشعريرة في أوصالي: «معك كل الحق، نحن معشر الشبان لا نكنّ فعلاً أي تقدير لكم. فسعادتكم مفرطو الرصانة بالنسبة إلينا، وغاية في التفاهة والغرور، ولا تتحلون بما يكفي من الصراحة. وهذا، بلا شك، هو جوهر المسألة، أقصد افتقاركم إلى الصراحة».

طأطأ العجوز القميء رأسه المنتصب إلى الأمام، وعندما ارتخى فمه الصارم بتضاعيفه الرسمية راسمًا ابتسامة صغيرة بعثت فيه حياة فاتنة، طفر فجأة قلبي، إذ على الفور قفزت القصيدة إلى ذهني «الغسق ذو الجناحين المطويين»، وتذكرت أن تلك القصيدة خرجت من بين شفتي هذا الرجل. والحقيقة أني في تلك اللحظة تجردت من كل أسلحتي وسربلني الارتباك ولو خُيِّرتُ لركعت إجلالاً له. لكني حافظت على انتصاب قامتي وسمعته يقول وهو يبتسم: «أوه، إذن فأنت تتهمني بالافتقار إلى الصراحة؟ يا له من قول، هلاّ وضحت كلامك أكثر؟».

الحق لقد سرني أيما سرور أن أفعل ذلك.

«لقد ميَّزت، ياهر فون غوته، بوضوح وشعرتَ، ككل العظماء،

بلغز الحياة الإنسانية وعبثها، بلحظات سموّها التي تعود لتغوص إلى درك البؤس، واستحالة ارتفاعها إلى ذروة شعور واحدة مؤاتية إلا بعد دفع ثمنها أيامًا عديدة من الرضوخ لاستعباد الكدّ اليومي، ومن بعده الاشتياق المتقد لعالم الروح في حربها الأبدية المبيدة مع الحب المقدس الذي لا يقل اتقادًا عن براءة الطبيعة الضائعة، وكل الحيرة المخيفة وسط الخواء والضياع، هذا الشجب للزائل الذي لا يمكن أن يغدو فعّالاً، التجريبي دائمًا والمؤقت، باختصار، الفقدان التام للهدف المحكوم به الوضع الإنساني حتى درجة اليأس المهلك. لقد عرفتَ هذا كله، نعم، وتحدثتَ بالقدر نفسه وكررت القول، غير أنك كرّست حياتك بأكملها للتبشير بعكسه، مناديًا بالإيمان وبالتفاؤل وناشرًا أمامك وأمام الآخرين وهمًا مفاده أن لكفاحنا الروحي مغزى ما، وأنه باق. لقد صَمَمْتَ أذنيك عن أولئك الذين سبروا الأعماق، وخنقت الأصوات التي جهرت بحقيقة اليأس، ليس فقط داخلك أنت، بل أيضًا داخل كلايست[1] وبتهوفن. ومرت السنون وبعدها السنون وأنت تقيم في فايمار تكدّس المعرفة وتجمع الأشياء، تكتب الرسائل وتجمّعها، وكأنك أسست خلال سنيّ شيخوختك السبيل الحقيقي لاكتشاف الأبدي في الآني، وإن كل ما فعلته هو أنك حنّطته، بل إن كل ما فعلته لإضفاء الرّوحي على الطبيعة هو أنّك أخفيتها تحت قناع جميل، ولهذا ترانا نتهمك بالنّفاق».

ثَبَّت العجوز العظيم عينيه المتأملتين على عينيّ، مبتسمًا كما كان. فوجئت عندما سألني: «إذن فلابد أنّ لك اعتراضًا شديد اللهجة على «الناي السحري» لموتسارت؟».

قبل أن يتاح لي أن أبدي اعتراضًا، تابع قائلاً:

(1) هاينريش فون كلايست (1777-1811): كاتب مسرحي، وشاعر وقاص ألماني. (المترجم).

«إن «الناي السحري» تقدّم الحياة لنا كأغنية معجزة. إنها تشرّف مشاعرنا، وهي العابرة، وتجعلها سرمدية وقدسية. وهي لا تتطابق مع فون كلايست، ولا مع بتهوفن. إنها تصدح بالتفاؤل وبالإيمان».

هتفت حانقًا: «أعرف، أعرف. يعلم الله لماذا اخترت أن تضرب على وتر «الناي السحري» الأثيرة لديّ دون كل الأشياء الأخرى في العالم. لكن موتسارت لم يعش حتى بلغ الثانية والثمانين. وهو لم يعتبر نفسه عالي الأهمية! لقد صدح بألحانه القدسية ثم مات. مات شابًّا فقيرًا ومُساء فهمه».

كنت ألهث. كان لا بد أن أقول ألف شيء ضمن حدود عشر كلمات. وأخذ العرق يتفصد من جبيني.

إلا أن غوته قال بودّ جم: «لعل ما لا يغتفر لي أني عشت حتى سن الثانية والثمانين. لكن ارتياحي إلى هذا كان أقل مما قد تظن. وأنت محق في أن توقي العارم إلى البقاء كان دائمًا يتملكني. وكنت في حالة خوف متواصل وصراع مع الموت. وأعتقد أن الصراع لمكافحة الموت، والتصميم العنيد وغير المشروط على العيش، هما القوة الدافعة الكامنة خلف حياة كل الرجال البارزين ونشاطاتهم. لقد بيّنت لي سنواتي الاثنتين والثمانين بشكل حاسم أن علينا جميعًا أن نموت في نهاية المطاف، وكأني قد متّ وأنا تلميذ مدرسة. وأودّ أن أضيف، إنْ كان ذلك يساعد في تبرير موقفي، ما يلي: ثمت الكثير من سمات الطفل في فضولي الفطري وحبي لهدر الوقت في اللعب. واستمر الحال على هذا المنوال، إلى أن وجدت أنه لا بد للعب أن ينتهي إن عاجلاً أو آجلاً».

كانت ابتسامته، وهو يقول هذا، ماكرة جدًّا تتسم بخبث لئيم لا لبس فيه، وكانت قامته قد استطالت أكثر واختفى انتصاب وقفته

ووقار وجهه المتكلّف. حتى الجو الذي كان يحيط بنا أصبح الآن يضج بالأنغام، وكلها أغان من وضع غوته. سمعت بوضوح تام «البنفسج»[1] لموتسارت و«ها أنت من جديد تزدهرين في الأجمة والوادي» لشوبرت. وتورّد وجه غوته وامتلأ شبابًا، ثم ضحك، وبات تارة يشبه موتسارت كأنه أخوه، وأخرى شوبرت، وكانت النجمة المعلقة على صدره مؤلفة كلها من أزهار برية، وقد تفتحت في وسطها زهرة ربيع صفراء بكامل ازدهارها.

لم يكن يناسبني بشكل عام أن يتجنب السيد العجوز أسئلتي واتهاماتي بهذه الروح الرياضية، ورميته بنظرة مؤنبة. وقد رد عليها بانحناءة إلى الأمام ثم قرّب فمه الذي كان قد غدا عندئذ أقرب شبهًا بفم طفل، من أذني وهمس برقة قائلاً: «أنت تعامل غوته بجدية مبالغ فيها، يا صديقي الشاب. عليك أن لا تعامل العجائز الذين توفوا منذ زمن بجدية. نحن نحب المزاح. إن الجدية أيها الشاب، هي نكبة الزمن. وهي تتألف، ولا بأس في أن أفضي إليك بذلك سرّا، من إعطاء الزمن أكثر مما يستحق من القيمة. أنا أيضًا أضفيت ذات مرة على الزمن أهمية زائدة. ولذلك السبب تمنيت لو أعمّر مئة سنة. ولكن في الأبدية لا وجود للزمن. الأبدية لحظة تكفي لإطلاق نكتة».

الحق لم يعد هناك أي مجال لقول أي كلمة جدية أخرى للرجل. وراح يطفر بفرح ورشاقة في طول المكان وعرضه، ويجعل زهرة الربيع تنطلق من نجمته مثل قذيفة، ومن ثم يجعلها تنكمش وتختفي. وبينما هو يخفق جيئة وذهابًا بخطواته الراقصة وحركاته المتنوعة، لم يسعني إلا أن أظن أنه على الأقل لم يهمل تعلّم الرقص. وكان يبرع

---

(1) البنفسج: مجموعة قصائد لغوته حولها موتسارت إلى أغان. وتصنيفها في مؤلفاته 476k. (المترجم).

فيه. ثم تذكرت العقرب، أو بالأحرى، موللي، وهتفت لغوته: «قل لي، أموللي هنا؟».

ضج غوته بالضحك، وتقدم نحو طاولته وفتح أحد أدراجها، ثم أخرج صندوقًا جميلاً ملبَّسًا بالجلد أو بالمخمل، وفتحه وقرّبه من عينيّ. وإذا بي أرى هناك تمثالاً مصغرًا، صغير الحجم لامعًا ولا عيب فيه. كان لساق امرأة موضوعة على مخمل قاتم اللون، ساق رائعة، ذات ركبة صغيرة مثنيّة والقدم تشير إلى الأسفل لتنتهي بأرقّ أصابع قدمين.

مددت يدي، لأن حب الساق الصغيرة الطاغي وقع في نفسي ورغبت في الحصول عليها، ولكن حالما هممت بالإمساك بها بين إصبعي وإبهامي بدا وكأن الدمية قد تحركت بطفرة واهية وخيّل إليّ فجأة أنها ربما كانت العقرب. ويبدو أن غوته استشف ما يجول بخاطري بل حتى رغب في أن يسبب لي هذا الخوف العميق، هذا الصراع المحموم بين الرغبة والخوف. وحمل العقرب الصغير المزعج وقرَّبه من وجهي وراح يراقبني وأنا أندفع إلى الأمام تحدوني الرغبة، ثم أجفل متراجعًا رعبًا، وبدا أن هذا يسليه أيّما تسلية. وبينما كان يزعجني بالشيء الفاتن الخطر، إذ به يصبح عجوزًا من جديد، عجوزًا بشكل مفرط، كأن عمره ألف عام، شعره أبيض كالثلج، ووجهه الظاعن الذاوي يضحك ضحكًا ساكنًا أخرس كان العجوز المطبق يهزّه من الأعماق بحس فكاهي.

عندما استيقظت كنت قد نسيت الحلم، ولم أستعده إلا لاحقًا. فقد نمت ما يقارب الساعة، ولم يخطر ببالي قط أنّ بإمكاني أن أستغرق في النوم على طاولة حانة والموسيقى تصخب في كل مكان من حولي. كانت الفتاة العزيزة واقفة أمامي وهي تضع إحدى يديها على كتفي.

قالت: «أعطني ماركين أو ثلاثة، لقد أنفقت بعض النقود هناك».

أعطيتها محفظتي، فأخذتها وسرعان ما عادت.

«حسن أستطيع الآن أن أقضي معك بعض الوقت وبعد ذلك عليّ أن أرحل. لدي موعد».

فزعت.

سألتها بسرعة: «مع من؟».

«مع رجل، يا عزيزي هاري. لقد دعاني إلى بار أوديون».

«أوه ! لم يخطر ببالي أنك سوف تتركيني وحدي».

«إذن كان عليك أن تدعوني بنفسك. لقد دخل أحدهم على الخط قبلك. حسن، لقد وفرت مبلغًا محترمًا من المال. هل تعرف الأوديون؟ لا يقدمون إلا الشمبانيا بعد منتصف الليل. وهناك مقاعد بذراعين كما في النوادي، وفرقة موسيقية من السود، وأجواء رائعة».

لم أكن قد فكرت في كل ذلك.

استعطفتها قائلا: «لكن دعيني أدعوك. حسبت أن ذلك أضحى بديهيًا، بعد أن أصبحنا أصدقاء. ادعي نفسك إلى أي مكان تشائين. افعلي، أرجوك، أتوسل إليك».

«هذه لفتة لطيفة منك. ولكن، في الواقع، وعد الحر دينٌ، وقد أعطيت كلمتي وسوف أوفي بها وأذهب. وكفّ عن القلق حول هذا الموضوع. اشرب كأسًا أخرى من النبيذ. مازال هناك بعض منه في الزجاجة. اجرعه ثم اذهب بكل ارتياح إلى المنزل ونم. عدني بأن تفعل».

«لا، أنت تعلمين أني لا أستطيع أن أفعل هذا – أن أذهب إلى البيت».

«أوه، تبًا لك ولحكاياتك ! ألن تنتهي أبدًا من صاحبك غوته؟» (عاودني في تلك اللحظة الحلم الذي كان حول غوته).

«ولكن إذا كان من المتعذر عليك أن تذهب إلى البيت، ابق هنا، ثمت غرف نوم. هل أحجز واحدة لك؟».

أقنعني هذا الاقتراح، وسألتها أين يمكن أن أجدها ثانية؟ أين تقطن؟ فرفضت أن تخبرني. وقالت إني سأعثر عليها في مكان ما إذا بحثت.

«هل لي أن أعزمك إلى مكان ما؟».

«أين؟».

«في المكان والزمان الذي تختارين».

«عظيم. فليكن يوم الثلاثاء على العشاء في مقر الفرنسيسكان القديم. الطابق الأول. إلى اللقاء».

مدّت لي يدها. لاحظتُ ولأول مرة إلى أي حد تتماشى مع نبرة صوتها، يد جميلة، قوية وتدل على الذكاء والود. وعندما قبَّلتها ضحكت مني.

ثم وفي اللحظة الأخيرة التفتت إليّ مرة أخرى وقالت: «سأقول لك شيئًا آخر عن غوته. إن شعورك نحوه واعتبارك أن صورته لا تطاق، هما صفتان غالبًا ما أجدهما في القديسين».

«قديسون؟ أأنت متدينة إلى هذا الحد؟».

«لا، لست متدينة، يؤسفني أن أقول هذا. ولكني كنت كذلك ذات يوم، وسأعود إلى ذلك. لم يعد هناك وقت الآن للتديُّن».

«لا وقت. وهل يتطلب التديُّن وقتًا؟».

«أه، نعم. فلكي تصبح متدينًا يجب أن يتوفر لديك الوقت، ويجب،

زيادة على ذلك، أن تكون مستقلاً عن الزمن. إذ لا يمكنك أن تكون متدينًا جديًا وأنت تعيش في الوقت نفسه الأحداث الواقعية وتظل تتعامل معها بجدية، الزمن والمال وبار أوديون وكل ذلك».

«نعم، أفهم هذا، ولكن ما ذاك الذي قلته عن القديسين؟».

«حسن، هناك العديد من القديسين وأنا مولعة خاصة بستيفن والقديس فرنسيس وآخرين. وكثيرًا ما أشاهد صورًا لهم وللمخلِّص وللعذراء، كلها صور كاذبة وزائفة وسخيفة، وأنا لا أطيقها كما لا تطيق أنت النظر إلى صورة غوته. وعندما أشاهد إحدى تلك الصور الحلوة السخيفة التي تمثل المخلِّص أو القديس فرنسيس وأرى كيف يجدها بقية الناس جميلة ومثقِّفة للنفس، أشعر أن ذلك إهانة موجهة إلى المخلِّص الحقيقي، وتدفعني إلى أن أفكر قائلة: لماذا عاش وتألم آلامًا مبرحة إذا كان الناس يجدون صورة بهذه السخافة كافية لهم! ولكن على الرغم من ذلك أعرف أن الصورة التي أحملها في مخيلتي للمخلِّص أو للقديس فرنسيس ما هي إلا صورة من صنع بشر، وأقلّ بكثير من قيمتها في الأصل، وأن المخلِّص ذاته خليق أن يعتبر الصورة التي أحملها له في داخلي لا تقل سخافة عما أراه في تلك النسخ السقيمة. وأنا لا أقول هذا لأبرر نزقك وحنقك على صورة غوته. ليس هناك أي تبرير. إنكم معشر المثقفين والفنانين تحملون، بلا ريب، كافة أنواع الأفكار السامية، لكنكم بشر مثلنا جميعًا، ونحن أيضًا، لدينا أحلامنا، وأخيلتنا. فقد لاحظت، مثلاً، يا سيدي المثقف، أنك شعرت بشيءٍ من الحرج عندما بدأت تحكي لي قصتك عن غوته. وقد بذلت جهدًا عظيمًا لتوضح أفكارك لفتاة بسيطة مثلي. هكذا تراني. وأريد أن أبين لك أنه ما كنت بحاجة إلى أن تبذل كل ذاك الجهد. إنني أفهمك فهمًا تامًّا. والآن ها أنا قد أفضيت بكل ما لدي، ومكانك الآن هو السرير».

مضت وصحبني بواب عجوز وارتقينا مجموعتين من الدرج. غير أنه سألني أولاً عن أمتعتي، وعندما سمع أني لا أحمل شيئًا منها، اضطررت إلى أن أدفع ما يسمى بـ «أجرة النوم». ثم صعد بي درجًا مظلمًا قديمًا يؤدي إلى غرفة علوية وتركني وحدي. كان هناك سرير خشبي كئيب وقد عُلِّق على الجدار سيف مبارزة ولوحة ملونة تصوِّر غاري بالدي وأيضًا إكليل ذابل كان ذات مرة قد ظهر في مهرجان أحد الأندية. وكنت مستعدًا أن أدفع مبلغًا كبيرًا مقابل منامة. وعلى أي حال كان هناك ماء ومنشفة صغيرة، وتمكنت من الاغتسال، ثم تمددت على السرير وأنا بثيابي الكاملة، ثم تركت النور مضاءً واستسلمت لتأملاتي. ها قد سوّيت أمري مع غوته. إن مجيئه إليّ في الحلم أمر مذهل. وهذه الفتاة الرائعة، ليتني فقط عرفت اسمها ! ها قد ظهر أمامي فجأة مخلوق بشري، مخلوق بشري حي، ومدّ إليّ يده، يد خيِّرة، جميلة ودافئة، هشّمت الموت الذي كان قد جثم عليّ كصندوق زجاجي. هكذا فجأة عثرت من جديد على أشياء تثير اهتمامي، أستطيع أن أفكر فيها بفرح واشتياق. هكذا فجأة فُتح باب بقوة وولجت منه الحياة. لعل باستطاعتي أن أعيش من جديد وأن أعود من جديد كائنًا بشريًا. وروحي التي كانت قد استغرقت في سبات عميق وسط البرد، وكادت تتجمد عادت تتنفس من جديد، وراحت تنشر جناحيها الصغيرين الواهنين بحركة ناعسة. لقد كان غوته معي. لقد أمرتني فتاة أن آكل وأشرب وأنام، وأبدت لي مودة، وضحكت مني، وخاطبتني بالولد الصغير الأحمق. وهذه الصديقة الرائعة حدثتني عن القديسين، وبيّنت لي أنه حتى بعد أن تفوقت على نفسي في السخافة فإني لم أبق وحدي. وإني لم أكن استثناءً مريضًا ومبهمًا. وثمت أناس يشبهونني. وثمت من يفهمني. فهل سأراها مرة

أخرى؟ نعم، بلا ريب. ويمكن الاعتماد عليها. و«وعد الحر دين».

سرعان ما استغرقت في النوم من جديد ونمت أربع ساعات أو خمسًا. وعندما استيقظت كانت الساعة قد قاربت العاشرة. وكانت ملابسي قد تمعجت. وشعرت بإرهاق تام. كانت ذكرى رعب الأمس شبه المنسي ما تزال عالقة بذهني، ولكني كنت أملك الحياة والأمل وأفكارًا متفائلة. ولدى رجوعي إلى غرفتي لم يمسّني شيء من ذاك الرعب الذي كانت عودتي تخبّئه لي بالأمس. وعلى الدرج وفوق نبتة الأروكاريا قابلت «العمة»، صاحبة المنزل. وكنت نادرًا ما أراها لكن روحها الطيبة كانت دائمًا تبهجني. ولم يكن اللقاء مبشّرًا كثيرًا بالخير، فقد كان مظهري ما يزال مهملاً وشعري شعثًا بعد قضاء ليلتي في الخارج، ولم أكن قد حلقت ذقني. حيّيتها وكدت أتابع طريقي. في العادة كانت دائمًا تحترم رغبتي في أن أعيش وحدي بعيدًا عن العيون. ولكن اليوم، كما اتضح، بدا أن الحجاب الذي كان قائمًا بيني وبين العالم الخارجي قد تمزق، وانهار الحاجز. ضحكتْ وتوقفتُ.

«أراك كنت تقضي وقتًا مرحًا يا سيد هاللر. أنت لم تنم في سريرك ليلة أمس. لا بد من أنك مرهق من فرط التعب!».

قلت: «نعم»، واضطررت إلى أن أضحك بدوري، «كانت هناك حفلة مرحة ليلة أمس، ولأني لم أرغب في أن أفزعك، نمت في الفندق. إن احترامي لراحتك وتوقيري لمنزلك عظيمان. إنني أحيانًا أشعر وكأني «كيان دخيل» فيه».

«إنك تسخر، يا سيد هاللر».

«فقط من نفسي».

«لا يجب أن تفعل هذا أيضا. عليك ألاّ تشعر ولو للحظة بأنك «كيان دخيل» وأنت في منزلي. يجب أن تعيش بالشكل الذي يوفر لك

أقصى سعادة وأن تبذل أقصى جهدك في ذلك. لقد استقبلتُ العديد من النزلاء المحترمين جدّا. يمثلون دور الاحترام، ولكن لا أحد منهم يظاهيك في هدوئك وقلّة إزعاجك لنا. والآن، ما رأيك بشرب بعض الشاي؟».

لم أرفض. قُدِّم الشاي في غرفة جلوسها ذات الصور والأثاث عتيقيْ الطراز، تبادلنا حديثًا قصيرًا. وانتزعتْ بأسلوبها الودي، نُتفًا عن حياتي وأفكاري دون أن تطرح أسئلة، وأنصتتْ بانتباه إلى اعترافاتي. في حين أنها في الوقت نفسه لم تولها من الاهتمام أكثر مما يجدر بامرأة ذكية في مقام الأمّ أن توليه لنقاط ضعف الرجال. وتحدثنا أيضًا، عن ابن أخيها وأرتني في غرفة مجاورة آخر هواياته، جهاز راديو. فهناك كان الشاب المجدّ يقضي لياليه وهو يركّب الجهاز، وهو المفتون بالراديو، ويركع على ركبتين ورعتين أمام إله العلم التطبيقي الذي أتاح لنا بفضل قدرته أن نكتشف بعد مضي آلاف السنين حقيقةً لطالما عرفها كل مفكر ووضعها في موضع التطبيق العملي بشكل أفضل مما حدث خلال فترة هذا التطور الحديث والمنقوص كثيرًا. وتحدثنا عن ذلك، لأن العمة لم يكن لديها أي ميل إلى التقوى ولم تكن ترحب بطَرْق المواضيع الدينية. فقلت لها إن الحضور الكلي لكل القوى والحقائق كان معروفًا حق المعرفة لدى الهند القديمة، وإن التكنولوجيا لم تضع قيد التطبيق العام إلا قدرًا ضئيلاً من هذه الحقيقة، وذلك بأن ابتكرت لها، أي للأمواج الصوتية، جهازًا مستقبلاً ومرسلاً لا يزال في مراحله الأولى ومتخلفًا إلى حد كبير. والحقيقة الأساسية المعروفة لدى تلك الدراية القديمة كانت، كما قلت، لا واقعية الزمن. وهذا العلم لم ينتبه إليه أحد بعد. وأخيرًا سوف يتم إحراز هذا «الاكتشاف» أيضًا، وعندئذ سوف ينكبُّ المخترعون عليه. وسوف يُكتشف، وربما

قريبًا جدًا، أن صور الحاضر العابر وأحداثه تطفو حولنا بالطريقة نفسها التي تُسمع بها الآن الموسيقى الصادرة من باريس أو برلين في فرانكفورت أو زيوريخ، ليس هذا فحسب، وإنما يمكن تسجيل كل ما حدث في الماضي واسترجاعه أيضًا. ويمكننا أيضًا أن نتطلّع إلى اليوم الذي نسمع فيه، بأسلاك أو دونها، بتشويش من أصوات أخرى أو دونه، الملك سليمان يتكلم، أو فالتر فون در فوغلفايده[1] وكل هذا، كما قلت، وكما يحدث هذه الأيام مع بدايات الراديو، لن يخدم الإنسان إلا باعتباره وسيلة للهروب من نفسه ومن أهدافه الحقيقية، وباعتباره أسلوبا لإحاطة نفسه بشبكة من وسائل اللهو والنشاطات التافهة التي تلتصق به باضطراد. ولكن بدل أن أخوض في هذه المواضيع المألوفة على عادتي بمرارة وبالسخرية من العصر ومن العلم، رحت أضحك منها، فابتسمتْ العمة، وبقينا جالسيْن هكذا معًا ساعة أو نحوها، وشربنا الشاي باستمتاع جمّ.

دعوتُ الفتاة الرائعة والفاتنة التي قابلتها في «النسر الأسود»، في أمسية يوم الثلاثاء التالي، وكنت حائرًا لا أدري كيف أمضي الوقت حتى ذلك الحين، وعندما حل يوم الثلاثاء أخيرًا، أضحت أهمية علاقتي بهذه الفتاة المجهولة جليّة لي بشكل مفزع. لم أعد أفكر إلا فيها. بت أتوقع أي شيء منها. كنت مستعدًا أن أضع كل شيء عند قدميها. ولم أكن بأي حال عاشقًا لها. ولكن كان يكفي أن أتخيل أنها لن تتمكن من تلبية دعوتي، أو أن تنسى أمرها حتى تتضح لي حقيقة حالتي. عندئذ يعود العالم صحراء قاحلة من جديد، أيامًا متشابهة في كآبتها وعبثها، ويكتنفني من جديد سكون الموت والبؤس من كل جانب حتى لا أجد لي مهربًا من جحيم الصمت هذا إلا بواسطة

---

(1) فالتر فون در فوغلفايده (1170-1230): شاعر غنائي ألماني.

الموسى. وتلك الأيام القليلة لم تدفعني إلى التفكير بحماقة في اللجوء إلى الموسى إذلم تكن قد فقدت شيئًا من تأثيرها المرعب. والحقيقة البغيضة كانت ما يلي: كنت أرتعب من أن أحزَّ عنقي رعبًا سحق قلبي. فقد كان خوفي عنيفًا وعضالاً وكأني أوفر الناس صحة وكأن حياتي جنة. وأدركت حقيقة وضعي بتهور ودون أي وهم. أدركت أن التوتر الذي لا يطاق المنبثق من عجزي عن أن أحيا وعجزي عن أن أموت هو الذي جعل الفتاة المجهولة، الراقصة الجميلة في «النسر الأسود»، مهمة بالنسبة إليّ. لقد كانت المنفذ الوحيد، الشق الصغير الوحيد الذي يتسرب منه النور إلى جحر رعبي الأسود. كانت انعتاقي وسبيلي إلى الحرية. كان عليها أن تعلمني كيف أعيش أو كيف أموت. كان عليها أن تواسي قلبي الملتاع بلمسة من يدها القوية والجميلة، وعندما تلمسني الحياة كانت إما ستقفز عائدة إلى اللهب أو أن تخمد وتغدو رمادًا. ولم أستطع أن أتصور من أين استمدّت تلك القوى، ومصدر سحرها، وفي أي تربة سرية نما هذا المغزى العميق الذي أصبحت تمنحني إياه. لم يكن ذلك مهمًّا ولم أكترث بمعرفته. فلم يعد لأي معرفة أو إدراك يمكنني الحصول عليهما أيّ أهمية. والحق لقد كان لدي منهما الشيء الكثير، لأن الخزي الذي كنت أرزح تحت وطأته يكمن في هذا بالذات، في أني رأيت وضعي بجلاء تام، وكنت على وعي عالٍ به. رأيت ذئب البراري هذا، هذا التعس، هذا البهيمي، أشبه بذبابة واقعة في شرك، ورأيت أيضًا اقتراب الكلمة الفصل في حقّه. لقد كان عالقًا في الشرك متشابكًا ولا حول له ولا قوة. كان العنكبوت مستعدًا لالتهامه، وعلى مسافة منه امتدت اليد المنقذة. وكان في إمكاني أن أقدم ملاحظات على قدر عال من الذكاء ونفاذ البصيرة حول تشعبات آلامي وأسبابها، وسقم روحي، وتشوش حالتي العصبية

عمومًا. لقد كانت الآلية جلية بالنسبة إليّ. ولكن ما كنت بحاجة إليه ليس المعرفة والفهم. ما تقت إليه وسط يأسي كان الحياة والتصميم، الفعل ورد الفعل، الحافز والقوة الدافعة.

على الرغم من أني خلال أيام الانتظار القليلة لم أيأس قط من وفاء صديقتي بوعدها، فلم يمنعني هذا من أن أبقى في حالة من الترقب المرير عندما حل اليوم الموعود. ولم أكن في أي وقت من حياتي قد انتظرت انتهاء نهار ما بصبر نافد، كما فعلت عندئذ. وفي الوقت الذي كان الترقب ونفاد الصبر لا يكادان يطاقان، كانا في الوقت نفسه ذوا فائدة رائعة لي. كان أمرًا جميلاً بشكل يفوق التصور وجديدًا بالنسبة إليّ، أنا الذي ظل فترة طويلة أكسل بكثير من أن ينتظر أي شيء، أو أن يجد متعة في أي شيء، نعم، كان رائعا أن أهرع متنقلاً من هنا إلى هناك طوال النهار في تلهف لا يعرف الاستقرار وترقب مُجهد، أستبق اللقاء والحديث وما تخبّئه الأمسية لنا، أن أحلق ذقني وأرتدي ملابسي بعناية خاصة (ملابس داخلية جديدة، ربطة عنق جديدة، رباط جديد في حذائي). ولم يكن مهمّا من تكون هذه الفتاة الغامضة والذكية، وكيف توصلت إلى إقامة علاقة معها. لقد كانت موجودة وكفى. حصلت المعجزة. لقد عثرت مرة أخرى على كائن بشري وعلى اهتمام بالحياة. وأهم ما في الأمر أنه كان على المعجزة أن تستمر، وأن عليّ أن أستسلم لهذه القوة المغناطيسية وأن أتبع هذا النجم.

عندما رأيتها من جديد كانت لحظة لا تُنسى! جلستُ في المطعم المريح عتيق الطراز إلى طاولة صغيرة كنت قد حجزتها بطريقة لا داعي لها بواسطة الهاتف، ورحت أتفحص قائمة الطعام. كان ثمت في كأس زهرتا سحلبية كنت قد اشتريتهما لصديقتي الجديدة. وتوجب عليّ أن أنتظر فترة لا بأس بها، لكني كنت واثقًا من أنها ستأتي، ولم

أعد مهتاجًا. ثم جاءت. توقفتْ برهة في غرفة الملابس واكتفت بإلقاء نظرة منتبهة أقرب إلى المزاح من عينيها الرماديتين الصافيتين. حرصتُ مرتابًا، على أن أتابع كيفية تصرف النادل معها. لا، لا شيء حميمًا، لا رفع للكلفة. كان متسمًا بالاحترام بشكل موسوس. ومع ذلك كان يعرف كل منهما الآخر. ونادتْه بإميل.

عندما قدمت لها زهرتيّ السحلبية، ضحكت بسرور:

«هذه لفتة عذبة منك يا هاري. أراك أردت أن تقدم إليّ هديةً، أليس كذلك، ولم تكن واثقًا تمامًا ماذا تنتقي. لم تكن واثقًا تمامًا إن كنت تحسن التصرف بتقديم هدية إليّ. فربما أشعر بالإهانة، وهكذا استقر اختيارك على زهرتي السحلبية، وعلى الرغم من أنهما مجرد زهرتين فهما عزيزتان عليّ كفاية. وأنا أشكرك جزيل الشكر. وبالمناسبة سأقول لك منذ الآن إني لن أقبل منك هدايا. صحيح أني أعيش على نفقة الرجال، لكني لن أفعل ذلك معك. ولكن كم تغيرت! ما كان أحد ليعرفك. في ذاك اليوم بدوت وكأنك كنت قد أنزلت عن مشنقة، وها أنت الآن عدت رجلاً بمعنى الكلمة. والآن، هل نفذت أوامري؟».

«أي أوامر؟».

«كيف أمكنك أن تنسى! أعني، هل تعلمت رقصة الفوكس – تروت؟ لقد قلت إنه لا شيء أحب إلى نفسك من تنفيذ أوامري، أتذكرك؟».

«قلت هذا فعلاً، وسألتزم به، أنا جاد».

«ومع ذلك لم تتعلم الرقص بعد؟».

«أيمكن أن أتعلم ذلك بسرعة كبيرة في غضون يوم أو يومين؟».

«طبعًا. يمكنك أن تتعلم رقصة الفوكس – تروت في غضون ساعة من الزمن. ورقصة البوسطن في ساعتين. والتانغو تتطلب أكثر من ذلك، ولكنك لا تحتاج إلى هذه».

«ولكن الآن أريد حتمًا أن أعرف اسمك».

«نظرت إليّ برهة دون أن تتكلم.

«ربما تستطيع أن تخمّنه. سيسعدني كثيرًا لو فعلت. تمالك نفسك وألقِ عليّ نظرة شاملة. ألم يخطر ببالك قط أن وجهي يشبه أحيانًا وجه صبي؟ الآن، مثلاً».

نعم، الآن وأنا أنظر إلى وجهها بإمعان، كان عليّ أن أعترف أنها كانت على حق. إن لها وجه صبي. وبعد برهة من الزمن رأيت شيئًا في وجهها ذكرني بفترة فتوّتي وبصديقي في ذاك العهد. كان اسمه هرمن. وخيّل إليّ للحظة أنها قد تلبّست صورة هرمن هذا.

قلت مذهولاً: «لو كنت صبيًا لقلت إن اسمك هو هرمن».

قالت عابثة: «من يدري، لعلي صبي وأنا ببساطة في ثياب امرأة».

«اسمك هرمينه؟».

أومأت إيجابا، مشرقة الوجه، مبتهجة لصحة تخميني. في تلك اللحظة أحضر النادل الطعام وباشرنا الأكل. كانت سعيدة كطفلة ومن بين الأشياء التي كانت تسرني وتفتنني فيها، كان أجملها وأشدها تمايزًا تنقّلها السريع من حالة الجدية الأشد رصانة إلى المرح المثير للضحك، وكل هذا دون أن تسبب لنفسها أدنى قدر من العنف، وبالسهولة التي تصدر عن طفل موهوب. وفي ذلك الحين، كانت مرحة وتمازحني حول رقصة الفوكس – تروت، وتدوس على قدمي من تحت الطاولة، وتطري وجبة الطعام بحماس، معلّقة على

العناية التي أوليتها ارتداء ملابسي، على الرغم من أنها أيضًا كان لديها العديد من الانتقادات على مظهري.

خلال ذلك سألتها: «كيف نجحت في أن تظهري بمظهر صبي وجعلتني أخمّن اسمك؟»

«أوه، لقد فعلت كل ذلك بنفسك. ألا تكشف لك ثقافتك أن السبب في أني مصدر سرور لك وفي أني أعني لك الكثير يعود إلى كوني أشبه بمرآة تعكس صورتك، لأني أملك شيئًا يجد صدى عندك ويفهمك. علينا جميعًا، جدّيا، أن نكون مرايا تعكس كل منا للآخر وصدى وجوابًا كلّ منا للآخر، لكن أمثالك من البوم هم من الحالات الخاصة. ولدى أقل استفزاز يستسلمون لأشد الحماقات غرابة فيعجزون عن رؤية أي شيء أو استشفاف أي قبس من عيون بقية الناس وعندئذ يبدو لهم أن لا شيء على ما يرام. ومن ثم عندما يعثر أحد هؤلاء البوم أخيرًا على وجه يبادله النظر وتصدر عنه لمحة فهم وقرابة يُسرّ عندئذ، طبعًا».

هتفتُ مذهولاً: «ليس هناك شيء لا تعرفينه، يا هرمينه، إن الأمر كما تقولين تمامًا. ومع ذلك فأنت تختلفين كل الاختلاف عني. بل إنك على طرف نقيض مني. وتملكين كل ما أفتقر إليه».

قالت باقتضاب: «هذا ما تراه أنت، وهو لصالحك».

هنا انتشرت غمامة من الجدية القاتمة على وجهها. إنه حقا بمثابة المرآة السحرية بالنسبة إليّ. فجأة، أصبح وجهها ينمّ عن الجدية والمأساة، ولا قرارة له كعيني قناع خاويتين. وببطء، وكأن الكلمات تنسحب منها سحبًا، قالت:

«تذكّر، لا تنس ما قلته لي. لقد قلت لي أن آمرك، وإنه يسرك أن تطيع أوامري. فلا تنس ذلك. واعلم، يا صغيري هاري، كما أن هناك شيئًا عندي يلقى صدى لديك ويمنحك الثقة في النفس، كذلك الحال

معي. وفي ذاك اليوم عندما رأيتك تدخل ملهى «النسر الأسود» وأنت مرهق وخارج عن طورك ولا تبدو أنك تمتّ إلى هذا العالم بصلة، قلت في نفسي على الفور: هذا الرجل سوف يمتثل لأوامري. إن كل ما يريده هو أن أصدر إليه الأوامر. وهذا ما أنوي أن أفعله. ولهذا تحدثت معك وعقدنا صداقة».

كانت تتكلم بجدية صارمة استجابة لدافع عميق كامن في قرارة روحها، حتى أني كرهت أن أحثها. بل حاولت أن أهدّئ من روعها، فهزت رأسها وهي عابسة، وتابعت بملامح مهيمنة وصوت بارد: «أكرر أن عليك أن تفي بوعدك، يا صغيري. فإذا لم تفعل ستندم. سوف تتلقى أوامر عديدة مني وسوف تنفذها. وهي أوامر جميلة ومقبولة وسيسعدك أن تطيعها. وفي نهاية المطاف سوف تنفّذ آخر أوامري أيضًا، يا هاري».

قلت شبه مستسلم: «سأفعل. وماذا سيكون آخر أوامرك؟».

كنت قد خمنته لتوي يعلم الله لماذا.

ارتعشتْ وكأن هبَّة برد عابرة تغلغلت فيها، وبدت كأنها تستيقظ تدريجيًا من غشيتها. عيناها لم تزيحا نظرتهما عني. وفجأة أضحت أشد شؤمًا.

«لو كنت حكيمة، فلا يجدر بي أن أخبرك. لكني لست حكيمة، يا هاري، ليس هذه المرة. بل سأكون على الطرف الآخر. فأنصت إلى ما سأقول الآن. سوف تسمعه وتعود فتنساه. سوف تضحك منه، وسوف تبكي عليه. فانتبه! سألعب معك لعبة مقابل الحياة والموت، أيها الأخ الصغير، وقبل أن نباشر اللعب سوف أضع أوراقي على الطاولة».

كم كانت جميلة، مثالية، عندما قالت ذلك! وسبح في عينيها بهدوء وصفاء، حزن المعرفة. عيناها تينك بدتا وكأنهما عانتا كل ما

يمكن تصوره من آلام وأذعنتا لها. وتحركت شفتاها بصعوبة وهي تتكلم وكأن حملا ثقيلا يعيقهما، وكأن صقيعًا جمَّد وجهها، ولكن بين شفتيها عند زاويتي فمها حيث ظهر طرف لسانها في فترات نادرة، تبدى تعبير حسِّي عابث عذب، ولاح شبقٌ جسدي عارم ناقضَ تعبير وجهها ونبرة صوتها. وتدلَّت خصلة شعر فوق امتداد جبينها الأملس، ومن هذه الزاوية من جبينها التي انهمرت منها خصلة الشعر، كانت سمتها الصبيانية تتجمع بين حين وآخر كنسمة حياة فترمي سحرًا أنثويًا. ورحت أنصت بقلق مشتاق ولكن كأني منبهر وشبه واع.

واصلت كلامها: «إنك معجب بي للسبب الذي ذكرته سابقًا، لأني اخترقت عزلتك. لقد انتشلتك من فم بوابات الجحيم ونبّهتك إلى حياة جديدة. لكني أريد منك أكثر من ذلك، أكثر بكثير. أريدك أن تعشقني. لا، لا تقاطعني. دعني أتكلم، أنت شديد الإعجاب بي. هذا واضح لي. وأنت ممتن لي. لكنك لا تعشقني. إنني أنوي أن أجعلك تعشقني، وهذا جزء من عملي. إنني أرتزق من قدرتي على جعل الرجال يقعون صرعى حبي. ولكن انتبه، أنا لا أفعل ذلك لأني أجدك جذابًا بشكل استثنائي. فأنا لا أكنُّ أي قدر من الحب لك كما هو حالك معي. لكني أحتاج إليك كما أنت بحاجة إليّ. أنت تحتاج إليّ الآن، وفي هذه اللحظة لأنك إنسان يائس، إنك تحتضر لأنك لا تجد من يدفعك إلى الماء ويعيد إليك الحياة. وأنت تحتاجني لكي أعلمك أن ترقص وتضحك وتعيش. أما أنا فأحتاجك، ليس هذا اليوم، ولكن لاحقًا، لأمر على غاية من الأهمية ومن الجمال أيضًا. وعندما ستعشقني سوف أوجه إليك آخر أوامري وسوف تنفّذه، وسيكون ذلك لصالحنا نحن الاثنين».

رفعت إحدى زهرتي السحلبية ذات اللونين البني والأرجواني والعروق الخضراء قليلاً في الكأس ثم مالت وحدقت برهة إلى الزهرة.

«لن تجد الأمر سهلاً، لكنك ستقوم به. سوف تنفذ أمري وتقتلني، انتهينا، لا أسئلة».

عندما انتهت كانت عيناها ما تزالان مركزتين على زهرة السحلبية، وتراخت قسمات وجهها، فقدت توتّرها كبرعم زهرة ينشر بتلاته. وعل الفور ارتسمت ابتسامة فاتنة على شفتيها بينما ظلت عيناها الصبيانيتان ثابتتين وبدتا كما لو أنهما مسحورتان. ثم انتفض رأسها مهتزًا مع خصلتها الصبيانية، وتناولت رشفة ماء، ولما أدركت فجأة أننا جالسان على مائدة طعام انكبت من جديد على الأكل بشهية مفتوحة وتلذّذ.

كنت قد سمعت بلاغها الغريب واضحا بحذافيره. بل إني خمنت أمرها الأخير حتى قبل أن تنطق به ولم يلامسني الرعب. وبدا كل ما قالته مقنعًا لي وكأنه حكم بالإعدام. وقبلته دون إبداء اعتراض. ولكن على الرغم من الجدية المخيفة التي صبغت كلامها، لم أحمله كله على أنه حقيقي وجدّي تمامًا. ففي حين أن جزءًا من روحي تشرب كلماتها وآمن بها، فإن جزءًا آخر خفف من حماسي بإيماءة منه، ولاحظت أن هرمينه أيضًا، على الرغم من كل ما تتمتع به من حكمة وصحة وثقة بالنفس، لها أوهامها وحالات ضعفها. وما أن لفظت آخر كلماتها حتى اكتسى المشهد برمّته فسحة من الزيف واللاجدوى.

مع ذلك، لم يكن في مقدوري أن أعود إلى الوقائع والاحتمالات بالخفة نفسها التي لجأت إليها هرمينه.

سألتها، ومازالت في حالة شبه حلم: «إذن فعليّ أن أقتلك ذات يوم؟». فأخذت تضحك، وتنكبُّ بنهم على التهام وجبتها من لحم الطيور وبتلذّذ ضافٍ.

أومأت بخفة إيجابًا: «طبعًا. كفانا من هذا، إنه وقت الأكل، هاري،

كن ملاكًا ومُر لي بمزيد من السلطة. ألست جائعًا؟ يبدو لي أنه مازال أمامك أن تتعلم كل الأمور التي تحدث فطريًا لبقية الناس، حتى الاستمتاع بالأكل. أنصت إذن، يا صغيري، يجب أن أبلغك أن هذا احتفال البط، وعندما تزيل اللحم الغض عن العظم، فهذه متعة ما بعدها متعة، وعليك أن تكون توّاقًا وسعيدًا من أعماق قلبك ومبتهجًا كعاشق يساعد حبيبته على خلع سترتها للمرة الأولى. ألا تفهم هذا؟ أوه، يا لك من غشيم! أمستعد أنت؟ سأعطيك قطعة أزيلها عن العظمة. فافتح فمك. أوه، ما أصعب العمل معك! ها هو ينقّل نظره في أرجاء المكان خشية أن يراه أحدهم وهو يتناول لقمة من شوكتي. لا تخف، أيها الابن المبذّر، لن أسبّب لك فضيحة. إن من لا يستطيع أن ينال نصيبه من المتعة إلا بعد أن يحصل على الإذن من بقية الناس لهو إنسان مسكين».

أخذ المشهد الذي كان قد جرى قبلاً يغدو لا واقعيًا أكثر فأكثر. وأخذت قدرتي تقلّ باضطراد على تصديق أن هاتين العينين هما العينان نفسهما اللتان كانتا قبل هنيهات قليلة مجمدتين داخل هاجس مرعب. أما الآن فأصبحت هرمينه مثل الحياة ذاتها، اللحظة تتلو الأخرى ولا يمكن التكهن المسبق بأي منها. الآن هي تأكل، والبطة والسلطة والكعكة والمشروب هي الأشياء المهمة، وكلما تغيرت ألوان الطعام بدأ فصل جديد. ولكن على الرغم من عبثها في تمثيل دور الطفلة فإنها كانت تعرف ما في مخيلتي معرفة تامة، وعلى الرغم من أنها جعلت مني من فورها تلميذًا لها في لعبة العيش في كل لحظة عابرة، فإنها بدت تعرف عن الحياة أكثر مما يعرفه أحكم الحكماء. فقد تكون أرقى حكمة أو أحط جهالة. ومن المؤكد على أي حال أن الحياة تقف عاجزة تمامًا أمام موهبة العيش بشكل كامل في الحاضر،

وموهبة الحرص الجميل المتلهف على كل زهرة تنبت على جانب الطريق والنور الذي يعزف على كل لحظة عابرة. فهل كان متوقعًا مني أن أصدّق أن هذه الطفلة السعيدة بشهيتها المفتوحة وما يبدو من خبرتها في اختيار الأطعمة والمشروبات هي في الوقت نفسه ضحية رؤى هستيرية وترغب في الموت؟ أم هي امرأة تقدّر الأمور بتدبُّر، باردة المشاعر، وتنوي متعمّدة أن تجعل مني عشيقها وعبدها؟ لم أستطع أن أصدق هذا. لا، إن استسلامها للّحظة الحاضرة في غاية البساطة والكمال.

على الرغم من أني لم أقابل هرمينه للمرة الثانية إلا في ذلك اليوم، إلا أنها كانت تعرف كل شيء عني، وبدا لي أني عاجز تمامًا عن إخفاء أي سر عنها. لعلها لا تدرك كل شيء عن حياتي الروحية، لعلها لا تشاركني في صلتي بالموسيقى أو بغوته أو بنوفاليس أو ببودلير. هذا أيضًا كان عرضة للتساؤل. لعله كبقية الأشياء لا يشكل أي مشكلة لها. وعلى أية حال، ماذا تبقّى من حياتي الروحية؟ ألم يتبدد كل هذا وفقد معناه؟ أما عن الباقي، عن مشاكلي واهتماماتي الأكثر خصوصية، فلا شك عندي في أنها ستفهمها جميعًا. وقريبًا جدّا سأتحدث معها عن ذئب البراري، وعن الأطروحة وعن كل الأمور الأخرى، على الرغم من أنه حتى ذلك الحين لم يكن موجودًا إلا بالنسبة إليّ وحدي ولم أذكره قط لأي كائن حي. والحق، إني لم أقو على مقاومة إغراء البدء على الفور.

قلت: «هرمينه، لقد حدث أمر خارق لي قبل أيام. لقد أعطاني رجل مجهول كتيبًا، من النوع الذي يباع في المعارض، وقد عثرت داخله على قصة حياتي كاملة، وكل شيء عني. أمر مذهل، ألا تظنين؟».

سألتني بخفّة: «وما هو عنوانه؟».

«أطروحة حول ذئب البراري»!.

«أوه، عبارة «ذئب البراري» رائعة! وأنت ذئب البراري؟ أهذا ما تقصد؟».

«نعم، أنا كذلك. أنا أحد أولئك الذين نصفهم ذئب ونصفهم بشر، أو على الأقل هذا ما أظنني».

لم تعط جوابًا. ووجّهت نحوي عينين ثاقبتين، ثم نظرت إلى يديَّ، وتلبَّس وجهَها برهة تعبيرٌ عميق الجدية ومشؤوم الانفعال كالذي كان عليه قبل بضع دقائق. وشعرت مخمِّنًا أفكارها أنها كانت تتساءل إن كنت ذئبًا إلى حد يمنعني من تنفيذ آخر أوامرها.

قالت وقد استعادت صفاءها: «وهذه، طبعًا، فكرة من بنات خيالك، أو هي فكرة شعرية، إذا شئت. ولكنْ فيها شيء متميز. أنت لست ذئبًا اليوم، ولكن في ذاك اليوم عندما دخلت وكأنك هابط من القمر كان فيك شيء بهيمي حقًّا. وكان ذاك بالذات ما لفت نظري عندئذ».

سكتت فجأة وكأن فكرة مفاجئة أدهشتها.

«ما أسخف كلمات مثل حيوان وحيوان مفترس. لا يجدر التحدث عن الحيوانات بهذا الأسلوب. قد تكون فظيعة أحيانًا، لكنها على صواب أكثر من الإنسان بكثير».

«ماذا تقصدين بـ «على صواب»؟».

«حسن، انظر إلى حيوان ما، إلى قطة أو كلب أو طائر أو إلى أحد الحيوانات الجميلة الضخمة الموجودة في حديقة الحيوان، إلى أسد الكوغر أو الزرافة. إن الناظر لا يسعه إلا أن يرى أنها على صواب. إنها لا تصاب بأي حرج. ودائمًا تعرف ماذا تفعل، وكيف تحسن التصرف. وهي لا ترغب في أن تلفت انتباهك. ولا تمثّل. إنها طبيعية، كالحجارة أو الزهور أو النجوم المنتشرة في السماء، ألا توافقني؟».

وافقتها.

تابعت قائلة: «إن الحيوانات في العادة حزينة. وعندما يكون إنسان ما حزينًا، لا أقصد هنا لأنه يعاني من ألم في ضرسه أو لأنه خسر بعض المال، وإنما لأنه، أحيانًا، يرى أحوال الحياة وتقلباتها، فيصاب بالحزن والاكتئاب – فإنه دائمًا يصبح شبيها نوعا ما بالحيوان. وعندئذ لا يبدو فقط حزينًا، بل أشد صوابًا وجمالاً من المعتاد. هذا هو واقع الحال، وهكذا بدوت، يا ذئب البراري، عندما وقع بصري عليك للمرة الأولى».

«حسن، يا هرمينه، ما رأيك في هذا الكتاب بما يحتويه من وصفٍ لي؟».

«أوه، لا أستطيع أن أمارس التفكير طوال الوقت. سوف نتحدث في الأمر لاحقًا. يمكنك أن تعطينيه لأقرأه ذات يوم. أوه، لا، إذا كان لا بد أن أعود إلى القراءة، فاعطني أحد الكتب التي ألّفتها بنفسك».

طلبت قهوة وبدت شاردة وذاهلة بعض الوقت. ثم فجأة أشرقت وكأنها عثرت على حل لتأملاتها.

هتفت، مبتهجة: «هاللر، وجدتها !».

«وجدت ماذا؟».

«الفوكس – تروت. كنت أفكر فيها طوال الأمسية. الآن قل لي، هل لديك غرفة نستطيع أحياناً أن نرقص فيها نحن الاثنين معًا؟ لا يهم إذا كانت صغيرة، ولكن يجب أن لا يكون هناك أحد في الطابق السفلي لكي لا يصعد ويثور علينا إذا ما اهتز السقف قليلاً. حسن، رائع، يمكنك أن تتعلم الرقص في بيتك».

قلت مفزوعًا: «نعم، هذا أفضل بكثير، ولكن أعتقد أنه يلزمنا موسيقى».

«طبعًا يلزمنا. يجب أن نبتاع شيئًا منها. وهي لن تكلفنا قدر

ما تكلف مجموعة من الدروس. سوف توفر ثمن هذه الدروس لأني سأعطيها لك بنفسي. وبهذه الطريقة نحصل على الموسيقى عندما نشاء وفي النهاية نحضر أيضًا غرامافونًا».

«طبعًا. يمكنك أن تشتري واحدًا صغيرًا وبضع أسطوانات مع الموسيقى الراقصة».

هتفتُ: «رائع. وإذا نجحت في تعليمي الرقص، سيصبح الغرامافون ملكك الخاص كمكافأة على جهودك. اتفقنا؟».

نفّذتُ الأمر بحذافره، ولكن دون حماس. لم أستطع أن أتصور وجود الجهاز البغيض في غرفة مكتبي بين كتبي، ولم أكن أيضًا منسجما مع فكرة الرقص. وقلت في نفسي: فلأجرب الأمر بعض الوقت مع أني كنت مقتنعًا بأني عجوز، وأبعد ما يكون عن المرونة، ولن أتعلم قط. وبدا لي الانكباب على الأمر برمته بقوة وحماس كما اقترحتْ إجراءً مفاجئًا جدّا ومتصلبًا. وبوصفي خبيرًا قديمًا في الموسيقى، فقد شعرت بنفوري يزداد من الغرامافون، ومن اقتحام موسيقى الجاز والموسيقى الراقصة التي تمثل آخر صرعات تحرر أميركا معتزلي حيث ألتجئ مع نوفاليس وجان بول وأضطر إلى أن أرقص لهما. ولكن مَنْ طلب مني هذا ليس شخصًا عاديًا. إنه هرمينه، ولها أن تأمر، وعليَّ أن أمتثل، وطبعًا امتثلت.

تقابلنا في مقهى بعد ظهر اليوم التالي. كانت هرمينه قد وصلت قبلي، وكانت تشرب شايًا، أشارت وهي تبتسم إلى اسمي الذي عثرت عليه مكتوبًا في إحدى الصحف الشوفينية الرجعية التي تصدر في منطقتي، والتي كانت تروِّج فيها، من وقت إلى آخر، إشارات مهينة جدّا موجهة ضدي. فأثناء احتدام الحرب كنت أناهضها، وبعد انتهائها قاومت الشوفينية القومية التي كان صوتها يعلو في كل يوم

أكثر غلوّا وجنونًا وانغلاقًا. إذن، ها هنا كان هجوم آخر من هذا النوع، كُتِبَ بشكل رديء، هو من ناحيةٍ موجَّه من الناشر نفسه، ومن ناحيةٍ أخرى مسروق من مقالات من النوع نفسه وردت في صحف لها توجهاته نفسها. ومن المعروف أنه لا أحد يتفوق على أولئك المدافعين عن الأفكار البالية في سوء الكتابة. ولا أحد يبزّه في قلة الكياسة والحرص الذي يمليه عليه الضمير في الترويج لبضاعته. وكانت هرمينه قد قرأت المقالة، وفهمت منها أن هاري هاللر هو حشرة مؤذية ورجل يتبرأ من أرض وطنه، وأنه من البديهي أنْ لا خير يرجى لهذا البلد مادام يتم التسامح مع مثل هؤلاء الأشخاص ومثل هذه الأفكار ومادامت عقول الشبان تتحول إلى الأفكار الإنسانية العاطفية بدل أن تتوجه إلى الانتقام بقوة السلاح من العدو التقليدي.

سألتني هرمينه، مشيرة إلى اسمي: «أهذا أنت؟ يبدو أنك نجحت في تكوين بعض الأعداء لك. ألا يزعجك هذا؟».

قلت: «لا، لا يزعجني. لقد اعتدت عليه منذ زمن بعيد. كنت في أوقات متفرقة قد عمدتُ إلى القول إنه يجدّ بكل أمة، بل وكل إنسان، بدل أن يهدهد نفسه وينام في أحضان الشعارات السياسية لتورية الشعور بالذنب تجاه الحرب، أن يتساءل إلى أي حد تساهم أخطاؤه وإهماله وتوجهاته الشريرة في ارتكاب ذنب اندلاع الحرب وكافة بلايا العالم الأخرى، وأنه في هذا تكمن الوسيلة الوحيدة الممكنة لتجنب اندلاع الحرب التالية. وهم لا يسامحونني على ذلك، لأنهم هم أنفسهم، طبعًا، القيصر والجنرالات وأقطاب التجارة والسياسيون والصحف، أبرياء كل البراءة. وليس لدى أي منهم ما يمكن أن يلوم نفسه عليه. لا أحد منهم مذنب في أي شيء. ويكاد يصدّق المرء أن كل شيء على أحسن ما يرام، على الرغم من وجود بضعة ملايين من

الرجال مطمورين تحت التراب.

وألفتُ انتباهكِ، يا هرمينه، إلى أنه وإنْ لم تعد مثل هذه المقالات التعسفية قادرة على إزعاجي، إلا أنها مع ذلك كثيرًا ما تحزنني. إن ثلثي أبناء بلدي الذين يقرؤون هذا النوع من الصحف، ويقرؤون أشياء مكتوبة بهذه النبرة في كل صباح وكل مساء، يتعرضون في كل يوم لإثارة المشاعر، وللترهيب والترغيب، وتُسرق منهم راحة بالهم وأفضل ما لديهم من مشاعر، والهدف النهائي من كل ذلك ومغزاه هو إشعال نار الحرب من جديد، الحرب التالية التي لا تني تقترب باضطراد، وسوف يكون رعبها أشد وطأة من الحرب الأخيرة. كل هذا واضح تمامًا وبسيط. إن أي إنسانٍ في مقدوره أن يفهمه، ويتوصل إلى النتيجة نفسها، بعد برهة تفكّر. ولكن لا أحد يرغب في ذلك. لا أحد يريد أن يتجنب الحرب التالية، لا أحد يرغب في أن يوفر على نفسه هنيهة ويسأل عن دوره في فوضى العالم وضعفه. ومع ذلك، لا شيءٍ يوقفها، إن الحرب التالية تُستَحث بكل حماسة على يد الآلاف المؤلَّفة ويومًا بعد يوم. ومنذ أدركت هذا وأنا مشلول، وصلت إلى حافة اليأس. لم يبق لدي وطن ولا مُثُل عليا، فهي لا تعني أكثر من زخارف أخرى للسادة المقبلين على المذبحة التالية. لا معنى للتفكير أو لقول أي شيء له منحى إنساني أو لكتابته، أو لإزعاج الرأس بأفكار خيِّرة، لأن مقابل كل اثنين يفعلان ذلك، هناك آلاف من الصحف والدوريات والخطب واللقاءات العلنية والسرية التي تجعل من نقيضه مسعاها اليومي، وتنجح فيه أيضًا».

كانت هرمينه قد أنصتت إلى ذلك بانتباه.

الآن قد جاء دورها لتقول: «نعم، معك حق تمامًا في هذه النقطة، لا شك في أن حربًا أخرى قادمة. ولا حاجة إلى قراءة الصحف لمعرفة

هذا. ولا شك في أنه يمكن أن يسبب الحزن، لكن ذلك لا يفيد. إنه الوضع نفسه عندما يحزن الإنسان لدى تفكيره في أنه سيموت لا محالة ذات يوم، على رغم كل الجهود التي يبذلها لمنع ذلك. إن الحرب على الموت، يا عزيزي هاري، دائمًا شيء جميل ونبيل ورائع وعظيم، وكذلك، تاليًا، الحرب على الحرب. إلا أنها أيضًا ودائمًا حرب يائسة ودونكيخوتيه».

هتفتُ بإخلاص: «لعل هذا صحيح، ولكن حقائق كهذه، أي القول إننا جميعًا سنموت عاجلاً لذا فالأمر سيان، تجعل الحياة برمتها تافهة وحمقاء. فهل علينا أن نتخلى عن كل شيء وننكر الروح كلها وكل الجهود المبذولة وكل ما هو إنساني، ونترك المجال للطموح السياسي وللمال أن يسود إلى الأبد. بينما نجلس نحن ننتظر إيقاف إطلاق النار التالي ونحن نشرب كأسا من البيرة؟».

رائعة هي النظرة التي رمتني بها هرمينه عندئذ، نظرة ملؤها السرور والسخرية واللؤم والفهم والاتفاق معي، وكانت في الوقت نفسه نظرة غاية في الرصانة والحكمة والجدية المبهمة.

قالت بصوت عطوف تمامًا: «لن تفعل هذا، وحياتك لن تكون تافهة وراكدة حتى مع علمك أن حربك لن يُكتب لها النصر. إن الأشد تفاهة بكثير، يا هاري، أن تحارب لنصرة الخير والمثل الأعلى وأن تعرف طوال الوقت أنك ستبلغهما حتمًا. فهل يمكن بلوغ المثل الأعلى؟ هل نعيش لكي نمحو الموت؟ لا، نحن نعيش لكي نخشاه وأيضًا لكي نحبه، وفقط إكرامًا للموت يتوهج فينا قبس الحياة ويسطع ساعة من الزمن بين حين وآخر. ما أنت إلا طفل يا هاري. والآن افعل ما أمرتك به وهيا. أمامنا الكثير من العمل لنقوم به هذا اليوم. لا نيَّة لديّ لأستزيد من إزعاج نفسي اليوم حول الحرب أو حتى الصحف. وأنت؟».

أوه، لا، لم تكن لدي رغبة.

غادرنا معًا، كانت تلك أول مرة نسير فيها معًا في البلدة إلى محل بيع الموسيقى وتفرجنا على أجهزة الغرامافون. قلَّبناها وأنصتنا إلى طريقة عملها، وعندما وجدنا ما اعتبرناه مناسبًا وجميلاً ورخيصًا، أبديت رغبتي في شرائه. لكن هرمينه لم تكن تحبِّذ عقد مثل تلك الصفقات السريعة. فجرّتني إلى الخلف وكان علي أن أنطلق معها سعيًا وراء محل آخر حيث هناك، أيضًا، تفرجنا وأنصتنا إلى أجهزة غرامافون من كل شكل وحجم، من الأغلى ثمنًا إلى الأرخص، قبل أن نتفق أخيرا على أن نعود إلى المحل الأول ونشتري الجهاز الذي فكّرنا فيه أول الأمر.

قلت: «أعتقد أنه كان من الأبسط لو أننا أشتريناه فورًا».

«أتظن؟ وعندئذ كنا ربما رأينا غدًا الجهاز نفسه في واجهة أحد المحلات بسعر يقل بمقدار عشرين فرنكًا. ثم إن القيام بالشراء عمل ممتع والأمر الممتع يجب أن يطول أمده. لايزال أمامك الكثير لتتعلمه».

لجأنا إلى حمَّال لنقل المشتريات إلى المنزل.

قامت هرمينه. بمعاينة غرفتي بعناية. فأثنت على المدفأة والصوفا، وجربت الكراسي، والتقطت بعض الكتب، وتوقفت مطولاً أمام صورة إريكا الفوتوغرافية، وكنا قد وضعنا الغرامافون على دولاب ذي أدراج بين أكوام من الكتب. ومن ثم بدأ تعليمي. أدارت هرمينه موسيقى رقصة الفوكس – تروت، وبعد أن بيَّنت لي الخطوات الأولى، بدأت تقودني من يدي. ورحت أتبع الخطوات معها راضخًا، مرتطمًا بالكراسي، مستمعًا إلى تعليماتها دون أن أتوصل إلى فهمها، وأطأ على أصابع قدميها، وأتصرف بطريقة خرقاء وإن كنت أبذل أقصى جهدي. وبعد انتهاء الرقصة الثانية ارتمت على الصوفا

وكانت تضحك كطفلة.

«أوه! ما أشد جمودك! فقط انطلق وكأنك تسير. لا حاجة إلى أن تجهد نفسك. أعتقد أنك اهتجت كثيرًا، أليس كذلك؟ لا، فلنرتح خمس دقائق! ألا ترى أن الرقص سهل تمامًا كالتفكير، عندما تتعلمه، بل إنه أسهل بكثير في تعلمه. ها أنت الآن قد بتَّ تفهم لماذا يرفض الناس أن يعتادوا على التفكير ويفضلون أن ينعتوا هاري هاللر بالخائن لبلده، وينتظروا بهدوء مجيء الحرب التالية».

رحلت بعد مضي ساعة، وهي تؤكد لي أن الأمر سيتحسن في المرة التالية. كنت أختلف معها في هذه النقطة، فقد أصبت بخيبة أمل كبيرة لحماقتي وخراقتي. ولم أر أني قد تعلَّمت أي شيء مهما كان، ولم أصدق أن الوضع سيتحسن في المرة القادمة. لا، يجب توفّر صفات معينة للتمكن من الرقص، وهي ما أفتقدها أنا، كالمرح والبراءة والطيش والمرونة. في الواقع هذا ما ظننته دائمًا.

مع ذلك، في المرة التي تلت تحسن الوضع فعلاً. بل إنّني قد تسليت. وفي نهاية الدرس أعلنت هرمينه أني الآن قد أصبحت بارعًا في رقصة الفوكس - تروت. ولكن عندما أردفت قائلة، إن علي أن أراقصها في اليوم التالي في أحد المطاعم، أصبت بالذعر، ورفضت الفكرة بعنف. فذكرتني بهدوء بقسمي في أن أطيع، ورتّبت لقاءً لتناول الشاي في اليوم التالي في فندق بالانسس.

في أمسية ذاك اليوم جلست في غرفتي وحاولت أن أقرأ، لكني فشلت. كنت مملوءً بالخوف من الغد. لقد كانت فكرة رهيبة جدّا أن أرتاد أنا، الكهل، الحييّ، الحساس، النزق، إحدى صحارى الجاز العصرية، إلى[1] The dansant والفكرة الأكثر رهبة بكثير كانت أن

(1) حفلة شاي راقصة. (المترجم).

أتصور أني هناك راقصًا، مع أني لم أكن أعرف شيئًا عن الرقص. وأعترف بأني ضحكت من نفسي، وشعرت بالخجل منها عندما أدرت الجهاز، وأنا وحدي في غرفتي الهادئة المخصصة للدراسة، ورحت أؤدي خطوات رقصتي بخفة وبقدمين ترتديان جوربين.

كانت هناك فرقة موسيقية صغيرة تعزف كل يومين في فندق بالانسس حيث يُقدَّم الشاي والويسكي. وقمت بمحاولة رشوة هرمينه، فوضعت الكمك أمامها واقترحت طلب زجاجة من النبيذ الجيد، لكنها لم تلن.

«أنت لست موجودًا هنا اليوم للتسلي. إنه درس الرقص».

اضطررت إلى الرقص معها مرتين أو ثلاثًا، وخلال فترة من الراحة قدَّمتني إلى عازف ساكسفون، وهو شاب أسمر وسيم من أصل إسباني أو جنوب أميركي، يُحسن، كما قالت، العزف على كل الآلات الموسيقية ويتحدث بكل لغات العالم. وقد اتضح أن هذا السنيور على معرفة تامة بهرمينه، وعلى علاقة متينة بها. وكان يضع أمامه آلتيْ ساكسفون بحجمين مختلفين يعزف عليهما بالتناوب، بينما تتفحص عيناه السوداوان اللامعتان الراقصين وهو مشرق سرورا. ودهشت إذ وجدتني أشعر بما يشبه الغيرة من هذا الموسيقي اللطيف والفاتن، ليس غيرة عاشق، إذ كان من المستبعد تمامًا وجود أي علاقة حب بين هرمينه وبيني، وإنما غيرة أرهف من صداقتهما، فقد اعتبرت أنه لا يستحق كل ذاك الاهتمام، وحتى التوقير اللذين كانت تخصّه بهما بوضوح. وقلت في نفسي غاضبًا، يبدو أني سأقابل بعض الأشخاص غريبي الأطوار. ثم جاء من يطلب هرمينه إلى الرقص. وبقيت وحدي أشرب الشاي وأنصت إلى الموسيقى، موسيقى من النوع الذي لم أعرف قط حتى ذلك اليوم كيف أتحمله. وقلت في نفسي، يا إلهي،

الآن سيتم إدخالي لأتآلف مع هذا العالم المؤلف من الباحثين عن المتعة، عالم غريب تمامًا عني، وأكنّ له كل البغض، وكنت دائمًا حتى هذا اليوم أحرص على تجنبه، وأمقته كل المقت، عالم مخملي مقولب من طاولات رخامية السطح وموسيقى جاز ومومسات وباعة جوالين ! ورحت وأنا حزين أبتلع الشاي وأحدّق في الحشد ذي الأناقة المزرية. وقابلت ناظريّ فتاتان جميلتان، كلتاهما تجيد الرقص. ورحت أتابع تنقلاتهما بإعجاب وحسد. يا لخطواتهما الواثقة، المرحة، الجميلة والمرنة !.

سرعان ما عادت هرمينه إلى الظهور. لم تكن راضية عني. فعنّفتني وقالت إنني لست موجودًا هناك لكي أتلبَّس تلك السحنة وأجلس متكاسلاً إلى طاولة الشاي. فتمالك نفسك، من فضلك، وهيا إلى الرقص. ماذا، ألا أعرفُ أحدًا؟ لا يهم. ألا توجد، إذن، أي فتاة تلاقي قبولاً لدي؟

أشرت إلى إحدى الفتاتين، والأكثر جاذبية، وتصادف أن كانت في تلك الأثناء واقفة بالقرب منا. بدت فاتنة بثوبها المخملي الجميل وشعرها الأشقر الغزير والقصير وذراعيها الأنثويين المستديرين، وأصرت هرمينه على أن أتقدم منها وأطلب مراقصتها. فانكمشت يأسًا.

قلت بنبرة بؤس: «حقًا لا أستطيع. طبعًا كنت فعلتُ لو أني شاب ووسيم، أما عجوز أحمق متيبس مثلي لا يستطيع أن يرقص حتى مقابل حياته، سوف تضحك مني !».

رمتني هرمينه بنظرة احتقار.

«أما أن أضحك أنا منك فلا يهم، طبعًا، أي جبان أنت ! إن كل إنسان يجازف بأن يكون عرضة للضحك منه عندما يخاطب فتاة،

هذا الأمر دائمًا يتسم بالمجازفة. جازف إذن يا هاري، فإذا وقع الأسوأ تقبَّل أن تتعرض للضحك منك إلى آخر مدى. وإلا فقل السلام على تصديقي لطاعتك...».

كانت فظة. فنهضت واقفًا بحركة آلية وتقدمت من الشابة الجميلة حالما بدأت الموسيقى تصدح من جديد.

قالت، وهي تقيّمني بنظرات من عينيها الصافيتين: «في الحقيقة، أنا مرتبطة مع أحدهم لهذه الرقصة، ولكن بما أنه يبدو أن شريكي منهمك في الشرب على البار هناك، فتعال».

أحطتها بذراعي وأدينا الخطوات الأولى، وأنا لا أزال مذهولاً لأنها لم تصرفني. وسرعان ما قدَّرتُ وضعي وتولَّت هي القيادة. كانت ترقص بشكل رائع، وانسجمتُ مع إيقاع خطواتها. ونسيت في ذلك الحين كل القواعد التي كنت قد تعلمتها بصبر، ورحت أنساب ببساطة. وأحسست بوركي شريكتي المشدودين وبركبتيها المطواعتين وسريعتي الحركة، وبعد أن تأملت وجهها الغض المتورّد اعترفت لها بأنني أرقص لأوّل مرة في حياتي رقصة حقيقية. فابتسمتْ مشجِّعة، وأجابت على تحديقي المفتون وكلماتي المطرية بمطاوعة رائعة، ليس بالكلمات، وإنما بالحركات التي زادت فتنتها الرقيقة من تواصلنا وبشكل مبهج. أمسكت يدي اليمنى رسغها بقوة وتبعت كل حركة قامت بها قدماها وذراعاها وكتفاها بسعادة متلهفة. وما أدهشني أنني لم أدس، ولا مرة واحدة على قدميها، وعندما سكتت الموسيقى، ظل كلانا واقفًا حيث كنا ورحنا نصفق إلى أن بدأ عزف الرقصة نفسها من جديد، وعندئذ، وبكل حماس العاشق رحت أؤدي بقداسة الطقس نفسه مرة أخرى.

بعد أن انتهت الرقصة بسرعة كبيرة، اختفت شريكتي الجميلة،

ذات الثوب المخملي، وإذا بي فجأة أرى هرمينه واقفة بالقرب مني، لقد كانت تراقبنا.

ضحكت وقالت مستحسنة: «والآن، أرأيت؟ هل اكتشفت أن سيقان النساء ليست قوائم طاولات؟ حسن، برافو! ها أنت قد صرت تحسن رقص الفوكس – تروت، فشكرًا لله. غدًا سننتقل إلى رقصة بوسطن، وفي غضون ثلاثة أسابيع ستقام حفلة تنكرية في الغلوب رومز».

كنا قد اتخذنا مجلسنا خلال الاستراحة عندما جاء الشاب الفاتن هر بابلو وجلس بجانب هرمينه، بعد أن أومأ بحركة ودية. وبدا على علاقة حميمة معها. أما أنا، يجب أن أعترف بأني لم أسرّ بأي حال من الأحوال بوجود السيد أثناء تلك المقابلة. لقد كان وسيمًا، لا أنكر، في الوجه والشكل العام، لكني لم أستطع أن أكتشف فيه أي مميزات أخرى. حتى إنجازاته اللغوية لم يكن لديه الكثير منها إلى درجة أنه، في الحقيقة، لم يكن يتفوه إلا بكلمات مثل أرجوك، وشكرًا، في الواقع، وبالأحرى ومرحبًا. وكان دون شك يتقنها بلغات شتى. لا، لم يقل شيئًا هذا السنيور بابلو، ولا بد أنه يفكر كثيرًا، هذا الكابيليرو[1] الساحر. إن عمله هو أن يعزف على الساكسفون في فرقة جاز، وقد بدا أنه يكرس نفسه لهذا العمل بكل الحب والاندفاع. وكان أثناء عزف الموسيقى كثيرًا ما يصفق بيديه فجأة، أو يسمح لنفسه بأن يعبر بأساليب أخرى عن الحماس، كأن يغني بصوت عال قائلاً: «أوه، أوه، أوه، ها، ها، هاللر». إلا أنه خلافًا لهذا كان يقتصر على كونه وسيمًا، يسلي النساء، أو أن يضع ياقات وربطات عنق من آخر الصرعات ويلبس عددًا كبيرًا من الخواتم في أصابعه. وكان أسلوبه في تسليتنا يتألف من الجلوس إلى جانبنا، والابتسام لنا، والنظر إلى ساعة يده،

(1) سيد إسباني. (المترجم).

ولفّ السجائر، وكان خبيرًا بها.

ولم تكن عينا الكريولي[1] الجميلتان والسوداوان وخصلات شعره السوداء تخفي أي أحاسيس أو مشاكل أو أفكار. وعند تدقيق النظر فيه، لا يبدو شِبْهُ إله الحب هذا، الأجنبي والوسيم أكثر من شاب راضٍ عن نفسه بل ومدلّل وصاحب سلوك سائغ. تحدثتُ معه عن آلته الموسيقية، وعن التلوين اللحني في موسيقى الجاز، ولا بد أنه وجد نفسه في مواجهة شخص له أذنٌ خبيرة بكل ما يتعلق بالموسيقى. لكنه لم يبد أي استجابة. وبينما شرعت، إطراء له، أو بالأحرى، لهرمينه، في تبرير موسيقى الجاز على طريقة الموسيقي العارف، اكتفى هو بالابتسام لي ولجهودي المبذولة بودّ. ربما لم تكن لديه أدنى فكرة عن وجود أي موسيقى أخرى غير موسيقى الجاز أو عما إذا كان هناك أي موسيقى قبلها. ولا شك في أنه كان شخصًا حلو المعشر، ومهذبًا، عيناه الكبيرتان الخاويتان كانتا تبتسمان بسحر ضاف. ولكن لا قاسم مشترك بادٍ بيننا. ربما لم يكن أي شيء مما كان يعتبره مهمًا ومقدّسًا هو كذلك بالنسبة إليَّ. كنا ننحدر من عالمين يقفان على طرفي نقيض، ونتحدث بلغتين لا تمتّ كلمتان فيهما بأي صلة قربى للأخرى. (إلا أن هرمينه أخبرتني، لاحقًا، بشيء مذهل، قالت لي إن بابلو، بعد حديث دار عني، قد قال إن عليها أن تعاملني برقة شديدة، لأنني إنسان تعيس جدًا. وعندما سألته عما دعاه إلى الخروج بهذه النتيجة، قال: «إنسان مسكين، مسكين. انظري إلى عينيه. إنه لا يعرف كيف يضحك»).

بعد أن استأذن الشاب ذو العينين السوداوين بالانصراف، وعادت الموسيقى تصدح من جديد، نهضت هرمينه واقفة: «الآن في وسعك أن تشاركني رقصة أخرى أم أنّك لم تعد ترغب في الرقص؟».

---

(1) الكريولي: هو الشخص الذي تمتزج في عروقه دماء أوروبية وزنجية. (المترجم).

الآن بتّ أرقص معها أيضًا بسهولة أكبر وبطريقة متحرّرة وحيوية أكثر، وإن ليس أكثر مرحًا أو خجلاً مما فعلت مع الأخرى. كانت هرمينه تترك لي قيادة الأمر، وتتكيف بيسر وخفة كبتلة زهرة، ومعها أيضًا بتّ أتعرف على كل تلك المباهج التي كانت تارة تقترب وطورًا تفر مبتعدة. هي أيضًا كانت تنشر عطر المرأة والحب، ورقصها كذلك كان يغني بحنان حميم أغنية الجنس الجميلة والفاتنة. ومع ذلك، لم أستطع أن أستجيب لكل هذا بدفء وحرية.ل م أستطع أن أنسى نفسي تمامًا وأستسلم. لقد كانت علاقة هرمينه بي حميمة بشدة. كانت رفيقتي وأختي، كادت تكون قريني في شبهها ليس فقط بي، وإنما بهرمن، صديق صِبايا، المتحمّس، الشاعر، الذي كان يشاركني بحرارة متقدة كل مساعيَّ العقلية وأفكاري المتطرفة.

قالت عندما تحدثت عن هذا: «أعرف، أعرف كل هذا معرفة جيدة. ومع ذلك، سوف أجعلك تعشقني، ولكن لا داعي للعجلة. فنحن أولاً، وقبل أي شيء رفيقان، اثنان يأملان في أن يصبحا صديقين، لأن كلاً منا أقرَّ بوجود الآخر. وفي الوقت الحاضر سيتعلم كل منا من الآخر، وسنتسلى معًا. أنا أريك مسرحي الصغير، وأعلّمك كيف ترقص وتنال قدرًا من المتعة وتتصرف بحماقة، وأنت تكشف لي عن أفكارك وطرفًا من كل ما تعرف».

«أخشى أن لا شيء عندي أكشف عنه، يا هرمينه. وما تعرفينه يفوق ما أعرفه بكثير. أنت أروع شخص عرفته، أروع امرأة. ولكن هل أعني لك أي شيء؟ ألا أثير فيك الملل؟».

سدّدتْ نظرة مكفهرة إلى الأرض.

«هذا ما لا أحب أن أسمعه منك. فكر في تلك الأمسية حين أتيت وأنت محطم يأسًا ووحشة لتلتقي بي وتغدو رفيقي. لماذا، في رأيك،

تفهّمتك وفهمتك؟».

«لماذا، يا هرمينه؟ قولي لي!».

«لأنني من حالك وأنا وحيدة مثلك تمامًا، ولأني كارهة للحياة والناس ولنفسي مثلك، ولا قدرة لي على احتمالهم. ثمت دائمًا ثلة من مثل هؤلاء الذين يطلبون ذروة الحياة، ومع ذلك يعجزون عن أن يتفهموا حماقتها وفظاظتها».

هتفت بذهول عميق: «رائعة، رائعة! إنني أفهمك، يا رفيقتي. لا أحد يفهمك أفضل مني. ومع ذلك فأنتِ لغز. أنت ضليعة خبيرة بالحياة. إنك تكنّين تبجيلاً رائعًا لدقائقها ومتعها. أنت فنانة عظيمة في الحياة. كيف يمكنك أن تعاني وأنت بين يدي الحياة؟ كيف لليأس أن ينالك؟».

«أنا لا أيأس. أما بالنسبة إلى المعاناة، أوه، نعم، إنني أعرف كل شيء عنها! إنك مندهش لأني تعيسة في حين أني أرقص وأبدو شديدة الثقة بنفسي فيما يتعلق بأمور الحياة السطحية. وأنا، يا صديقي، مندهشة، لأن الحياة تصيبك بالخيبة في حين أنك تتآلف مع أعمق الأشياء وأجملها، مع الروح والفن والفكر! لهذا ترانا تجاذبنا ونشعر بالتآخي. سوف أعلّمك كيف ترقص وتلعب وتبتسم، وتبقى مع ذلك تعيسًا. وأنت ستعلمني أن أفكر وأكتسب المعرفة وأن أبقى مع ذلك تعيسة. أتعلم أننا من أطفال الشيطان؟».

«نعم، نحن كذلك. الشيطان هو الروح، ونحن طفلاه التعيسان. لقد سقطنا في أحضان الطبيعة وظللنا معلقين في الفضاء. وهذا يذكرني بشيء. في أطروحة ذئب البراري، التي أخبرتك عنها، ثمت شيء يفيد بأنه يتخيل أن له روحًا واحدة فقط، أو روحين، وأنه مؤلّف من شخص واحد أو شخصين. وتقول إن كل كائن بشري يتكون من

عشرة أرواح أو ألف أو آلاف الأرواح».

هتفت هرمينه: «هذا الكلام يعجبني كثيرًا. ففي حالتك، مثلاً، الجانب الروحي منك متطور تطورًا عاليًا جدًا، وهكذا فأنت مختلف في كل مهارات العيش الصغيرة. إن هاري، المفكر، عمره مئة عام، أما هاري، الراقص، فلا يكاد عمره يبلغ نصف يوم. وهو مَنْ نرغب في إخراجه إلى حيز الوجود، وكل إخوته الصغار الذين هم صغار وحمقى ومقرَّبون مثله تمامًا».

رمقتني، وهي تبتسم، ثم سألتْ برقة وبصوت مغاير:

«وكيف وجدت ماريا؟».

«ماريا؟ من هي؟».

«الفتاة التي رقصت معها. إنها فتاة لطيفة، لطيفة جدًا. لقد كنت متيّمًا بها قليلاً، كما لاحظت».

«تعرفينها، إذن؟».

«أوه، نعم، كل منا تعرف الأخرى جيدا. أكنت إذن مولعًا بها كثيرًا؟».

«لقد أعجبتني كثيرًا، وأسعدني أن تنهمك في تعليمي الرقص».

«هل هذا كل ما في الأمر! يجب أن تضاجعها قليلاً يا هاري. إنها فائقة الجمال وراقصة ماهرة، وأنت تحبها فعلاً، أنا متأكدة، سوف تنجح في مسعاك معها، أنا واثقة».

«صدقيني، ليس هذا مطُمحي».

«هنا أنت تكذب قليلاً. طبعًا أنا أعرف أنك مرتبط. ثمت فتاة في مكان ما تقابلها مرة أو مرتين في السنة لكي تتشاجر معها. لا شك في أنه رائع منك أن ترغب في أن تكون مخلصًا لصديقتك الجديرة

بالاحترام هذه، ولكن يجب أن تسمح لي بأن لا أنظر إلى هذا بكثير من الجدية. أعتقد أنك تتعامل مع الحب بقدر هائل من الجدية. وهذا شأنك. بإمكانك أن تعشق قدر ما تشاء بطريقتك المثالية فهذا لا يهمني. إن كل ما يهمني هو أنه يجدر بك أن تتعلم المزيد من المهارات الصغيرة في الحياة وعن جوانبها الأكثر إشراقًا. في هذا المجال أنا معلمتك، وتأكد من أني سأفيدك أكثر مما يفعل حبك المثالي! لقد حان الوقت لكي تضاجع من جديد فتاة جميلة، يا ذئب البراري».

هتفت متعذبًا: «هرمينه، فقط انظري إليّ، أنا عجوز!».

«بل أنت صبي صغير. كنت أكسل من أن تتعلم الرقص إلى أن كاد يفوت الأوان، وبالطريقة نفسها كنت أكسل من أن تتعلم كيف تحب. أما عن الحب المثالي والمأساوي فلا شك عندي في أنك تستطيع أن تحرز تقدمًا باهرًا فيه، ولك كل الشرف. والآن سوف تتعلم قليلاً أن تحب بالطريقة الإنسانية العادية. لقد خطونا خطوة البداية. وقريبًا ستصبح مؤهلاً للذهاب إلى حفلة عامة، ولكن عليك أولاً أن تتعلم رقصة بوسطن، وسوف نباشر ذلك غدًا. سأوافيك في الثالثة. بالمناسبة، ما رأيك في الموسيقى؟».

«أحببتها كثيرًا».

«حسن، ها قد تقدمنا خطوة أخرى. لقد كنت حتى الآن لا تتحمل كل هذه الموسيقى الراقصة وموسيقى الجاز. كنت تراها غاية في السطحية والعبث. وها أنت قد رأيت أنه لا حاجة إلى أن تتناولها بجدية ويمكنها مع ذلك أن تكون ممتعة جدًا وبهيجة. وبالمناسبة، إن الفرقة الموسيقية كلها لا تستطيع أن تستغني عن بابلو، إنه يقودها ويبث الحماس فيها».

* * *

مثلما كان الغرامافون يلوث سماء غرفة مكتبي فيشوّه الذوق والأفكار ومثلما كانت الرقصات الأميريكية تندفع كأشخاص غرباء ومشاغبين، نعم، وكمخربين مقتحمين حديقتي الموسيقية التي أوليتها عنايتي الفائقة، اقتحمت كذلك مؤثراتٌ جديدة ورهيبة ومفسدة، ومن كل الاتجاهات، حياتي التي كانت، حتى ذلك الحين، واضحة المعالم بصفاء فائق ومنعزلة إلى أقصى حد. لقد كانت أطروحة ذئب البراري، وهاري أيضًا، مُحقَّين في اعتقادهما في الألف روح. ففي كل يوم تقفز أرواح جديدة لتتخذ مكانها إلى جانب جمهرة من الأرواح القديمة، وهي تضج بمطالبها وتثير الفوضى. والآن، وكأنما أنظر إلى صورة، صرت أرى بجلاء أيّ وهم كانت شخصيتي السابقة تعيث فيه. لقد كانت حفنة القدرات والاهتمامات التي حدث أن كنت منيعًا بها تستحوذ على كل اهتمامي، وقد رسمت لنفسي صورة بوصفي شخصًا لم يكن في الواقع أكثر من اختصاصيّ راق ومثقف في الشعر والموسيقى والفلسفة، وهكذا عشت، تاركًا كل ما تبقّى مني ليغدو عماءً من الإمكانيات والغرائز والدوافع، وجدت أنها تشكل عائقًا، وأطلقت عليها اسم ذئب البراري.

في تلك الأثناء وجدت، على الرغم من شفائي من الوهم، انحلال الشخصية هذا ليس بأي حال مغامرة ممتعة أو مسلية. على العكس، لقد كان كثيرًا ما يسبب لي الألم المفرط، وكثيرًا ما كان لا يكاد يحتمل. غالبًا ما كان هدير الغرامافون يبدو لأذنيّ شيطانيًا بحق وسط محيط كل شيء فيه معدّل على مقام موسيقي مختلف كل الاختلاف. وكم من مرة، وأنا أؤدي رقصةَ الخطوة في مطعم فخم بين باحثين عن المتعة وخليعين متأنقين، كنت أشعر أني خائن لكل ما كان يجدر بي أن

أحيطه بكل مظاهر التقديس. ولو أن هرمينه تركتني مدة أسبوع واحد وحدي لفررت من فوري بعيدًا عن هذه المتاجرة المضجرة والمضحكة، مع عالم المتعة. إلا أن هرمينه، كانت دائمًا موجودة. وعلى الرغم من أني لم أكن أقابلها في كل يوم، إلا أني، مع ذلك، كنت على الدوام، عُرْضةً لمراقبتها، ترشدني، تحرسني وتنصحني، وإضافة إلى ذلك، قرأتْ كل أفكاري المجنونة، عن التمرد والهروب مرتسمة على وجهي، وابتسمت منها.

مع التدمير المتزايد لكل ما كنت قد سمّيته شخصيتي، بدأت أفهم، أيضًا، لماذا كنت أنطوي على كل ذاك الرعب الهائل من الموت رغم كل يأسي. وبدأت أدرك أن هذا الرعب الوضيع الذي أظهرته في وجه الموت كان جزءًا من وجودي القديم المبتذل الكاذب. إن المغفور له هاري هاللر، الكاتب الموهوب، تلميذ موتسارت وغوته، مؤلف مقالات حول ميتافيزياء الفن، وحول العبقرية والمأساة والإنسانية، الناسك السوداوي في صومعة تكتنفها الكتب، قد أخذ يتكرَّس شيئًا فشيئًا للنقد الذاتي، وكان دائمًا ما يتضح أنه دون المستوى المطلوب. ومن المؤكد أن هاري هاللر، هذا الموهوب والمثير للاهتمام كان يبشر بالعقل وبالإنسانية، ويناهض بربرية الحرب، إلا أنه لم يفسح لهم المجال ليوقفوه على الجدار، ويطلقوا عليه الرصاص، وهذه هي النتيجة المنطقية التي كان يمكن أن تفضي إليها طريقته في التفكير. لقد كان قد عثر على وسيلة ما للتكيف، وسيلة كانت، طبعًا، ظاهريًا محترمة ونبيلة، إلا أنها مع ذلك كانت تعرِّض للشبهة لا أكثر. وزيادة على ذلك كان يناهض سلطة رأس المال ومع ذلك كان يحتفظ في مصرفه بسندات صناعية وينفق من فوائدها دون أي وازع من ضمير. وهكذا انتهى كل شيء. وطبعًا كان هاري هاللر قد تلبَّس كأحسن ما يكون

لبوس المثالي مزدري العالم والناسك السوداوي والنبي المتذمر. لكنه في أعماقه كان بورجوازيًا يعترض على أسلوب حياة كحياة هرمينه ويغضب أشد الغضب من نفسه بسبب الليالي التي يهدرها في مطعم والنقود التي يبددها هناك. حتى أنه كان يشعر بالذنب. وبدل أن يتوق إلى الحرية والكمال، إذ به يتوق، على العكس، وبكل جدية إلى أن يعود إلى تلك الأوقات السعيدة حين كان عبثه العقلي هو تسليته وكان يجلب له سمعة. وبالطريقة نفسها تاق قراء الصحف أولئك، الذين كان يحتقرهم ويزدريهم، إلى العودة إلى الزمن المثالي السابق للحرب، لأن ذلك كان مريحًا أكثر بكثير من تلقي درس من أولئك الذين تعلقوا به، أو بالأحرى بالقناع الذي يمثله، والذي كان قد أخذ يسقط، تعلقتُ بعبثه بالروحاني، برعبه البورجوازي من الفوضوي والعَرَضي (وإلى هذا، أيضًا، ينتمي الموت) وأجريت مقارنة مزدرية وحاسدة بين هاري الجديد الهاوي ارتياد صالات الرقص، الرعديد نوعا ما والمثير للسخرية، وبين ذاك القديم الذي كان قد اكتشف منذ ذلك الحين في صورته الشخصية المثالية والكاذبةِ كلَّ تلك الميزات المشؤومة التي أزعجته في تلك الأمسية أيما إزعاج، في صورة غوته عند البروفيسور. وهو نفسه هاري هاللر القديم، كان يمثل بالضبط النسخة البورجوازية من غوته، بطلاً روحيًا تشع تحديقته الجليلة بنبل وبطلاوة فكر وإنسانية رفيعين، حتى كاد نبل فكره يطغى عليه ! يا له من شيطان ! وأخيرًا، أصبحت هذه الصورة الرائعة الآن في حاجة ماسَّة إلى ترميم ! لقد كان هاري هاللر المثالي قد تفكك بشكل يبعث على الأسى ! أصبح أشبه بصاحب مقام رفيع وقد وجد نفسه فجأة بين ثلة من اللصوص وبنطاله رث ممزق، وربما كان برهن على وعيه لو أنه جرب أن يؤدي الدور الذي أسندته إليه أسماله بدل أن يضجرهم

بتلبُّسه مظهرًا محترمًا ومواصلة ادّعائه المنتحب لسمعته الضائعة.

كنت دائمًا أجدني بصحبة بابلو الموسيقي، وكان لا بد لي أن أعيد النظر في تقديري له، على الأقل بسبب إعجاب هرمينه الشديد به وتلهفها إلى صحبته. وكان بابلو قد ترك لدي انطباعًا بأنه نكرة، جميل، متأنق صغير، وكان بارعا بشكل ما في ذلك، وسعيدًا كطفل خال من الهموم، متعته أن يسيل لعابه في بوقه اللعبة، ويظل هادئًا عندما يتلقى الإطراء والشوكولاتة. إلا أن بابلو لم يكن مهتمًا بآرائي. كان لا مباليًا بها كما بنظرياتي الموسيقية. كان ينصت بكياسة وودّ، ويبتسم كعهده دائمًا، إلا أنه مع ذلك كان يحجم عن الإدلاء بأي جواب. ومن ناحية أخرى، على الرغم من ذلك، بدا لي أني قد أثرت اهتمامه. كان واضحًا أنه قد حجب نفسه لإرضائي وليظهر لي نيته الطيبة، وحين أبديت ذات مرة شيئًا من النزق، بل حتى المشاكسة، في إحدى تلك المحاولات العقيمة لإقامة حوار، ألقى إلى وجهي نظرة مضطربة وحزينة، ثم تناول يدي اليسرى وراح يمسّد عليها ثم قدم لي نتفة من صندوق سعوطه الذهبي الصغير، قائلاً إنها ستفيدني. فنظرت إلى هرمينه مستفهمًا. فأومأت برأسها محبذة فأخذت النتفة. والتأثير الفوري كان أن رأسي أصبح أكثر صفاءً، وأصبحت أكثر ابتهاجًا. لا ريب في أن المسحوق كان يحتوي على كوكايين. وأخبرتني هرمينه أن لدى بابلو الكثير من تلك المخدرات، وأنه يؤمّنها من خلال قنوات سرية. كان بين حين وآخر يوزع منها على أصدقائه، وكان خبيرا بمزجها ووصفها. كان يستخدم المخدرات لتسكين الألم ولاستجلاب النوم ولاستحضار الأحلام الجميلة والمزاج المنتعش وثورة الحب.

ذات يوم قابلته في الشارع بالقرب من رصيف الميناء، فانعطف على الفور ليصحبني، وفي هذه المرة نجحت أخيرًا في جعله يتكلم.

قلت له بينما كان يعبث بعصا المشي الخاصة به الفضية والعاجية النحيلة: «هر بابلو، أنت صديق لهرمينه ولهذا تثير اهتمامي. لكني لا أستطيع أن أقول إنك تشجع على إقامة علاقة معك. لقد حاولت مرارًا أن أتحدث معكَ عن الموسيقى، كان يهمني أن أطّلع على أفكارك وآرائك، وأعرف ما إذا كانت تتعارض وآرائي أم لا، لكنك ترفّعت حتى عن إعطائي أدنى جواب».

ابتسم لي أعذب ابتسامة، وفي هذه المرة أعطاني جوابًا.

قال لي باتزان: «في الواقع، إني لا أرى أي داع للتحدث عن الموسيقى. إني لا أتكلم عن الموسيقى أبدًا. إذن أي جواب كنت تتوقع مني عن ملاحظاتك شديدة البراعة والصحة؟ لقد كنت محقّا تمامًا في كل ما قلت. أما أنا فموسيقي. ولست بروفيسورًا، ولا أصدق أن هناك أدنى أهمية لكون المرء محقّا، فيما يتعلق بالموسيقى، الموسيقى لا تعتمد على كون المرء محقّا، أو على تمتُّعه بذوق حسن وثقافة وما إلى ذلك».

«هذا صحيح. إذن علام تعتمد؟».

«على صنع الموسيقى، هر هاللر، على صنع الموسيقى وبأكبر قدر ممكن أيضًا وبكل ما في وسعك من كثافة. هذا هو المهم، سيدي. وعلى الرغم من أني أحمل في ذاكرتي الأعمال الكاملة لباخ وهايدن ويمكنني أن أقول في حقّهما أعذب الكلام، فإن ذلك ما كان ليضيف إليهما أي شيء. ولكن عندما أضم المبسم بين شفتيّ وأعزف لحنًا راقصًا حيويًا، سواء أكان اللحن جيّدًا أم رديئًا، فإني أمنح الناس المتعة. إنه يسري في سيقانهم وفي دمائهم. وهذا وحده هو المهم. أنظر إلى الوجوه في إحدى صالات الرقص لحظة انطلاق الموسيقى بعد فترة توقف مطولة، كيف تتألق العيون، وتنتفض السيقان، وتبدأ

الوجوه بالضحك. لهذا بالذات وُجدت الموسيقى».

«هذا رائع هر بابلو. لكن الموسيقى الحسِّية ليست وحدها في الساحة. هناك أيضًا الموسيقى الروحية. فإلى جانب الموسيقى التي تروج في الوقت الحاضر، هناك الموسيقى الخالدة التي تبقى في البال حتى عندما لا تُعزف. إذ يمكن أن يحدث للإنسان، وهو مستلق وحده في السرير، أن يتذكر لحنًا من أوبرا «الناي السحري» أو من «آلام القديس متَّى»، وعندئذ تسري الموسيقى دون وجود مَنْ ينفخ في ناي أو يمرِّر قوسًا على كمان».

«لا شك في ذلك، هر هاللر. ولحنا «توق» و«فالنسيا»[1]، أيضًا يستعيد ذكراهما في كل ليلة العديد من الحالمين المتوحدين. حتى أبأس طابعة على الآلة الكاتبة وهي في غرفة مكتبها تحمل في ذاكرتها آخر صرعات ألحان الرقص، وتضرب مفاتيح الحروف على إيقاعها. أنت على حق. إنني لا أنكر على كل أولئك المتوحدين موسيقاهم الخرساء، سواء أكانت «توق» أو «الناي السحري» أو «فالنسيا». ولكن من أين يحصلون على موسيقاهم الموحشة والخرساء؟ إنهم يحصلون عليها منا، نحن الموسيقيين. يجب أولاً أن تُعزف وتُسمع، وأن تتغلغل في دمائهم، قبل أن يتمكن أي إنسان وهو في بيته وداخل غرفته من أن يتذكرها ويحلم بها».

قلت ببرود: «أسلّم بهذا، ولكن لا يجوز أن نضع موسيقى موتسارت وآخر صرعات الفوكس – تروت في ميزان واحد. ليس صحيحًا أنه سيان إن عُزفت للناس موسيقى عُلوية وسرمدية أم شيء رخيص من هذا اليوم سيُنسى غدًا».

عندما لاحظ بابلو من نبرة صوتي أني أزداد حماسة، عمد إلى

(1) مقطوعتان من موسيقى الجاز.

الفور إلى رسم أشد التعابير ودًا على وجهه، وبعد أن لمس ذراعي مداعبًا، تكلم بصوت ناعم نعومة لا تصدق:

«نعم، يا سيدي العزيز، لعلك محق تمامًا فيما قلته عن المستويات. لا اعتراض لدي على أن تضع موتسارت وهايدن ومقطوعة «فالنسيا» في المستويات التي تريد. فكله عندي سواء. إذ ليس من شأني أن أقرر مسألة الترتيب. فلن يسألني أحد أبدًا عنها. ربما ستظل موسيقى موتسارت تُعزف حتى بعد مئة سنة، وفي غضون سنتين ستنسى مقطوعة «فالنسيا»، أعتقد أن في إمكاننا أن ندع الأمر بين يدي الله. إن الله طيب ومستقبلنا كله مرهون بين يديه. وكذلك كل لحن فالس وفوكس – تروت. ولا شك في أنه سيفعل ما يشاء. أما نحن الموسيقيين فيجب أن نؤدي أدوارنا وفقًا لما تمليه علينا واجباتنا ومواهبنا. علينا أن نعزف في الواقع ما هو مطلوب. ويجب أن نؤديه أيضًا بأقصى ما في وسعنا من جمال ومقدرة على التعبير».

تنهدت واستسلمت. فلا مجال لبزّ الرجل.

في كثير من الأحيان كان القديم والجديد، الألم والمتعة، الخوف والفرح يمتزجون بشكل غريب. فتارة أجدني في النعيم، وطورًا في الجحيم، وغالبًا ما أكون فيهما معًا دفعة واحدة. ويعيش هاري القديم والجديد في لحظة صراع مرير، وأحيانا أخرى في سلام. وكم من مرة بدا وكأن هاري القديم قد مات وانتهى أمره، مات واندثر، ومن ثم إذا به فجأة يظهر من جديد، يصدر أوامره ويمارس طغيانه ويبدي معرفته الأفضل بكل شيء، إلى أن ينكمش هاري الشاب الجديد الصغير صامتًا من فرط إحساسه بالخجل ويسمح له بمحاصرته. وفي مرات أخرى كان الشاب هاري يقبض على القديم من نحره، ويشدّه بكل ما أوتي من قوة، فيتعالى الكثير من الأنين، وتدور الكثير

من صراعات الموت، ويغلب التفكير في اللجوء إلى حد الموسى.

إلا أنه غالبًا ما كان الألم والسعادة يتلاطمان عليّ دفعة واحدة. إحدى تلك المرات كانت عندما ولجت غرفة نومي ذات ليلة، وذلك بعد أيام قليلة من ظهوري الأول كراقص في مكان عام، وكم أذهلني وبث فيّ فزعًا ورعبًا وانبهارًا، إلى حد يعصى على الوصف، أن أجد ماريا الجميلة مستلقية على سريري.

من بين كل المفاجآت التي أعدتها هرمينه لي كانت تلك هي الأقوى، إذ أني لم أشك لحظة واحدة في أنها هي التي أرسلت عصفورة الجنة تلك. وكالعادة، لم أكن مع هرمينه في تلك الأمسية. وكنت قد حضرت حفلة موسيقية مخصصة للموسيقى الكنسية القديمة، أقيمت في الكاتدرائية. كانت نزهة جميلة، رغم كآبتها في حياتي الماضية وحقول فترة شبابي وتخوم حياتي المثالية. وتحت قبة الكنيسة السامقة قوطية الطراز بقناطرها المعقودة التي تميد بحياة مخيفة وسط عبث الأضواء المتناثرة، استمعت إلى مقطوعات لبوكستهوده[1]، وباخِلْبِلْ وباخ وهايدن. ومرة أخرى سرت في الدرب القديمة الحبيبة. سمعت صوتَ المغني الرائعَ يؤدي لحنًا لباخ كنت قد استمتعت بصحبته في الأيام الخوالي عندما كنا أصدقاء في مناسبات موسيقية تبقى للذكرى. لقد أحيت أنغام الموسيقى القديمة بجلالها وقداستها الأزليين كل فتنة الشباب وحماسة المجدين. جلست على شرفة الخورس العالية، حزينًا وشارد الذهن، ضيفًا مدة ساعة على هذا العالم النبيل المبارك الذي كان ذات يوم بيتًا لي. وأثناء غناء فاصل ثنائي لهايدن ترقرقت فجأة الدموع في عيني. ولم أنتظر حتى نهاية الحفلة. تخليّت عن فكرة

---

(1) ديتريش بوكستهوده (1637–1707): مؤلف موسيقي وعازف أرغن دانماركي. أثر على باخ وهاندل. (المترجم).

مقابلة المغني ثانية (كم من أمسية قضيتها ذات يوم مع الفنانين بعد انتهاء مثل هذه الحفلات الموسيقية) وتسللتُ خارجًا من الكاتدرائية، ورحت أقطع الشوارع الضيقة المظلمة بخطى متعبة، وكنت أرى هنا وهناك خلف واجهات المطاعم فرق جاز تعزف أنغام الحياة التي كنت مقبلاً على الانخراط فيها. آه، أي متاهة بليدة من الأخطاء جعلتُ من حياتي!

في تلك الليلة، فكرت طويلاً خلال سيري في فحوى علاقتي بالموسيقى، وعرفت، ولم تكن المرة الأولى، في هذه العلاقة الفاتنة والمشؤومة قدر الروح الألمانية برمتها. إن الروح الألمانية تهيمن عليها السيطرة الأمومية، الدنيوية، والانجذاب إلى الطبيعة، يتبدّى ذلك على شكل سيطرة الموسيقى إلى درجة لم يعرفها أي شعب آخر. إننا معشر المفكرين، بدل أن نكافح في هذا الاتجاه كما يفعل الرجال ونقدم ولاء الطاعة إلى الروح، الـ «اللوغوس»[1]، الـ «الكلمة»، ونكسب سماعًا لها، ترانا جميعًا نحلم بخطاب دون كلام يعبر عما يعصى على التعبير، ويخلع شكلاً على ما لا شكل له. بدل أن يؤدي المفكر الألماني هذا الدور بكل ما في وسعه من صدق وإخلاص، ظل باستمرار يتمرد على الكلمة وعلى العقل وراح يتملق الموسيقى. وهكذا أخذت الروح الألمانية تسرف في صخب الموسيقى، وإبداعات الصوت الرائعة وجماليات الشعور والمزاج التي لم يُبذل أي مجهود حثيث لإعادتها إلى أرض الواقع. وتركتْ الجزء الأكبر من مواهبها العملية ليناله الخراب. لا أحد منا نحن المفكرين متآلف مع الواقع. نحن غرباء عنه ومعادون له. ولهذا كان الدور الذي لعبه المفكر، حتى في واقعنا الألماني الخاص، في تاريخنا وسياستنا ورأينا العام، يدعو إلى منتهى الرثاء. ولطالما

---

(1) اللوغوس: في الفلسفة، هو العقل، أو العقل الكلّي. (المترجم).

تفكّرت في كل هذا، بشكل لم يخلُ أحيانًا من توق جارف للإنكباب ولو مرة على عمل شيء حقيقي، لأكون فاعلاً جدّيا ومتحمّلا المسؤولية، بدل انشغالي على الدوام فقط بالجماليات وبالأبحاث الفكرية والفنية. إلا أن الأمر كان دائمًا ينتهي بالإذعان، بالاستسلام للقدر. لقد كان أساطين الصناعة ورؤوسها الكبيرة على حق كامل. إننا معشر المفكرين لا نفع فينا. نحن ثلة تافهة، لا مسؤولة، من الثرثارين الموهوبين. لا يعني لنا الواقع أي شيء. وعدت إلى الموسى، وأنا ألعن.

هكذا، عدت أخيرًا إلى البيت، وأنا مترع بالأفكار وبترجيع الموسيقى، وقلبي مثقل جدّا بالحزن وقد ضاع إلى الأبد الشوق اليائس إلى حياة الواقع والمعنى وما إلى ذلك، ورحت أرتقي درجي. أضأت النور في غرفة جلوسي، وحاولت عبثًا أن أقرأ. فكّرت في الموعد الذي اضطرني إلى ان أشرب الويسكي، وأرقص في بار سيسل في الأمسية التي تلت، فكرت بخبث وبمرارة ليس فقط في نفسي، وإنما أيضًا في هرمينه. لعلها إنسانة طيبة تنطوي على أفضل وأرقّ النوايا، ولعلها إنسانة رائعة، ولكن كانت أحسنت فعلاً لو أنها تركتني أفنى بدلاً من أن تجرني إلى قلب دوامة الأعمال الطائشة هذه، حيث لن أكون أبدًا أكثر من شخص غريب وحيث فسد أفضل ما عندي وانحطّ.

هكذا أطفأتُ النور، وانتقلت إلى غرفة نومي. أخذت وأنا حزين أخلع ملابسي، ثم فوجئت برائحة غريبة. فقد شممت عبقَ عطر خفيفًا. تلفّتّ فيما حولي فرأيت ماريا الجميلة مستلقية على سريري، تبتسم مع شيء من الذهول، بعينين زرقاوين كبيرتين.

قلت: «ماريا !». وكان أول ما دار في خلدي أن صاحبة البيت سوف تنذرني بالإخلاء حالما تعرف بالأمر.

قالت بنعومة: «لقد جئت. أأنت غاضب مني؟».

«لا، لا. أرى أن هرمينه قد أعطتك المفتاح. أليس كذلك؟».

«أوه، أنت غاضب. سأرحل».

«لا، يا ماريا الجميلة، ابقي! كل ما في الأمر أني، في هذه الليلة بالذات، حزين جدًا. لا طاقة لي هذا المساء بالمرح، ربما غدًا أتحسن من جديد».

كنت مائلاً فوقها، فضمّت رأسي بيديها القويتين الكبيرتين، وجرّته أسفل، نحوها، وقبلتني قبلة طويلة، ثم جلستُ على السرير إلى جانبها، وأمسكتُ بيديها، وطلبتُ منها أن تتكلم بصوت منخفض لكي لا يسمعها أحد، ورحت أملي نظري في وجهها المستدير والممتلئ والجميل المستلقي بشكل شديد الغرابة والروعة على وسادتي كزهرة كبيرة. شدت يدي ببطء إلى شفتيها، ووضعتها من تحت ثيابها على نهدها الدافئ والخفاق بانتظام.

قالت: «لا حاجة في أن تكون مرحًا. لقد أخبرتني هرمينه أن لديك مشاكل. إن أي إنسان يمكن أن يتفهم هذا. قل لي إذن، أما أزال مصدر سعادة لك؟ في ذاك اليوم، عندما كنا نرقص، كنت هائمًا بي حبًا».

قبّلتُ عينيها، وفمها وعنقها ونهديها. وكنت قبل برهة أفكر في هرمينه بمرارة وعتاب. والآن ها أنا أضم هديتها بين يدي وأنا ممتن. لم تسبب مداعبات ماريا أي أذى للموسيقى الرائعة التي كنت قد سمعتها في تلك الأمسية. لقد كانت كفؤًا لها، ولإنجازها. وببطء رحت أزيل ملابسها عن جسدها الجميل إلى أن وصلت قبلاتي حتى قدميها، وعندما استلقيت إلى جانبها بادلني وجهها الزهرة ابتسامة وافرة وعارفة بكل شيء.

خلال تلك الليلة، وأنا بجوار ماريا لم يردني الكثير من النوم، لكن نومي كان عميقًا وترين عليه السكينة كإغفاء طفل. وبين فترات النوم

كنت أجوع من شبابها الدافئ الجميل وأنصت، ونحن نتبادل الحديث بخفوت، إلى عدد من الحكايا العجيبة عن حياتها وحياة هرمينه، ولم أكن قد عرفت الكثير عن ذاك الجانب من الحياة. ولم أكن في سنوات سابقة قد قابلت، إلا إذا كان في عالم المسرح أحيانًا، أساليب حياة مشابهة، نساءً ورجالاً أيضًا عاشوا نصف حياتهم من أجل الفن ونصفها الآخر في المتعة. والآن، ولأول مرة، ألقيت نظرة خاطفة إلى هذا النوع من الحياة الاستثنائية لبراءتها الفريدة وفسادها الفريد معا. مثل أولائي الفتيات وهن في الغالب منحدرات من أصول فقيرة، إلا أنهن أشد ذكاءً وجمالاً من أن يسخّرن كامل حياتهن لأسلوب في كسب لقمة العيش شحيح الأجر وخال من المتعة، يعشن جميعًا تارة من القيام بأعمال مؤقتة، وتارة أخرى من فتنتهن وبيع أجسادهن. وبين حين وآخر، يعملن مدة شهر أو اثنين، ككاتبات على الآلة الراقنة، وأحيانًا يكنَّ خليلات رجال أثرياء مجربين، ويتلقين مبالغ صغيرة وهدايا، وأحيانًا يلبسن الفرو، ويركبن السيارات، وينزلن في فنادق فارهة، وفي مرات أخرى يأوين في علّيات، وعلى الرغم من أن عرضًا جيّدا لطلب أيديهن قد يغريهن بالزواج تحت ظروف معينة، فإنهن لسن على الإطلاق متلهفات لذلك. وكثيرات منهن لا يأبهن بالحب ويهبن أنفسهن على مضض شديد، ولكن مقابل مال وبأعلى سعر. وثمت أخريات، وماريا إحداهن، كنّ موهوبات موهبة خارقة في الحب، ولا يستطعن الاستغناء عنه، وأغلبهن أيضًا متمرسات في المضاجعة مع كلا الجنسين. إنهن يعشن للحب فقط، وإلى جانب زبائنهن المعتادين والمريحين كنّ يقمن أيضًا علاقات جنسية أخرى. إن تلك الفراشات، العاملات المجدّات، الخاليات من الهم والغم، الذكيات والطائشات، يعشن حياة هي في وقت واحد بسيطة و راقية، مستقلات، لا يشتريهن

كل راغب، ويجدن قيمتهن في الحظ الحسن والظرف الجيد، يعشقن الحياة ومع ذلك فأي بورجوازي يتشبث بها أكثر منهن، ودائمًا مستعدات للحاق بأمير خيالي إلى قلعته، دائمًا متيقنات، وإن كن نادرًا ما يعين ذلك، من أن نهاية صعبة ومحزنة تنتظرهن.

خلال تلك الليلة الأولى الرائعة والأيام التي تلت علمتني ماريا الكثير. علّمتني لهو الإحساس الفاتن ومباهجها، لكنها، أيضًا، منحتني فهمًا جديدًا، وبصيرة جديدة، وحبّا جديدًا. لقد كان عالم الرقص ومرابع المتعة ودور السينما والبارات وردهات الفنادق الذي وجدتُ، أنا الناسك وعاشق الجمال الفني، أنه يتسم بمسحة من التفاهة والتحريم والانحطاط، كان بالنسبة إلى ماريا وهرمينه ورفاقهما عالمًا نقيًا وطفوليًا. فلا هو جيد ولا هو سيّء، لا محبوب ولا مكروه. في هذا العالم كانت حياتهن القصيرة والنهمة تزهر وتتلاشى. فيه يشعرن بالألفة، ويعرفن كل سراديبه. كن يحببن شرب الشمبانيا أو تناول صنف مميز من الطعام في أحد الفنادق كما قد يحب أي منّا مؤلّفًا موسيقيًا أو شاعرًا، وكن يسرفن في إبداء الحماسة نفسها والطرب والانفعال العاطفي حيال آخر صرخات الرقص أو أغنية جاز متخمة بالعاطفية يؤديها مغني جاز بقدر ما يبديه أي منّا حيال نيتشه أو هامسُن[1]. حدثتني ماريا عن عازف الساكسفون الوسيم بابلو، وأتت على ذكر أغنية أميركية، كان يغنيها لهم في وقت ما، وكانت تتكلم عنها بإعجاب جامح حتى إن تأثري وإثارتي بذلك كانا أكثر بكثير مما تُحدثه لدي نشوة أي حديث لشخص على قدر عال من الثقافة حول متع فنية من أندرها وأشدها تميزًا. كنت مستعدّا لأن أتعاطف معها بحماس، مهما كانت الأغنية. لقد أحدثت كلمات

(1) كنوت هامسُن (1859-1952): روائي وكاتب مسرحي وشاعر نرويجي. (المترجم).

ماريا المتوهجة ووجهها الطافح بالانفعال واللهفة تصدعات كبيرة في مفاهيمي الجمالية. ولا شك في أنه كان هناك «جمال» واحدٌ أحد، صغير ومنتقى، بدا لي أنه مع موتسارت على رأس القائمة، فوق كل نقاش أو ريب، ولكن إلى أي حد؟ في شبابنا، نحن جميعًا، خبراء الفن والنقاد، ألم نكن كذلك في حب الأعمال الفنية والفنانين الذين بتنا اليوم ننظر إليهم بعين الشك والرعب؟ أليس هذا ما حدث مع «ليست» و«فاغنر» وأيضًا مع «بيتهوفن»، بالنسبة إلى الكثيرين منا؟ أليس تفتّح مشاعر ماريا الطفولية في كلامها عن الأغنية الأميركية هي تجربة فنية لا تقلّ نقاءً وجمالاً بل ترقى بلا أي شك بهجةَ أي فطحل أكاديمي بـ «تريستان»، أو نشوة قائد أوركسترا بالسيمفونية التاسعة؟ ثم ألا يتوافق هذا بشكل مذهل وآراء الهر بابلو ويثبت أنه على حق؟

ماريا أيضًا بدت أنها تحب بابلو الجميل حبّا جمّا.

قلت: «لا شك في أنه شاب جميل. إنه يعجبني كثيرًا أنا أيضًا. ولكن، أخبريني يا ماريا، كيف يمكنك أيضًا أن تولعي بي، أنا العجوز المملّ الذي لا يتمتع بشكل حسن، بل إن بعض شعره قد شاب، ولا يحسن العزف على الساكسفون، ولا يغني أيّا من أغاني الحب الإنكليزية؟».

قالت تؤنبني: «لا تقل مثل هذا الكلام الفظيع. إنه أمر طبيعي تمامًا. أنت أيضًا تعجبني. ثم أنك تتمتع بصفة جميلة تُحبّبك إليّ وتميّزك. وما كنت لأقبلك لو كنت مختلفًا. يجب أن لا يتحدث الإنسان عن مثل هذه الأمور، ويطلب تعليلاً لها. اسمع، عندما تقبّل عنقي وأذني، أشعر أني أسعدك، وأنك تحبني. إن لك أسلوبًا في التقبيل يجعلك تبدو وكأنك حييّ يقول لي: «أنت تسعدينني وأنا شاكر لك لأنك جميلة». وهذا يمنحني متعة عظيمة لا تقدّر. إلا أني أيضًا عندما أكون مع رجل آخر فإن ما يعجبني فيه يكون العكس تمامًا، أي لأنه يقبّلني

وكأنه يحتقرني ويقدم لي معروفًا».

من جديد استغرقنا في النوم، ومن جديد استيقظت لأجد ذراعي ما تزال تطوّقها، زهرتي الجميلة، الجميلة.

الغريب في الأمر أن هذه الزهرة الجميلة ظلت مع ذلك الزهرة التي أهدتني إيّاها هرمينه. وظلت هرمينه تقف أمامها وتخفيها وراء قناع. ومن ثم فجأة دخل التفكير في إريكا على الخط، حبيبتي الغاضبة، النائية، صديقتي المسكينة. إنها لم تكن تقل جمالاً عن ماريا، وإن لم تكن تبزها في تفتحها، وكانت أكثر تقيُّدًا، وليست غنية الموهبة في فنون المضاجعة الصغيرة. تمثَّلَتْ أمام عيني برهة من الزمن بجلاء وبإيلام محبوبة متغلغلة عميقًا في قدري، ومن ثم غابت من جديد في غياهب النسيان، دون أن تخلّف ندما يذكر.

وهكذا نهضت صور كثيرة من حياتي في جمال الليل الرقيق، ومثلت أمامي، أنا الذي طال عيشي في فراغ مقفر بلا صور. والآن، وبلمسة سحرية من إله الحب، انبجس مَعِينُها وتدفقت غزيرة. وتوقف قلبي عن الوجيب بضع لحظات متواصلة ما بين البهجة والحزن ليكتشف مدى غنى معرض حياتي وازدحام روح ذئب السهوب البائس بنجوم وبروج سرمدية لا تطال. وتبدّت طفولتي وأمي وسط تجلٍّ شفاف كومضة نائية تنطلق عبر الجبال إلى قلب السماء التي لا يُسبر غورها، ترجّع هدير ترتيل صداقاتي، بدءًا من الخارق، صنو الروح هرمن، جليًا كنفير أبواق، وطافت صور نساء كثيرات مارّة بي تفوح عبيرًا علويًا كأزهار بحرية مبللة فوق سطح الماء، نساء أحببتهن، اشتهيتهن، غنّيتهن، نادرًا ما كسبت حبهن ونادرًا ما جاهدت لكسبه. زوجتي أيضًا ظهرت. لقد كنت قد عشت معها سنوات عديدة، وقد علمتني الصحبة والكفاح والتكيّف. وعلى الرغم من كل مثالب حياتنا،

ظلت ثقتي بها كما هي لم تمس حتى آخر يوم عندما ثارت عليّ وتخلت عني بلا سابق إنذار. لم أعد مريض الفكر والجسد كما كنت. والآن، وأنا أستعيد الذكرى، أرى كم كان حبي وثقتي عميقين حتى يصيبني ظهورها بجرح بليغ يدوم الحياة كلها.

كل هذه الصور، بأسمائها ودون أسماء، عادت إليّ. انبعثت نضرة وجديدة من قلب ليلة الحب هذه. ومرة أخرى عرفت ما كنت قد نسيته في خضمّ بؤسي، عرفت أنها تمثل هاجس حياتي ومعناها. هذه التجارب الخالدة الباقية كالنجوم وإن نُسيت فلن تمحى. تسلسلها يحكي قصة حياتي، ونورها المتلألئ كالنجوم هو جوهر كياني السرمدي. لقد كانت حياتي مَلَلاً عارما. كانت تجول داخل متاهة من التعاسة تفضي إلى النكران والعدم، حتى أضحت مريرة المذاق بفعل ملح البشر جميعًا، إلا أنها ادَّخرت لي ثروة، ثروة جديرة بأن أفخر بها. كانت على الرغم من كل بؤسها حياة فخمة. وبغض النظر عن الدرب الصغيرة المؤدية إلى الموت، وما تثيره من رثاء، فإن جوهر حياتي كان نبيلاً. كان لها هدف وسمة مميزة، ولا تتجه نحو السفاسف بل صوب النجوم.

مرّ الوقت واستجدّ الكثير، وتغير الكثير. من فرط انتعاش اليقظة ومن شدّة عمق النوم إثر إرهاقِ الحب لا أكاد أذكر أي شيء ممّا وقع في تلك الليلة، ممّا قلناه وفعلناه ونحن هائمان في رقة الحب الغامرة. ولكن في تلك الليلة، ولأول مرة منذ أن أعاد إليّ سقوطي المفاجئ تألّق حياتي الصارمة وجعلني أرى الحظ مرة أخرى، على أنه القدر وأن أرى أطلال كياني كشظايا القدسيّ، عادت روحي تتنفس من جديد، وتفتحت عيناي. وكنت أحيانًا أشعر توهّجا أنه يكفيني أن ألملم صوري المهشمة وأبنيٍ حياتي أنا، هاري هاللر ذئب السهوب، لتغدو صورة متكاملة حتى أدخِل ذاتي إلى عالم الخيال وأغدو خالدًا. إذن، أليس

هذا هو الهدف الذي وُضِع لكي يُحرز كل كائن بشري تقدمه؟

في الصباح، وبعد أن تناولنا طعام الإفطار معًا، كان عليّ أن أهرّب ماريا من المنزل. وفي وقت لاحق من ذاك اليوم نفسه استأجرت غرفة صغيرة في حي مجاور خصصناها فقط للقاءاتنا.

ثم ظهرت هرمينه، أستاذتي في الرقص، الملتزمة بواجباتها، وكان لا بد لي أن أتعلم رقصة البوسطن. كانت حازمة ومتصلبة وترفض أن تحلّني حتى من درس واحد، فقد قررتُ أن أحضر حفلة الأزياء التنكرية بمصاحبتها. وكانت قد طلبت مني نقودًا لتشتري زيًا لها، لكنها رفضت أن تخبرني أي شيء عنه. وكان ما يزال محرّمًا عليّ أن أقوم بزيارتها، أو حتى أن أعرف مكان سكناها.

هذه المرة، قبل موعد الحفلة التنكرية بثلاثة أسابيع، كان كل شيء رائعًا بشكل خارق. فقد بدت ماريا وكأنها أول امرأة أحببتها في حياتي حقًا. ولطالما كنت أطلب في النساء اللواتي عشقتهن اتصافهن بالذكاء وبالثقافة، دون أن ألاحظ أنه حتى أشد النساء ذكاءً، ونسبيًا أشدّهن ثقافة أيضا، لم تكن تستجيب قط للوغوس عندي، بل كانت على العكس تناقضه باستمرار. وأخذت معي مشاكلي وأفكاري وأنا بصحبة النساء. كان يمكن أن يبدو لي من رابع المستحيلات أن أعشق فتاة يصعب القول إنها قد قرأت كتابًا في حياتها ولا تعرف القراءة، ولا يمكنها أن تعيّن الفرق بين موسيقى تشايكوفسكي وموسيقى بيتهوفن. ماريا لم تكن قد حصّلت أي ثقافة. ومشاكلها كلها كانت تنشأ مباشرة من الحواس. لقد كان فنّها كلّه والمهمة التي تولّت القيام بها كاملة يكمنان في استخلاص أقصى درجات البهجة من الحواس التي وُهبت لها، من جسدها المميز، ولون بشرتها، وشعرها، وصوتها، وجلدها، ومزاجها الخاص، وفي استغلال كل إمكانيّاتها، كل انعطافة وخط

وأرقّ تكوين في جسدها لتعثر من خلالها على مدركات مستجيبة عند عشاقها، ولكي تستحضر فيهم متعة سريعة الإستجابة. وكانت أول رقصة حييّة رقصتها معها قد دلتني على كل هذا. لقد أدركت عبيرا وسحرا فائقَين وحساسية مهذبة بعناية وفُتنتُ بها. ومما لا شك فيه، أيضًا، أنه ليس من قبيل المصادفة أن هرمينه العارفة بكل شيء، قد قدمتني إلى ماريا، لقد كان يفوح منها عبير الصيف والورود ومغزاهما الخاص.

لم يكن قدري أن أكون عشيق ماريا الوحيد، ولا حتى حظها المفضل. لقد كنت أحدهم. فغالبًا لم يكن يتوفر لديها وقت لتخصصه لي. وغالبًا كانت مجرد ساعة عند الظهيرة، ونادرًا ما أمضينا ليلة معًا. لم تأخذ مني نقودا. هرمينه هي التي قررت ذلك، بيد أنها كانت تسعد بالهدايا. فإذا أهديتها، مثلاً، جزدانًا جديدًا صغيرًا من الجلد الأحمر المصقول أضع داخله قطعتين أو ثلاثًا من الذهب. والحقيقة هي أنها كانت تضحك مني بسبب الجزدان الأحمر. فهو فاتن، لكنه صفقة مربحة، ولم يعد على الموضة. لم أكن عندئذ قد تعلمت الكثير من مثل تلك المسائل إلا بقدر ما تعلمت لغة الأسكيمو. لقد تعلمت أمورًا كثيرة من ماريا، وقبل أي شيء تعلمت أن تلك الألعوبات لم تكن مجرد تفاهات لا جدوى منها ابتكرها مصنّعون وتجّار بهدف الربح، بل كانت، على العكس، تشكّل عالما صغيرًا، بل كبيرًا، موثوقًا وجميلاً، متعدد الجوانب، يحتوي على أشياء كثيرة جدّا، وليس لها جميعًا إلا هدف واحد ووحيد هو خدمة الحب، وتهذيب الأحاسيس وإضفاء الحياة على العالم الميت المحيط بنا، تقديمه بطريقة مبهرة باستخدام أدوات للحب جديدة، من البودرة والعطر إلى حذاء للرقص، من الخاتم إلى صندوق للسجائر، من إسوارة إلى شنطة يد. وهذه الشنطة لم

تكن شنطة، والجزدان ليس جزدانًا، والزهور ليست زهورًا، والمروحة ليست مروحة. كلها مواد بلاستيكية مصنوعة من الحب، والسحر والبهجة. كل منها كان رسولاً، مهرِّبًا، سلاحًا، صيحة حرب.

لطالما كنت أتساءل من هو حبيب ماريا الفعلي. أعتقد أنها كانت تحب الشاب بابلو عازف الساكسفون، بعينيه السوداوين الكئيبتين، ويديه الطويلتين البيضاوين المميزتين والحزينتين. وكان بابلو يبدو لي عاشقًا بليدًا، مدلّلاً، وسلبيًا، غير أن ماريا أكّدت لي أنه رغم استغراقها وقتا طويلا حتى تتمكن من استثارته فإنّه أصبح بعدئذ أشدّ اتّقادًا واندفاعًا ورجولة من أي مصارع محترف أو معلم ركوب خيل.

بهذه الطريقة توصلت إلى الاطّلاع على أسرار عديدة لهذا الشخص أو ذاك، لعازفي الجاز والممثلين والكثير من النساء والفتيات والرجال في حلقتنا. رأيت ما تحت التحالفات والعداءات المختلفة، وانخرطت بينهم تدريجيًا (على الرغم من كوني غريبًا تمامًا عن ذاك العالم) وأصبحت موضع ثقتهم. تعلمت الكثير أيضًا من هرمينه. غير أني كنت أكثر من مراقبة الهر بابلو الذي تعشقه ماريا. وأحيانًا كانت هي أيضًا تتزود من مخدراته السرية، وكانت دائمًا تدبّر هذه المتع لي أيضًا، ودائما ما كان بابلو يبدي تلهفه لتقديم الخدمات لي. وذات مرة قال لي دون مقدمات: «أنت تعيس جدًا. وهذا أمر سيء. ليس على المرء أن يكون كذلك. إنك تثير شفقتي. جرِّب أن تدخن غليونًا معتدلاً من الآفيون». وأخذ رأيي في هذا الشخص المرح، الذكي، الطفولي، وفي الوقت نفسه العويص، يتغير بالتدريج. أصبحنا صديقين، وكنت كثيرًا ما أقبل بعضًا من علاجاته الناجعة. وكان ينظر إلى علاقتي بماريا بشيء من الاستخفاف. وذات مرة أخذ يسلينا ونحن في غرفته الكائنة

في الطابق الأعلى من فندق في الضواحي. ولم يكن عنده غير كرسي واحد، فاضطررنا ماريا وأنا أن نجلس على السرير. قدّم لنا مشروبًا من ثلاث زجاجات صغيرة، وكان عبارة عن جرعة ذات مذاق غامض ورائع. وعندئذ عندما بلغت مزاجا رائقا جدًا، اقترح، وعيناه تبرقان، أن نقيم احتفالاً جنسيًا صاخبًا نحن الثلاثة فرفضت على الفور. لقد كان مثل ذاك الأمر شيئًا لا يصدق. إلا أني اختلست نظرة خاطفة إلى ماريا لأرى كيف ستتقبله، وعلى الرغم من أنها سارعت إلى دعم رفضي، فإني لمحت وميضًا في عينيها، ولاحظت أن الرفض قد كلّفها بعض الندم. وأصيب بابلو بخيبة أمل لكن رفضي لم يسبب له الألم. قال: «من المؤسف أن هاري يغالي في أفكاره الأخلاقية، لا حيلة لنا في هذا، ومع ذلك كان سيكون أمرًا غاية في الجمال، غاية في الجمال! ولكن عندي فكرة أخرى». وأعطى كلاً منا قليلاً من الآفيون لندخنه، وجلسنا نحن الثلاثة بسكون وعيوننا مفتوحة ورحنا نعايش مشاهد نستحضرها بأنفسنا. وكانت ماريا ترتعش من فرط الابتهاج. وبعد الانتهاء شعرت أني متوعك قليلاً، فمددني بابلو على السرير وأعطاني قطرات من عقار معين، وبينما كنت مستلقيًا مغمض العينين، شعرت بأنفاس عابرة لقبلة على كل جفن. وتقبّلت القبلة وكأني كنت معتقدًا أنها صادرة عن ماريا. لكني كنت أعرف حق المعرفة أنها صدرت عنه.

ذات أمسية بدر عنه ما سبب لي دهشة أعظم. فقد جاءني إلى غرفتي وأخبرني أنه يحتاج إلى عشرين فرنكًا فهل لي أن أقرضه إياها؟ وعرض عليّ مقابل ذلك أن أقضي الليلة مع ماريا بدلاً عنه.

قلت، وقد صعقت إلى أقصى حد: «بابلو، أنت لا تدري ما تقول، إن المقايضة بامرأة بيننا من أسوإ أنواع الانحطاط. سأفترض أني لم أسمع عرضك يا بابلو».

نظر إليّ بإشفاق: «إذن أنت ترفض، يا هر هاري. عظيم جدًا. أنت دائمًا تصعِّب الأمور على نفسك. لا تضاجع ماريا هذه الليلة إذا لم تكن ترغب في ذلك. ولكن أعطني النقود في كلا الحالتين وسوف أعيدها إليك، إني بحاجة ماسة إليها».

«لأيّ غرض؟».

«من أجل أوغسطينو، عازف الكمان الثاني، أنت تعرفه. إنه مريض منذ أسبوع وليس معه من يعنى بأمره. إنه لا يملك قرشًا واحدًا، ولا أنا في الوقت الحاضر».

من قبيل الفضول وأيضًا جزئيًا عقابًا لنفسي، ذهبت لعيادة أوغسطينو. أخذ له معه حليبًا ودواءً في عليّته، وكانت مكانًا بائسًا. فأعدّ له سريره، وهوّى له الغرفة ووضع له كمادات محترفة على رأسه المحموم. وكل هذا بسرعة ورفق وحرفيَّة بارعة. وفي الأمسية نفسها رأيته يعزف حتى الفجر في «سيتي بار».

غالبًا ما كنت أتحدث مطولاً وبالتفصيل مع هرمينه عن ماريا، عن يديها وكتفيها ووركيها وطريقتها في الضحك، والتقبيل والرقص.

في إحدى المرات سألتني هرمينه، تصف لي طريقة خاصة في العبث باللسان عند التقبيل: «هل أرتك هذا؟». فسألتها أن تريني عمليًا بنفسها، لكنها رفضت بجدية كاملة. «سيحدث هذا لاحقًا، لم أصبح عشيقتك بعد».

سألتها كيف تعرفت على أساليب ماريا في التقبيل وعلى أسرار عديدة أيضًا لا يمكن أن يعرفها إلا عشاقها.

هتفت: «أوه، نحن صديقتان، قبل كل شيء. أتظن أن كلاً منا تخفي أسرارها عن الأخرى؟ يجب أن أعترف أن لديك فتاة جميلة، إنها الأفضل بين الجميع».

«ولكني واثق يا هرمينه من أن كلاً منكما تخفي بعض الأسرار عن الأخرى، أم أنك أخبرتها بكل ما تعرفينه عني؟».

لا، هذه مسألة أخرى. إنها أمور هي لن تفهمها، ماريا رائعة، وأنت محظوظ. ولكن بيني وبينك هناك أمور لا تعرف أي شيء عنها. طبعًا أنا أخبرتها أشياء كثيرة عنك، أكثر مما كنت ستحب أن تخبرها به في ذلك الوقت. كان لا بد أن أكسبها لصالحك، كما تعلم. ولكن، لا ماريا ولا أي إنسان آخر سيتوصل أبدًا إلى فهمك كما أفهمك أنا. بيد أني عرفت شيئًا عنك منها، فقد أخبرتني بكل ما تعرفه عنك. إنني أعرفك تقريبًا كما لو أننا نتضاجع دائمًا.

حين اجتمعت بماريا من جديد، كم استغربت وأغلق علي فهم ما عرفته عن أنها ضمت هرمينه بين ذراعيها بقدر ما ضمتني، وأنها تحسست، وقبّلت، وتذوقت واختبرت أعضاءها وشعرها وبشرتها تمامًا كما فعلت معي. وتمثّلت أمامي علاقات جديدة، مواربة، ومعقدة، إمكانيات جديدة في الحب والحياة، وتذكرت الأرواح الألف الواردة في أطروحة ذئب السهوب.

* * *

خلال فترة وجيزة امتدت بين وقت بدء تعرّفي إلى ماريا وحفلات الأزياء التنكرية عشت سعادة غامرة، ومع ذلك لم أشعر قط أن هذا يمثل تحرري وبلوغي ذروة السعادة. ولكن أدركت بجلاء أن كل ذلك هو فترة تمهيد وإعداد، أن كل شيء يتجه بقوة إلى الأمام، وأن جوهر المسألة قادم في الطريق.

عندئذ كنت قد أصبحت ماهرًا في الرقص حتى صرت أشعر أني كفؤٌ للعب دوري في الحفلة. وكانت هرمينه تخفي سرًّا. فحرصتُ كل الحرص على أن لا تطلعني على شكل زيّها. قالت إني سوف أتعرف

عليها سريعًا، وإذا ما فشلت في ذلك فستساعدني، أما قبل ذلك فلن أعرف أي شيء. ولم يكن لديها أي فضول لتعرف خططي بشأن الزي التنكري. وقررت أن لا أرتدي أي زي من الأزياء. وعندما طلبتُ من ماريا أن تكون رفيقتي إلى الحفلة قالت مبررة أنها واعدت فارسًا من القرون الوسطى، وحجزت البطاقات أيضًا، ورأيت وقد أصابني بعض من خيبة الأمل أن عليّ أن أحضر الحفلة وحدي. لقد كانت حفلة الأزياء التنكرية في البلدة، وتنظمها سنويًا جمعية الفنانين في «غلوب رومز»

خلال تلك الأيام لم أكن أرى هرمينه، ولكن قبل موعد الاحتفال بيوم قامت بزيارة قصيرة لي. جاءت لتأخذ بطاقتها التي كنت قد حصلت عليها لأجلها، وجلست معي بهدوء برهة في غرفتي. وانخرطنا في حديث كان استثنائيًا جدًا حتى أنه ترك لدي انطباعًا عميقًا.

قالت: «في الحقيقة إنك تحرز تقدّمًا ممتازًا. الرقص يناسبك. إن من لم يرك خلال الأسابيع الأربعة الأخيرة لن يتعرف عليك».

وافقتها قائلا: «نعم، إن الأمور لم تسر سيرًا حسنًا معي منذ سنين. وكله من صنع يديك يا هرمينه».

«أوه، أليس هو إذن من صنع الجميلة ماريا؟».

«لا، إنها هدية منك ككل شيء آخر، إنها رائعة».

«إنها بالضبط الفتاة التي تحتاجها، يا ذئب السهوب، جميلة، غضة، مرحة وخبيرة في فنون الحب، ويتعذر نيلها في كل يوم. ولو لم تكن مضطرًا إلى أن تتقاسمها مع آخرين، لو لم تكن هي دائمًا مجرد ضيف عابر، لكان الأمر مختلفًا».

نعم، كان لا بد لي أن أسلّم بهذا أيضًا.

«وعليه، هل يمكن أن تعتبر بحق أنك الآن قد حصلت على كل ما ترغب؟».

«لا، يا هرمينه، ليس الأمر بهذا الشكل. إن ما حصلت عليه رائع الجمال ومفعم بالبهجة، هو متعة عظيمة، وسلوى عظيمة. إنني بحق سعيد».

«حسن إذن، ماذا تريد أكثر من هذا؟».

«أنا فعلاً أرغب في المزيد. إني غير قانع بمجرد كوني سعيدًا. لم أخلق لهذا. وهو ليس قدري. إن قدري هو أن أكون عكس ذلك».

«يعني أن تكون تعيسًا؟ في الواقع، لقد نلت هذا وأكثرت منه، في ذاك الوقت حين لم تقو على العودة إلى المنزل بسبب موسى الحلاقة».

«لا، يا هرمينه، بل هو شيء آخر، أوافقك على أنني في ذاك الوقت كنت تعيسًا جدًا. لكنها كانت تعاسة حمقاء لا طائل من ورائها».

«لماذا؟».

«لأنّه ما كان يجب أن أخشى الموت عندما رغبت فيه. إن التعاسة التي أحتاجها وأصبو إليها مختلفة. إنها من النوع الذي سيجعلني أضطرم لهفة وأموت تحرقًا. تلك هي التعاسة أو السعادة التي أنتظرها».

«فهمتك، هنا نحن متشابهان، ولكن ما اعتراضك على السعادة التي وجدتها الآن عند ماريا؟ لم لست راضيًا؟».

«لا اعتراض لي عليها. أوه، لا، إني أحبها. وشاكر لها. إنها جميلة كنهار مشمس في صيف رطب. لكني أشك في أنها ستدوم. وهذه السعادة أيضًا لا طائل من ورائها. هي تمنح الرضا، لكن الرضا لا يغذيني. وهي تهدهد ذئب السهوب كي يستغرق في النوم حتى يتخمه، لكنها ليست سعادة جديرة بأن أموت من أجلها».

«إذن من الضروري أن تموت، يا ذئب السهوب؟».

«أعتقد ذلك، نعم. إن سعادتي تملؤني بالرضا ولايزال في إمكاني أن أتحملها مدة طويلة. ولكن أحيانًا عندما تترك لي السعادة برهة فراغ لكي أنظر فيما حولي وأتوق إلى أمور مختلفة، فإن ذاك التوق لا يتجه نحو الاحتفاظ بهذه السعادة إلى الأبد، وإنما نحو المعاناة من جديد، ولكن بشكل أكثر جمالاً وأقل قسوة من ذي قبل. أتوق إلى المعاناة التي تعدّني للموت وتجعلني راغبًا فيه».

نظرت هرمينه برقّة إلى عينيّ بتلك النظرة المبهمة التي يمكنها بفجاءة سريعة أن تحتل وجهها. يا لتينك العينين الجميلتين! ثم قالت، وهي تنتقي كلماتها كلمة فكلمة، وتنسّقها معًا، وتتكلم ببطء، وبصوت منخفض جدًا حتى كان من المتعب سماعها:

«اليوم أودّ أن أقول لك شيئًا، شيء أعرفه منذ مدة طويلة، وأنت أيضًا تعرفه، ولكن لعلك لم تصارح به نفسك. وسأخبرك الآن ما الذي أعرفه عنك وعني وعن مصيرنا. لقد كنت يا هاري فنّانًا ومفكرًا، رجلاً ملؤه الفرح والإيمان، ودائمًا تسعى وراء ما هو عظيم وخالد، ولا يرضيك التافه والحقير. ولكن كلما أيقظتك الحياة أكثر وأعادتك إلى نفسك، عَظُمتْ حاجتك وازداد عمق آلامك وخوفك ويأسك الذي استولى عليك حتى أغرقك. وكل ما عرفته في يوم من الأيام وأحبَبْته ووقّرته بوصفه جميلاً ومقدّسًا، كل إيمانك ذات يوم بالبشرية وبقدرنا الأمثل، لم تكن له أي فائدة، وفقد قيمته، وتهشّم شذرًا. إن إيمانك لم يعد يجد هواءً يتنفسه، والاختناق طريقة قاسية للموت. أليس صحيحًا، يا هاري؟ هل هذا هو مصيرك؟».

أومأت موافقًا مرارًا وتكرارًا.

«إنك تحمل صورة للحياة في داخلك، صورة إيمان وتحدٍّ، وكنت مستعدًا لإنجاز المآثر وللآلام والتضحيات، ومن ثم أدركتَ شيئًا

فشيئًا أن العالم لم يعد يطلب منك المآثر أو التضحيات، مهما كانت، وأن الحياة ليست قصيدة تحكي عن البطولة وتحتوي أدوارًا بطولية تؤدى، وما إلى ذلك، وإنما غرفة مريحة يرضى فيها الناس تمامًا بالأكل والشرب ورشف القهوة والحياكة ولعب الورق وسماع الموسيقى من المذياع. وكل من يرغب فيما هو أكثر من ذلك ويحمله داخله -كالبطولة والجمال وتبجيل الشعراء العظام أو القديسين- هو أحمق ودون كيخوتيّ. عظيم. وهذا بالضبط ما حصل معي، يا صديقي. لقد كنت فتاة موهوبة. خلقتُ لأعيش على أعلى مستوى، لأتوقع دورًا عظيمًا. كان يمكن أن أكون زوجة ملك، أو عشيقة رجل ثوري، أو أخت عبقري، أو أمّ شهيد. أما الحياة فلم تسمح لي إلا بهذا، أن أكون مومسًا ذات ذوق رفيع جدًا، وحتى هذا كان وضعًا صعبًا جدًا. هكذا جرت الأمور معي في الفترة الأولى، ما كان لشيء أن يعزيني، وبقيت ردحًا طويلاً أضع اللوم على نفسي. قلت في نفسي: لا بد أن تستقيم الحياة معي في نهاية المطاف، فإذا هزأت الحياة من أحلامي، هكذا رحت أقول، فإن أحلامي هي الحمقاء والعنيدة. لكن ذلك لم يفدني بشيء. وبما أني أمتلك عينين وأذنين وأتمتع أيضًا بقدر من الفضول، رحت ألقي نظرة متفحصة على هذه التي تسمّى الحياة وإلى جيراني ومعارفي، إلى خمسين أو نحو ذلك منهم وإلى مصائرهم، ومن ثم رأيتك. وأدركت أن أحلامي كانت على حق ألف مرة ومرة، تمامًا كأحلامك. لقد كان الواقع والحياة هما المخطئان. كان صحيحًا نسبيا أن امرأة مثلي لا خيار لها غير أن تتقدم في السن وهي فقيرة تعيش حياة لا طعم لها أمام آلة كاتبة تتلقى راتبًا من جامع ثروة، أو أن تتزوج رجلاً طمعًا في ماله، أو أن تغدو عاملة كادحة، أما بالنسبة إلى رجل مثلك فلا خيار أمامه إلا أن يُقحَم داخل عزلته ويأسه ويلتمس

العون من موسى حلاقة. لعل مشكلتي كانت أكثر أموميّة وأخلاقية ومشكلتك كانت روحية أكثر، لكن الاتجاه هو نفسه. أتظن أني لا أفهم رعبك من رقصة الفوكس–تروت، وبغضك للحياة ولصالات الرقص، ومقتك لموسيقى الجاز وبقية الأشياء؟ إنني أفهمها كل الفهم، وكرهك للسياسة أيضًا، وقنوطك من الثرثرة وتصرفات الأحزاب والصحافة الشاذة وغير المسؤولة، ويأسك من الحرب، تلك التي انتهت وتلك التي ستنشب، ومن كل ما يفكر فيه الناس هذه الأيام، ويقرؤونه وينشؤونه، ومن الموسيقى التي يعزفون، والاحتفالات التي يقيمون، والثقافة التي ينشرون. أنت على حق، يا ذئب السهوب، على حق ألف مرة ومرة، ومع ذلك فيجب أن نفنى. إنك شديد النهم إلى هذا العالم المعاصر البسيط، والمتمهل، والذي يرضى بسهولة. وأنت من أصحاب الأبعاد المتعددة والكثيرة جدًا. ومن يرغب في أن يعيش حياته اليوم ويستمتع بها لا يجب أن يكون مثلي ومثلك. من يطلب الموسيقى بدل الضجيج، والفرح بدل اللذة، والروح بدل الذهب، والعمل الخلاق بدل العمل التجاري، والشغف بدل الحماقة، لا يجد مأوى له في عالمنا التافه هذا».

أطرقت واستغرقت في التأمل.

هتفتُ برقة: «هرمينه، يا أختاه، ما أصفى بصيرتك! ومع ذلك علّمتني رقصة الفوكس – تروت! ولكن ماذا تعنين بقولك إن أمثالنا من أصحاب الأبعاد المتعددة لا يستطيعون أن يعيشوا هنا؟ وما سبب ذلك؟ أهو فقط حال أيامنا هذه، أم أن الأمر كان كذلك دائمًا؟».

«لا أدري. إكرامًا للعالم سأفترض أنه فقط حال زماننا هذا، إنه مرض، إنها محنة مؤقتة. إن قادتنا يبذلون أقصى جهودهم، وبنجاح، لكي يوجدوا أسباب قيام الحرب التالية، في حين أن بقيتنا، في تلك الأثناء، يرقصون الفوكس– تروت، ويكسبون المال ويأكلون الحلوى، في

زمن كهذا لا بد للعالم من أن يظهر بمظهر مخز، فلنأمل في أن أزمنة أخرى كانت أفضل حالاً. ولكن هذا لن يفيدنا الآن. ولعل الوضع كان هكذا دائمًا».

«كان دائمًا كما هو الآن؟ عالم مخصص دائمًا للسياسيين والاستغلاليين، للنُدّل والباحثين عن اللذة، دون أن يجد فيه الرجال نسمة هواء؟».

«في الواقع لا أدري. لا أحد يدري. على أي حال، الأمر سواء. لكنني الآن أفكر في أثيرك الذي حدثتني عنه أحيانًا، وقرأت لي، أيضًا، بعضًا من رسائله، في موتسارت. كيف كان الوضع في أيامه؟ من كان يمسك بزمام الأمور في زمنه ويحكم الجماهير ويوجه السلوك العام وكان له وزنه؟ أكان موتسارت أم التجار، أموتسارت أم الإنسان العادي؟ وكيف مات ودفن؟ أقصد أنه ربما كان الحال هو نفسه دائمًا وسيظل كذلك، وأن ما يسمّى بالتاريخ في المدرسة، وكل ما نتعلمه عن ظهر قلب هناك عن الأبطال والعباقرة والمآثر العظيمة والمشاعر الراقية، ما هو إلا خداع لفّقه أساتذة المدارس لأسباب تثقيفية قصد شغل وقت الأطفال على مدى عدد من السنين. هكذا كان الحال دائمًا وهكذا سيظل دائمًا. إن الزمن والعالم، المال والسلطة، تخص الصغار من الناس والسطحيين. أما الباقون، الرجال الحقيقيون فلا ينتمون إلى أي شيء إلا إلى الموت».

«ولا شيء آخر؟».

«نعم، إلى الأبدية».

«تقصدين الاسم، وشهرته بين الأجيال الطالعة؟».

«لا، يا ذئب السهوب، ليس بالشهرة، هل لها أي قيمة؟ أتعتقد أن كل الرجال الحقيقيين كانوا مشهورين ومعروفين لدى الأجيال

اللاحقة؟».

«لا، طبعًا لا».

«إذن ليست الشهرة، الشهرة لا توجد بهذا المعنى إلا بقصد التثقيف، إنها مادة تخص أساتذة المدارس. لا، ليست الشهرة، إنها ما أسميه أنا الأبدية، الورعون يسمونها مملكة الرب. إنني أقول لنفسي: إننا نحن الذين نعاني في طرح الأسئلة ولنا أبعاد عديدة لا يمكننا أن نجد أية وسيلة للعيش إذا لم يتوفر لنا هواء آخر نتنفسه بعيدًا عن هواء هذا العالم، إذا لم تكن هناك أبدية خلف الزمان، وهذه هي مملكة الحقيقة. وموسيقى موتسارت تنتمي إلى هناك، إلى سُلالة من صنعوا العجائب وعانوا عذاب الشهادة وكانوا قدوة للناس. لكن صورة كل عمل حقيقي وقوة كل شعور حقيقي ينتميان إلى الأبدية بالقدر نفسه، على الرغم من أنه لا أحد يعرف هذا أو يراه أو يسجِّله أو يسلِّمه للأجيال القادمة، ففي الأبدية لا توجد أجيال طالعة».

«معك حق».

تابعتْ تقول بصوت متأمل: «إن الورعين قبل كل شيء يعرفون أكثر من غيرهم عن هذا. ولهذا السبب يُنَصَّب القديسون وما يسمى بطائفة القديسين، والقديسون يُقصد بهم الرجال الحقيقيون، إخوة المخلِّص الصغار. ونحن نسير باتجاههم على امتداد حياتنا، ومن خلال كل عمل طيب نقوم به، وعبر كل فكرة جريئة، وكل علاقة حب. كان الرسامون في الأزمان المبكرة قد وضعوا طائفة القديسين وسط سماء ذهبية، ساطعة، جميلة يسودها السلام، وهي ليست إلا ما عنيته قبل هنيهة عندما سميتها الأبدية، إنها المملكة القائمة على الجانب الآخر من الزمن والمرئيات. وإلى هناك ننتمي نحن، هناك بيتنا، ولأجله تكافح قلوبنا. ولهذا، يا ذئب السهوب، نتوق إلى الموت.

هناك ستقابل من جديد أصحابك غوته ونوفاليس وموتسارت، وأقابل أنا قدّيسيّ الأحباء، كريستوفر وفيليب النيري[1] وكلهم. هناك الكثير من القديسين الذين كانوا خطاة. حتى الخطيئة يمكن أن تكون سبيلاً إلى القداسة، والإثمُ والشرُّ. سوف تضحك مني، لكني كثيرًا ما أفكر في أنه حتى صديقي بابلو يمكن أن يكون قدّيسًا متخفيًا. آه، يا هاري، علينا أن نتعثر في الكثير من القذارة والخداع قبل أن نصل إلى بيتنا، وليس معنا من يقود خطانا، إن مرشدنا الوحيد هو شعورنا بالحنين إلى الوطن».

مع الكلمات الأخيرة كان صوتها قد عاد ينخفض من جديد ومن ثم ساد صمت السكينة في الغرفة. كانت الشمس الغاربة تضيء الأحرف المذهبة المطبوعة على أغلفة كتبي. ضممتُ رأس هرمينه بين يديّ، وقبّلت جبينها، وملتُ بخدي على خدها وكأنها أختي، وبقينا هكذا برهة. وهكذا تمنيت أن أبقى ولم أرغب في الخروج ذلك اليوم، لكن ماريا كانت قد وعدتني بلقائها في تلك الليلة السابقة ليوم الحفلة الكبرى.

لكن وأنا في طريقي للانضمام إلى ماريا كنت أفكر، ليس فيها، وإنما فيما قالته هرمينه. وخُيل إليّ أنه ربما ليس من بنات أفكارها بل أفكاري أنا. لقد قرأتها مستبصرا. استنشقتها ثم زفرتها، حتى أصبح لها شكلها الخاص وعادت إليّ وكأنها جديدة. كنت بشكل خاص شاكرًا لها فكرة الأبدية في ذاك الوقت بالذات. لقد كنت بحاجة إليها، فبدونها ما كنت لأستطيع أن أعيش ولا أن أموت. في ذلك اليوم، صديقتي هذه التي علمتني الرقص، كانت قد أعادت إليّ المعنى المقدس للماوراء، اللازمن، لعالمٍ له قيمة سرمدية وجوهره عُلوي.

---

(1) فيليب النيري (1515-1595): كاهن إيطالي (المترجم).

كان لا بد لي أن أستعيد ذكرى حلمي بغوته ورؤياي عن المتعالي العجوز عندما ضحك بطريقة وحشية جدًا، وألقى عليّ مزاحه بأسلوب الخالدين. ولأول مرة فهمت ضحك غوته، ضحك الخالدين. لقد كان ضحكًا بلا موضوع، كان خفة وصفاء بسيطين. وذاك هو ما يتبقى بعدما يجتاز رجلٌ حقٌّ كل آلام البشر وشرورهم وأخطاءهم وانفعالاتهم، وسوء فهمهم ويصل إلى الأبدية وإلى عالم المدى. والأبدية ما هي إلا خلاص الزمن، عودته إلى البراءة، إن صح التعبير، وتحوله من جديد إلى مدى.

ذهبت لملاقاة ماريا في المكان الذي اعتدنا أن نتناول فيه العشاء. غير أنها لم تكن قد وصلت بعد، كانت أفكاري ما تزال تستعيد الحديث الذي دار بيني وبين هرمينه، لقد بدت كل تلك الأفكار التي نشأت بيني وبينها حميمة جدًا ومعروفة، صيغت من ميثولوجيا وتخيلات تخصّني أنا بكاملها. الخالدون الذين يعيشون حياتهم في مدى لا زمني مغمورين بالبهجة متجددين وهائمين في أبدية صافية كالأثير، والسطوع النجمي الهادئ والصفاء المشع من هذا العالم البعيد عن الأرض، كيف تأتّى لكل هذا أن يكون معروفًا بشكل حميم جدًّا؟ وبينما كنت أتأمل، تواردت إلى ذهني مقاطع من موسيقى موتسارت[1]، ومن مؤلف باخ «عازف البيانو معتدل المزاج»، وخيّل إليّ أنّ في هذه المقاطع الموسيقية تتغلغلَ إشعاعات من ذاك السطوع النجمي الهادئ ومن ارتعاش صفاء الأثير هذا. نعم، كانت موجودة فيها. كان في هذه الموسيقى شعور أشبه بزمن متجمد في المدى، وفوقه ارتعش صفاء أكبر من إدراك الإنسان، صفاء لا نهاية له، وترجّعَ ضحك علوي سرمدي. نعم، وكم كان غوته العجوز الذي تراءى لي في أحلامي مناسبًا لهذا

(1) Cassations: مقطوعات أوركسترالية خفيفة.

الجو. فجأة سمعت ترجيع الضحكة المبهمة يضجّ من حولي، سمعت الخالدين يضحكون. فلبثت في مكاني مسلوب اللب. تحسّست، وأنا مسلوب، داخل جيب صدرتي بحثًا عن قلم رصاص، وأثناء بحثي عن ورقة رأيت غلاف زجاجة النبيذ موضوعا على الطاولة. فقلبتها وكتبت على الظهر. كتبت أبياتًا شعرية، ثم نسيت أمرها، إلى أن كان يوم اكتشفت وجودها في جيبي. وكانت ما يلي:

الخالدون

تتصاعد إلينا وديان الأرض

متدفّقة باستمرار من اصطخاب الحياة المحموم

وفيض الثراء، وحنق الندرة

على شفير المشنقة يطهو الموت طعامه

دخان يتصاعد

نهم لا يشع، شبق يتشجّى

أيدي قتلة، أيدي مرابين، أيدي مصلّين

الحشد الإنساني يزفر أنفاسًا كريهة

يجرف الخوف والنشوة، دم سائل، دم دافئ

يتنفس خنادق وهياجات همجية

يأكل نفسه ثم يتقيأ ما يأكله

يصنع حربًا وفنًا جميلاً

يزيّن بجنون أحمق منازل فاجرة تتلظى باللهب

متلاطمًا يتجه إلى خرابه

عابرا، في وهج درب المتعة،

سوق التفاهة المعروضة في الواجهات
يغوص حين يواريه الثرى ثانية
أما نحن المرتفعون فوقكم باقون أبدًا
في نجم الأثير ثلجًا شفافًا
لا نعرف نهارًا ولا ليلاً ولا تقطيع الزمن
لا نبلى ولا نشيخ ولا جنس لنا
كل آثامكم وآلامكم رعب يخصّكم وحدكم
جرائمكم ومتعكم الداعرة
ليست إلا فرجة بالنسبة إلينا
كالشموس التي تدور
جاعلة أطول يوم يدوم أبدًا
نتلصص على حياتكم المسعورة
ومن ثم نروّح عن أنفسنا
بالنجوم التي تفرّ بانتظام
أنفاسنا شتاء في نظرنا
تتملق تنين السماء
وجودنا الأبدي بارد وثابت
ضحكنا الأبدي بارد وساطع كالنجم

ثم جاءت ماريا، وبعد جلسة عشاء بهيجة رافقتها إلى غرفتها الصغيرة. وفي تلك الأمسية كانت أكثر جمالاً منها في أي وقت آخر وأكثر دفئًا وقربا. والحب الذي منحتني إيّاه جعلني أشعر أنه الانغماس الأكمل من فرط رقّته، قلت: «ماريا، إنك اليوم معجزة كالآلهة. لا

تقتلينا نحن الاثنين، فغدًا هو يوم الحفلة. من هو فارسك غدًا؟ أخشى كثيرًا أن يكون من الجان، يحملك ويطير بك فأفقدك إلى الأبد. إن حبك هذه الليلة جدير بعاشقين مخلصين بينهما وداع أخير».

قرّبت شفتيها من أذني وهمستْ:

«لا تقل هذا، يا هاري. إن أي وقت يمكن أن يكون آخر لقاء. إذا أخذتك هرمينه، فلن تعود إليّ أبدًا. وقد تأخذك غدًا».

على امتداد حياتي، لم أكن قد خبرت شعورًا مماثلا لذاك التبدل الغريب، المر–الحلو، في المزاج، أقوى مما فعلت في تلك الليلة السابقة ليوم الاحتفال. إن ما مررت به عندئذ كان سعادة. كان جمال ماريا ومثولها طوع أمري. هكذا هي السعادة الحسية المرهفة والعذبة باستنشاق مئة متعة من الحواس وتذوقها، حواس كدت لا أتعرّف إليها إلاّ الآن وأنا رجل كهل. لقد كنت أتمرغ في نشوة عذبة كما في بحيرة رقراقة. ومع ذلك فلم أكن إلا في صَدَفَة. داخلها، كان كل شيء ذا مغزى ومشحونًا بالقدر. وبينما كنت منهمكًا وأنا متيّم وواهن بأشياء الحب اللذيذة والعذبة والصغيرة، وغائبًا بوضوح وأنا خالي البال معانقا السعادة، كنت طوال الوقت واعيًا في قرارة قلبي كيف أن قدري يعدو مسرعًا بجنون، يعدو كحصان مذعور في سباق، متّجهًا رأسًا نحو الهاوية السحيقة، يستحثه الرعب والاشتياق نحو اكتمال الموت. وكما كنت قبل زمن قصير قد كافحت، بخوف وحياء، الحب الحسي المحض بعبثه الممتع وشعرت برعب من جمال ماريا الذي عرض نفسه عليّ ضاحكا، كذلك عندئذ شعرت برعب من الموت، إلا أنه كان رعبا واعيًا بتبدُّله الوشيك في استسلام وانعتاق.

حتى عندما كنا غارقين في صمت حبّنا وانهماكنا العميق فيه، وكلّ منّا يشعر بانتمائه أكثر إلى الآخر، فإن روحي ألقت تحية الوداع

على ماريا، واستأذنت بالرحيل عن كل ما كانت تعنيه إلي. وكنت قد تعلمت منها، مرة أخرى قبل النهاية، أن أقتصر كطفل على لهو الحياة السطحي، أن أسعى وراء المرح العابر، وأن أكون طفلاً وحيوانًا معًا في براءة الجنس، وهي حالة لم أعرفها (في مرحلة مبكرة من حياتي) إلا نادرًا وفي حالات استثنائية. فقد كانت حياة الحواس والجنس، دائمًا على الأرجح، مصحوبة بشعور مرير بالذنب، بمذاق حلو ولكن مرعب، مذاق فاكهة محرمة تجعل الإنسان الروحي يأخذ حذره. والآن ها هما هرمينه وماريا قد أدخلتاني هذه الجنة البكر، وحللتُ فيها ضيفًا شكورًا. ولكن قريبًا سيحين الوقت للتقدم. وكانت الحياة في هذه الجنة لذيذة جدًا ودافئة جدًا. وكان قدري أن أقوم بمحاولة أخرى للحصول على تاج الحياة عن طريق تكفير شعوري الدائم بالذنب. أما الحياة السهلة، الحب السهل، والموت السهل، فلم أقبلهم.

فهمت مما قالته الفتاتان لي أنه بالنسبة إلى الحفلة التي كانت ستقام في اليوم التالي، أو فيما يتعلق بها، فثمّتَ مباهج غير عادية ستجري وتهتكات. لعلها الذروة، ولعل ارتياب ماريا له ما يبرره. ولعل تلك الليلة كانت هي الأخيرة التي نقضيها نحن الثلاثة معًا، ولعل صباح اليوم التالي سيجلب معه فهمًا جديدًا للقدر. لقد كنت أضطرم شوقا، مقطوع الأنفاس من فرط الرعب. تشبثت بعنف بماريا، والتهب داخلي آخر تفجّر للرغبة دفعني إلى الركض في أرجاء جنتها، وتناولت قضمة أخرى من ثمرة شجرة الجنة حلوة المذاق.

عوّضت نهارًا ما خسرته من النوم ليلاً. وبعد أن استحممت عدت إلى المنزل وأنا معدم من التعب. أعتمت غرفة نومي، وبينما كنت أخلع ملابسي عثرت مصادفة على الأبيات الشعرية في جيبي، لكنني عدت فنسيتها، ونحّيتها جانبًا على الفور. ونسيت أمر ماريا وهرمينه وحفلة

الأزياء التنكرية واستغرقت في النوم على مدار الساعة. ولم أتذكر إلا بعد أن استيقظت من النوم في المساء وكنت أحلق ذقني أن الحفلة ستبدأ في غضون ساعة وأنه يجب أن أعثر على قميص رسمي. ورحت أتهيأ وأنا بمزاج رائق جدًا ثم خرجت لأتناول طعام العشاء.

كانت تلك أول حفلة تنكرية أشترك فيها. صحيح أنني في السابق كنت أحضر بين حين وآخر احتفالات مشابهة بل إنني أحيانًا كنت أجدها مسلّية جدًا، لكني لم أرقص قط. كنت فقط متفرّجًا. أما عن الحماس الذي كان الآخرون يتحدثون به ويعبّرون عن ابتهاجهم بها على مسمع مني، فكنت دائمًا أجد في ذلك أمرًا غريبًا. وها قد حان دوري أنا أيضًا لأجد هذه المناسبة مفعمة بالإثارة المسلية والمؤلمة. ولما لم يكن لدي شريكة أصطحبها، قررت أن لا أذهب إلا في وقت متأخر. بهذا، أيضًا، كانت هرمينه قد نصحتني.

مؤخّرًا كنت نادرًا ما أرتاد حانة «الخوذة الفولاذية»، ملاذي السابق، حيث كان المحبطون من الرجال يقضون أمسياتهم، غارقين في نبيذهم ومنهمكين في عيش حياة العزاب. وهي لا تناسب الحياة التي عشتها من ذلك الحين. لكني في تلك الأمسية وجدتني دون أن أدري أتوجه إليها. وبمزاج يتراوح ما بين الفرح والخوف فرضه القدر والفراق عليّ عندئذ. قبسٌ من ألم وجمالٍ صادرٌ عن أحداث من الماضي أصاب مرة أخرى كل المحطاتِ على امتداد رحلة حياتي الطويلة ومواضِع التأمل فيها، وكذلك أصاب الحانة الصغيرة، المعبأة بالدخان، ولم أعتبر أحدَ زبائنها إلا منذ عهد قريب، وشجعني المخدر البدائي الذي تحتويه زجاجة من نبيذها المحلي على قضاء ليلة أخرى في سريري الموحش وعلى احتمال الحياة يومًا آخر. وكنت قد تذوقت منذ ذلك الحين أنواعًا أخرى ومنبهات أقوى فعالية، ورشفت سمومًا

أحلى مذاقًا. وولجت الحانة القديمة وأنا أرسم ابتسامة على وجهي. فرحّبت صاحبة المحل بي، وكذا فعل بإيماءة من الرأس جمعُ الرّواد الصامتين. ثم أوصي لي بلحم دجاج مشوي، سرعان ما وضع أمامي. وتلألأ مشروب إلزاسر الرائق في الكأس الزجاجي القروي السميك. وكان للطاولات الخشبية النظيفة البيضاء والكسوة الخشبية الصفراء العتيقة مظهر ودّي. وأثناء تناولي الطعام والشراب انتابني ذاك الشعور بالتغير والتهدم وباحتفالات الوداع، ذاك الشعور الداخلي اللذيذ والمؤلم بكوني جزءًا حيًا في كل مشاهد حياتي المبكرة وأشيائها، والتي لم تكن بعد قد فارقتها، لكن الوقت قد حان. الإنسان المعاصر يسمّي هذا نزعة عاطفية. لقد فقد حب الأشياء غير الحسية، إنه لا يحب حتى أشد الأشياء قداسة بالنسبة إليه، سيارته، وإنما يأمل على الدوام في أن يستبدلها في أقرب فرصة ممكنة بطراز أكثر حداثة. هذا الإنسان المعاصر يتمتع بطاقة وقدرة. هو سليم الجسم، هادئ ومتّقد النشاط، إنه نمط ممتاز، وخلال الحرب القادمة سوف يكون معجزة في الفعالية. ولكن كل ذلك لم يكن يثير اهتمامي، فلم أكن إنسانًا معاصرًا، ولا حتى عتيق الطراز. لقد كنت قد أفلتُّ من الزمن كله، وانطلقت في طريقي الخاصة، واتخذت الموت رفيقي والموت قراري. ولم يكن لدي أي اعتراض على المشاعر العاطفية. كان يسعدني ويشعرني بالامتنان أن أعثر على أثر لأي شيء متخلف في قلبي المحترق يشبه الإحساس. وهكذا تركت العنان لذكرياتي عن الحانة العتيقة وارتباطي بالكراسي الخشبية الصلبة وبرائحة الدخان والنبيذ وجو الضرورة والحاجة والدفء والألفة التي جرفها المكان إليّ. ثمت جمال في لحظات الوداع ورقة في قلب نبرتها. لقد كان المقعد القاسي عزيزًا عليّ وكذا كان الكأس الزجاجي القروي ومذاق مشروب إلزاسر

الطيب البارد وشعوري بالمودة نحو كل ما يحتويه ذاك المكان، ووجوه الشاربين المنحنية والحالمة. أولئك المحبطون الذين كنت أخًا لهم منذ أمد بعيد. كل هذا كان نزعة عاطفية بورجوازية، ملطفة بلمسة خفيفة من رومانسية الحانات عتيقة الطراز، رومانسية منحدرة من عهد فتوتي عندما كان ارتياد الحانات وشرب النبيذ وتدخين السيجار ما يزال من المحرمات، أقول كل هذا كان غريبًا ورائعًا. ولكن لم يبرز أمامي ذئب سهوب، مكشّرًا عن أنيابه ليمزق نزعتي العاطفية إربًا. وجلست هناك في سلام على وهج الماضي الذي كان غروبه ما يزال يلقي أثرًا واهيًا من وهجه.

دخل بائع جوال، فاشتريت منه حفنة من الكستناء المشوية، ثم دخلت سيدة عجوز تحمل أزهارًا، فاشتريت باقة من البنفسج، وقدمتها إلى صاحبة المحل. ولم أدرك مرة ثانية أني أرتدي بزتي المسائية إلا عندما أوشكت أن أدفع قيمة الفاتورة، وفتشت عبثًا عن جيب المعطف الذي اعتدت أن ألبسه، إنها حفلة الأزياء التنكرية وهرمينه!

مهما يكن، كان الوقت ما يزال مبكرًا. ولم أتمكن من إقناع نفسي بالتوجه إلى «غلوب رومز» مباشرة. وشعرت أيضًا، كما كنت قد شعرت في حالة كل المسرات التي صادفتها مؤخرًا، بمجموعة كاملة من المعوقات والمفارقات. ولم أكن أحبّذ الدخول إلى الأماكن الكبيرة والمزدحمة وكثيرة الضجيج، وكان يتملكني حياء تلميذ مدرسة من الجو الغريب وعالم اللهو والرقص.

بينما كنت أتابع تجوالي مررت بدار للسينما بأضوائها المبهرة، وملصقاتها الضخمة الملونة. ومشيت بضع خطوات في طريقي، ومن ثم استدرت ثانية وولجت. هناك كان في استطاعتي أن أجلس بهدوء وارتياح وسط العتمة وحتى الساعة الحادية عشرة. تبعت المرافق مع

مصباح الجيب إلى الصالة المظلمة، وأنا أتعثر بين الستائر، وعثرت على مقعد، وفجأة وجدتني وسط العهد القديم. وكان الفيلم هو أحد تلك الأفلام التي لا تبغي رسميًا الربح المادي. فقد أنفق عليها بسخاء في التكاليف والتحسينات من أجل قضية أنبل وأكثر قداسة، وعند الظهيرة يُجلب حتى أولاد المدارس لمشاهدتها مع أساتذة الديانة. وكان هذا يحكي قصة موسى بني إسرائيل في مصر، وقد استُخدم حشدٌ هائل من الرجال والجياد والجمال والقصور وكل أبهة الفراعنة ومحن اليهود في الصحراء. شاهدتُ موسى بهيئة مسرحية فخمة يجوب أرجاء الصحراء على رأس مجموعة من اليهود، بعينيه السوداوين المتقدتين وممسكًا بعصا طويلة وخطوة واسعة كخطى فوتان[1]. شاهدته وهو يصلي لله عند شاطئ البحر الأحمر، وشاهدت البحر الأحمر وهو يُشَق ويفسح ممرًّا فسيحًا، دربًا عميقة تمرّ بين جبال متراكمة من المياه (وكانت صفوف التصديق التي يعدّها رجال الدين لمشاهدة هذا الفيلم الديني تناقش مطولاً، كيف تمكن معدو الفيلم من فعل ذلك). وشاهدت النبي وشعبه المذعور يعبرون إلى الطرف الآخر، ومن خلفهم شاهدت عربات فرعون الحربية تلوح من بعيد، والمصريون يتوقفون ويجفلون عند حافة البحر، ومن ثم، عندما غامروا بالتقدم بإقدام، شاهدت المياه المتشامخة كالجبال تنغلق فوق رأس الفرعون بكل روعةِ زخارفه الذهبيةِ وفوق كل عرباته وكل رجاله، متذكرًا، وأنا أشاهده، الأغنية الثنائية الرائعة التي وضع موسيقاها الموسيقي هاندل لصوتين من طبقة القرار والتي تحكي بشكل فاتن هذه الحادثة. ثم شاهدت موسى يرتقي جبل سيناء، وهو بطل متجهم وسط برية صخرية متجهمة. وتابعت المشهد لأرى يهوه يجيء إليه،

(1) فوتان: في الأساطير الجرمانية، هو رب الأرباب. (المترجم).

وسط العاصفة والرعد والبرق بالوصايا العشر، في حين أن شعبه الباطل يقيم العجل الذهبي عند سفح الجبل وينخرط في احتفالات معربدة نوعًا ما. وبدا لي غريبًا وأمرًا لا يصدق أن أتابع مشاهدة كل هذا، أن أرى الكتاب المقدس بكل ما يحتويه من أبطال وعجائب، ومصدر هبوط أول اشتباه علينا ونحن أطفال بوجود عالم آخر غير هذا، يُقدَّم بأجرٍ إلى جمهور ممتن يجلس بهدوء، ويأكل المؤونة التي جلبها معه من البيت. إنه بالفعل فيلم صغير جميل، منتقى بالمصادفة من التصفية الكبرى لكامل ثقافة هذه الأيام! يا إلهي، كم كان من الأفضل لليهود ولكل إنسان آخر، ناهيك عن المصريين، لو أننا بدل أن ننتهي إلى هذا المأزق كنّا فنينا في تلك الأيام سريعا بموت عنيف ولائق، بدل هذا الادعاء بالموت البطيء الذي نمر به في هذه الأيام. نعم، وحق الرب!

لم تخفّف مشاعري التي أثارها لدي الفيلم السينمائي بأي حال ضغوطاتي السرية وخوفي غير المعلن إزاء حفلة الأزياء التنكرية. بل على العكس، لقد تضخمت إلى أبعاد مزعجة، وكان لا بد لي أن أنتفض وأفكر في هرمينه قبل أن أتمكن من التوجه إلى «غلوب رومز» وأتجرأ على الدخول. كان الوقت متأخرًا، والحفلة قد وصلت إلى أوجها منذ وقت طويل. وعلى الفور وحتى قبل أن أخلع ثيابي الزائدة وجدتني عالقًا، وأنا الحيي والرزين، وسط دوامة الحشد المقنّع. راحوا يخاطبونني برفع الكلفة. نادتني الفتيات للحضور إلى قاعاتٍ شرب الشمبانيا. وصفعني المهرجون بتحبّب على ظهري، وكنت أُعَامَل من كل جانب كما لو أني صديق حميم. ولم أتجاوب قط مع كل ذلك، وإنما شققت طريقي خلال الغرف المزدحمة قاصدًا غرفة الملابس، وبعد أن حصلت على بطاقتي الخاصة بغرفة الملابس، وضعتها في جيبي

بعناية فائقة، معتقدًا أني قد أحتاج إليها قبل مرور وقت طويل بعد أن أملّ الهدير.

كان كل جزء من البناء الضخم مكرّسًا للاحتفالات. فكان الرقص جاريًا في كل غرفة وفي الطابق التحتي أيضًا والأروقة، والدرج كان مملوءا عن آخره بالأقنعة والرقص والموسيقى والضحك والجلبة. شعرت بانقباض في قلبي فتسللت خلال الحشد، منتقلاً من فرقة السود الموسيقية إلى فرقة القرويين، ومن القاعة الرئيسية الكبيرة المضاءة بأنوار برّاقة إلى الممرات ومنها إلى الدرج، ثم البارات فالموائد المفتوحة وصالونات شرب الشمبانيا. وكانت الجدران مغطاة في معظمها بلوحات بهيجة وصارخة رسمها أحدث الفنانين. كان العالم كله مجتمعًا هناك. فنانون، صحافيون، أساتذة جامعات، رجال أعمال، وطبعًا كل طالب متعة في البلد. وفي إحدى الفرق الموسيقية كان بابلو جالسًا، ينفخ بحماس في فم الآلة الموسيقية المنحني. وحالما رآني هتف عاليًا يحييني. ورحت أتلاطم وسط الحشد إلى هنا وهناك وإلى أن وجدتني أتنقل من غرفة إلى أخرى، صاعدًا درجًا هنا وهابطًا آخر هناك. وكان رواق في الطابق التحتي مزدحمًا بالفنانين وكأنه خشبة مسرح جهنمية تمثل عليها بعنف عصبة من الشياطين. وبعد قليل، أخذت أبحث عن هرمينه أو ماريا، وجاهدت مرارًا وتكرارًا لأصل إلى الصالة الرئيسية، ولكن كنت إما أضيِّع طريقي أو أجابه السيل العارم.

بحلول منتصف الليل لم أكن قد عثرت على أي منهما، وعلى الرغم من أني لم أرقص فإني كنت أشعر بالحر والدوار. فارتميت على أقرب كرسي بين مجموعة من الغرباء تمامًا عليّ. طلبت بعض النبيذ، وتوصلت إلى نتيجة مفادها أن الانضمام إلى مثل هذه

الاحتفالات الفظة لا تليق برجل كهل مثلي. رحت أشرب ما في كأسي وأنا أحدّق إلى أذرع النساء وظهورهن العارية، وراقبت الحشد ذا الأشكال المقنعة بشكل عجيب تتداح مارة بي، ورفضت بصمت عروض فتيات أبدين رغبتهن في الجلوس على ركبتي أو في أن أرقص معهن، ونعتتني إحداهنّ بـ«متذمر عجوز». وكانت على حق. ثم قررت أن أرفع من روحي المعنوية بشرب النبيذ، ولكن حتى النبيذ تآمر ضدي، ولم أتمكن من جرع كأس أخرى. ومن ثم أخذ يستولي عليّ إحساس بأن ذئب السهوب واقف خلفي ولسانه مدلّى. لا شيء سرَّني. لقد لجأت إلى المكان الخطإ. إني حتمًا قدمت تحدوني أفضل النوايا، لكن هذا المكان لم يكن المناسب لي لأمرح فيه وكل فوران السرور ذاك والضحك والحماقات التي رأيتها في كل ناحية، بدت لي متكلفة وسخيفة.

طفح الكيل، وعند قرابة الساعة الواحدة اتخذت طريقي، وقد تولاني الغضب وخيبة الأمل متّجهًا إلى غرفة الملابس لكي أرتدي معطفي من جديد وأخرج، وكان ذلك استسلامًا وارتدادًا إلى ذئبيتي، وما كانت هرمينه لتسامحني. لكن لم يكن أمامي حل آخر، كنت وأنا أشق طريقي خلال الحشد إلى غرفة الملابس، ما أزال أبحث بنظري بعناية لعلي ألتقي بإحدى صديقتيَّ، ولكن عبثًا. ثم وجدتني واقفًا عند طاولة الخادم، فمدّ يده لي بتهذيب طالبًا الرقم. تحسست جيب صدرتي، لم أعثر على الرقم ! يا للشيطان، هذا ما كان ينقصني ! إنني أثناء تجوالي اليائس خلال الغرف وأثناء جلوسي مع نبيذي الذي لا طعم له كثيرًا ما كنت أتحسس داخل جيبي، وأقاوم قراري بالرحيل، وكنت دائمًا أعثر على الإيصال المسطح المستدير في مكانه. والآن ها هو قد ضاع. إن كل شيء كان يعاندني.

ثم تناهى إليّ صوت حاد من شيطان ضئيل الحجم ملون بالأحمر

والأصفر واقف قربي: «أأضعت رقمك؟ هاك، يا رفيقي، خذ رقمي»، ومدّ يده إليّ دون أن يزيد كلمة أخرى، وبينما كنت أتناوله منه بحركة آلية وأقلّبه بين أصابعي إذ بالمخلوق الضئيل الخفيف يختفي بسرعة.

بيد أني عندما تفحصت الورقة الكرتونية بحثًا عن رقم، لم أر عليه أي رقم. وبدل ذلك كانت هناك كتابة عجلى بخط يد دقيق. فطلبت من الخادم أن ينتظر، وذهبت إلى أقرب مصدر ضوء لأقرأه. فوجدت هناك كتابة مخربشة لا تكاد تكون مقروءة بأحرف صغيرة جنونية:

هذا المساء في المسرح السحري

للمجانين فقط

ثمن الدخول - عقلك

هرمينه موجوده في الجحيم

كما تستيقظ دمية ترك محرِّكُها خيطها برهة على حياة جديدة بعد أن شلَّها الموت والغيبوبة فترة وجيزة وتعود لتلعب دورها المفعمَ بالحياة، كذلك فعلتُ أنا عندما اهتز هذا الخيط السحري خلالي بمرونة الشباب وتلهُّفِه حتى غصت في الجلبة التي كنت قد انسحبت منها لتوّي بفتورِ سنواتِ الكهولةِ وضجرها. ولا أعرف قط مذنبا أبدى من السرعة في الالتحاق بالجحيم كما فعلت. قبل قليل كان حذائي الجلدي المصقول يسبب لي الحك، والهواء ذو الرائحة القوية يثير اشمئزازي، والحرارة ترهقني. أما الآن فرحتُ وكأنما بقدمين مجنحتين أرقص برشاقة رقصة «الخطوة الواحدة» خلال كل غرفة في طريقي إلى الجحيم. كان الهواء نفسه مفعمًا بالسحر. وغمرني الدفء وساقني قدمًا، وكذا فعلتْ الموسيقى الصاخبة والألوان المسكرة

والعطر المنبعث من أكتاف النساء، وجلبةُ مئةِ لسان، والضحك، وإيقاع الرقص والنظرات الخاطفة من كل العيون المملوءة حيوية. ارتمت فتاة ترقص رقصة إسبانية بين ذراعي، وقالت: «ارقص معي!»، فقلت: «لا أستطيع، أنا متوجه إلى الجحيم، ولكن يسعدني أن أقبّلك»، فتلاقت الشفتان الحمراوان المقنعتان مع شفتي، فعرفت من القبلة أنها ماريا، فضممتها بقوة بين ذراعيّ، وتفتحت شفتاها المكتنزتان كوردة في شهر حزيران. وعندئذ كنا نرقص، ولا تزال شفاهنا متضامّة. ومررنا ببابلو ونحن نرقص، كان يميل كعاشق فوق آلته الموسيقية الآنّة بنعومة، فعانقتنا تينك العينان الحيوانيتان الجميلتان بتوقدهما شبه الشارد، ولكن قبل أن نبتعد مسافة عشرين خطوة سكتت الموسيقى فجأة، وحرَّرتُ ماريا آسفًا.

قلت وقد أسكرني دفؤها: «كنت أحب أن أرقص معك ثانية. تعالي رافقيني خطوة أو خطوتين يا ماريا. إني عاشق لذراعك الجميلة. دعيني أملكها مدة أطول ! ولكن، في الواقع، لقد استدعتني هرمينه، إنها في الجحيم».

«هذا ما حسبته. الوداع، يا هاري، لن أنساك أبدًا». وغادرتني — غادرتني بكل معنى الكلمة. نعم، إن الخريف، القدر، هو الذي يهبُ وردة الصيف العطرَ الأكمل والأينع.

تابعت طريقي خلال الأروقة الطويلة، المملوءة بالعناقات الرقيقة، وهبطت الدرج إلى الجحيم. وهناك، على جدران سوداء فاحمة كانت تسطع أضواء مبهرجة خبيثة، وكانت فرقة موسيقية من الشياطين تعزف عزفًا محمومًا. وعلى مقعد بلا ظهر عند البار جلس شاب صغير غض يضع قناعًا ويرتدي ملابس سهرة تفحَّصني بنظرة خاطفة وساخرة. وضغطتني دوامة من الراقصين إلى الجدار، كان

نحو عشرين زوجًا يرقصون في تلك المساحة المحصورة بالذات – ورحت أستعرض كل النسوة اللواتي في حالة ترقب متلهِّف. وكانت أغلبهن مايزلن يضعن الأقنعة وكنّ يبتسمن لي، ولكن لم أجد أثرًا لهرمينه. ورماني الشاب الوسيم الجالس على المقعد العالي بنظرة ساخرة. وقلت في نفسي، عندما تسكت الموسيقى في المرة التالية سوف تأتي وتستدعيني. وانتهت الرقصة ولم يأت أحد.

تقدمت من البار المحشور في إحدى زوايا الغرفة الصغيرة والواطئة، واتخذت مجلسًا بجوار الشاب، وطلبت كأسًا من الويسكي. وبينما كنت أترشّف رأيت جانب وجهه. كان يتصف بسحر مألوف، كصورة من زمن آفل، صورة ثمينةٍ بكلّ ما تراكم عليها من الماضي. آه، لمعت الذكرى في ذهني. إنه هرمن، صديق شبابي.

تلعثمتُ قائلاً: «هرمن!».

ابتسمت. قالت: «هاري؟ أعثرت عليّ؟».

لقد كانت هرمينه، متخفية بطريقة تصفيف شعرها وبقليل من الصباغ. وأضفت الياقة الأنيقة مظهرًا شاذًا على شحوب وجهها الذي ينمّ عن ذكاء، والكُمَّان الأسودان الواسعان لسترتها الرسمية وطرفا الكمَّين الأبيضين جعلا يديها تبدوان صغيرتين بشكل غريب، والبنطال الأسود الطويل أضفى أناقة غريبة على قدميها المنتعلين الجورب الحريري الأبيض والأسود.

«أهذا هو الزي، يا هرمينه، الذي تنوين أن توقعيني بواسطته في حبك؟».

قالت: «حتى الآن كنت أكتفي بإدارة رؤوس السيدات، أما الآن فقد جاء دورك. فلنشرب أولاً كأسًا من الشمبانيا».

وفعلنا، ونحن جالسان على مقعدينا العاليين، بينما الرقص دائر

من حولنا على وقع للآلات الحيوي والمحموم. وسرعان ما وجدتني غارقًا في حب هرمينه، حتى دون أن يبدو أنها تبذل أدنى جهد لتحقيق ذلك. وبما أنها كانت ترتدي ملابس فتى، فلم أتمكن من أن أرقص معها، ولا أن أسمح لنفسي بأن أتقدم بأي عرض رقيق، وعلى الرغم من أنها بدت وهي في تخفّيها الذَّكري باردة وغير واضحة الجنس، إلا أن نظراتها وكلامها وإيماءاتها سربلتني بكل ما فيها من فتنة أنثوية. ودون أن أقوم بأي محاولة للمسها استسلمتُ لسلطان سحرها، وظل هذا السحر ذاته محصورًا داخل الدور الذي كانت تلعبه. كان سحر خنثى. فقد حدثتني عن هرمن وعن الطفولة، طفولتي وطفولتها، وعن تلك السنين من الطفولة عندما تعانقُ القدرة على الحب، في أول عنفوانها، ليس فقط كلا الجنسين، وإنما كل الأشياء، الحسية منها والروحية، وتَهِبُ كل شيء مع شحنة من الحب، ولا يحدث من جديد تحوّل سهل كالسحر كالذي يقع في سنوات لاحقة، إلا بالنسبة إلى الصفوة المختارة ونادرا إلى الشعراء. وكانت طوال الوقت تحافظ على دورها باعتبارها شابا، تدخن السجائر وتتكلم بسهولةٍ جريئة غالبًا ما تنطوي على قدر من السخرية، ومع ذلك فكان كل شيء يتقزّح بأشعةِ الرغبةِ ثم يتحوَّل لدى بلوغه حواسي إلى غواية آسرة.

كم حسبت أني عرفت هرمينه معرفة شاملة كاملة، ومع ذلك كم تجلّت لي في تلك الليلة برؤيا جديدة تمامًا ! وبأيّ رقّة وغموض ألقت حولي شباكها التي طالما تقت إليها، ولكم سقتني السمّ الشافي من الملاعبة الجدية مثل جنّيّة!

جلسنا وتحدثنا وشربنا شمبانيا، وتمشينا حول الغرف وتفرجنا على ما يجري من حولنا. وجُلنا فيما يشبه رحلات الاستكشاف لنكتشف عشّاقًا سرًّنا أن نتلصص على مضاجعاتهم. وأشارت إلى

نساء أوصتني بالرقص معهن، ونفحتني بنصائح حول أساليب الانقضاض الواجب استخدامها مع كلٍّ منهنّ. واستولينا على حلبة الرقص كمتنافسين، وتوددنا بعض الوقت إلى الفتاة نفسها، ورقصنا معًا كلّ بدوره، وحاولنا معًا أن نأسر قلبها. ومع ذلك فكل هذا لم يكن غير احتفال، غير لعبة تجري بيننا نحن الاثنين جعلتنا أكثر تقاربًا في شغفنا. لقد كان كل شيء أشبه بحكاية خرافية. كل شيء كان له بُعد جديد، معنى أعمق. كل شيء كان مترعًا بالخيال والرمز. وكان ثمت فتاة واحدة تتصف بجمال أخّاذ ولكن يحيط بها جو من المأساة والتعاسة. رقص هرمن معها، وجعلها تتفتح. وتواريا معًا ليشربا الشامبانيا، وقد أخبرتني لاحقًا أنها قد انتزعت حبها ليس بوصفها رجلاً، وإنما امرأة، بعون من سحر ليسبوس. أما بالنسبة إليّ، فقد أخذ البناء برمّته، ذلك المكان الذي كان هدير الرقص يدوّي في كل أرجائه، وحشد الأقنعة الثملة كله يغدو بالتدريج حلمًا ضاريًا بالجنة. حيث الأزهار زهرة فزهرة تتودد إليّ بعطرها، وأنا أعبث بالفاكهة واحدة بعد أخرى، والأفاعي ترمقني بنظراتها من بين الظلال الخضراء والورقية بعيون مسمّرة، وأزهار اللوتوس تتفتح يانعة فوق سطح المستنقعات السوداء، والطيور المسحورة تصدح غواية من الأشجار. ومع ذلك كان كل شيء يشكل تقدمًا نحو هدف واحد مُرتَقب، يستدعي توقا جديدا إلى واحد أحد. ومرة كنت أرقص مع فتاة لا أعرفها، وقد انسبْتُ معها بحماسة عاشق ملتهب إلى دوامة الراقصين المدوخة وبينما نحن هائمان في هذا العالم الوهمي، علّقت فجأة وهي تضحك:

«لا يكاد المرء يعرفك. لقد كنتَ من قبل بليدًا جدًا ومملاً». ثم لمحت الفتاة التي نعتتني بـ «المتذمر العجوز» قبل بضع ساعات. وحسبت

أنها قد نالت مني الآن، ولكن بحلول الرقصة التالية كان شوقي المتقد قد اتجه نحو فتاة أخرى. وظللت أرقص دون توقف على مدى ساعتين أو أكثر كل الرقصات، حتى تلك التي لم أكن قد رقصتها من قبل. وكانت هرمن تقترب مني بين حين وآخر، وتومي إليّ وتبتسم أثناء غيابها وسط الحشد.

خلال ليلة الحفلة هذه مررت بتجربة لم أمرّ بمثلها طوال سنوات عمري الخمسين، مع العلم أن الصغير والكبير يعرفها، إنها ثمالة الاحتفال العام، واندماج الشخصية الفردية الغامضة في الجمهور الغفير، واتحاد الفرح الصوفي. وكثيرًا ما كنت أسمع كلامًا حول هذا. وكنت أعلم أن كل خادمة تعرفه. ولطالما لاحظت ذاك البريق في عيون الذين حكوا لي عنه، وكنت دائمًا أقابله بابتسامة هي مزيج من التعالي والحسد. وعلى امتداد حياتي كنت قد شاهدت مرات كثيرة أمثلة أولئك الذي أثملتهم النشوة وحررتهم من ذواتهم، وتلك الابتسامة، ذاك الاستغراق شبه المجنون، لأولئك الذين دارت رؤوسهم بفعل حماسة مشتركة. رأيتها عند الجنود والبحارة السكارى، وأيضًا عند الفنانين العظام ربما وسط حماسة مهرجان موسيقي، ولا يقل ظهورها بين الجنود الشباب المتوجهين إلى الحرب. حتى في الأيام الأخيرة كنت قد أعجبت بل وأحببت وسخرت وأثار جسدي ذاك البريق والابتسامة اللذين ظهرا عند صديقي بابلو، وهو مائل فوق ساكسفونه في ثمالة منتهى السعادة يعزف مع الفرقة الموسيقية، أو عندما كان ينظر، في نشوة ووَجْد، إلى قائد الأوركسترا، أو ضارب الطبل أو عازف البانجو. وأحيانًا كان يتبدى لي أن تلك الابتسامة، وذاك التألق الطفولي لا يحدثان إلا مع أشخاص في سن صغيرة جدًا أو بين أناس لا تسمح تقاليدهم بوجود أي فروق كبيرة بين أفرادها.

أما اليوم، في هذه الليلة المباركة، كنت أنا نفسي، ذئب السهوب، متألقًا بهذه الابتسامة. أنا نفسي سبحت في سعادة خرافية، طفولية، عميقة. أنا نفسسي استنشقت الثمالة العذبة، ثمالة الحلم المشترك والموسيقى والإيقاع والنبيذ والشهوة الجسدية ، أنا، يا من كنت في أيام سابقة كثيرًا ما أنصت باستمتاع، أو بتعالٍ كئيب، إلى أحد الطلبة وهو يطريها في حديث داخل صالة الرقص. أنا لم أعد نفسي. لقد انحلَّت شخصيتي في ثمالة الاحتفال كانحلال الملح في الماء. رقصت مع هذه المرأة أو تلك، ولكن ليست المرأة التي كنت أضمها بين ذراعيّ ويحف شعرها بوجهي هي فقط من كانت تخصني، بل كل النساء الأخريات اللواتي كن يرقصن في المكان نفسه، والرقصة نفسها، وعلى وقع الموسيقى نفسها، وكانت وجوههن المتألقة تطفو مارة بي كأزهار وهمية، كنّ يخصننّي وكنت أنا أحضنهن. كل منا كان يحتوي على جزء من الآخر. والرجال أيضًا، كنت معهم. هم، أيضًا، لم يكونوا غرباء عني، ابتسامتهم كانت ابتسامتي، وتودّدهم كان تودّدي، والعكس بالعكس.

كانت رقصة جديدة، من نوع فوكس – تروت، عنوانها «توق»، قد اجتاحت العالم في ذاك الشتاء. وما إن سمعناها حتى لم نعد نملّ منها. وغرقنا فيها جميعًا وثملنا بها، وكان الجميع يدندنون لحنها كلما سمعوه. وكنت أرقص بلا هوادة ومع كل من أصادفه في طريقي، مع فتيات صغيرات جدًا، مع نساء في ريعان شبابهن أو في أواخره، ومع أولائي اللواتي فاتتهن كلتا المرحلتين، وكنت أهيم نشوة معهن جميعًا ضاحكًا، سعيدًا ومتألقًا. وعندما وجدني بابلو متألقًا هكذا، أنا الذي طالما اعتبرني شخصًا مسكينًا جدًّا يدعو إلى الرثاء، شعَّت عيناه بسعادة غامرة وهو ينتظرني، وتفتحت قريحته إلى درجة أنه نهض

واقفًا عن كرسيه، وصعد ليقف عليه وهو ينفخ بقوة وحيوية في بوقه. وأخذ ينفخ بكل ما أوتي من عزم من ذاك العلو، وفي الوقت نفسه كان جسمه كله ومعه آلته الموسيقية يتمايلان على وقع لحن «توق». وقلت في نفسي، في هذه الأثناء، فليحل بي ما يحل، فأنا أيضًا كنت ولو مرة في حياتي سعيدًا ومتألّقًا ومتحررًا من نفسي، وقرينًا لبابلو، وطفلاً.

كنت قد فقدت الإحساس بالزمن، ولا أدري كم من الساعات أو اللحظات دامت ثمالة السعادة. بل إني لم ألاحظ أنه كلما ازداد توهج نار الفرح الاحتفالي ضاقت حدود نطاقها. عندئذ كان معظم الناس قد غادروا، وران الصمت على الأروقة، وأطفأت أنوار كثيرة، وأقفر الدرج وفي الغرف العليا أخذت الفرق الموسيقية تكف عن العزف واحدة إثر واحدة وتغادر المكان. ولم يتواصل الهرج والقصف ويزداد إلا في القاعة الرئيسية وفي الجحيم أسفل. وبما أني لم أتمكن من أن أرقص مع هرمينه وهي بملابس فتى، فلم نلتق إلا بشكل عابر ما بين الرقصات. وأخيرًا غابت تمامًا عن ناظري، وليس فقط عن ناظري بل وتفكيري. ولم أعد أفكر في أي شيء. تهت في متاهة الرقص ودوامته. وكانت روائح العطور ونبرات الأصوات والتنهدات والكلمات تثيرني، والعيون الغريبة تحييني وتملأني حيوية، والوجوه الغريبة تكتنفني، وأحمَل إلى هنا وهناك على إيقاع الموسيقى كأنما على متن موجة.

ثم فجأة رأيت، وقد عدت جزئيًا إلى وعيي برهة، بين آخر من أبقوا على جو الاحتفال في إحدى أصغر الغرف، وملؤوها حتى فاضت بهم، وكانت الوحيدة التي ظلت الموسيقى تهدر فيها، أقول رأيت فجأة فتاة مقنعة بقناع مهرج أسود وقد صبغت وجهها باللون الأبيض. كانت نضرة وفاتنة، والوحيدة المقنعة الباقية، وكان مظهرها يأسر النظر، لم أكن قد شاهدته قط على امتداد سياق الأمسية بأكملها. وفي حين

أن أثر الساعة المتأخرة كان باديًا على كل شخص آخر على صورة وجوه متوردة ومتأججة بالحرارة وملابس متغضنة وياقات مترهلة وأخرى مكشكشة مجعدة. كانت المهرجة السوداء واقفة هناك نضرة ومرتبة الملابس ووجهها الأبيض ظاهر من تحت القناع. ولم يكن في زيها طيّة واحدة ولا شعرة واحدة في غير مكانها. وياقتها المكشكشة وطرفا كمّاها المدببان كانت سليمة. فاندفعت نحوها، وأحطتها بذراعيّ، وسحبتها للرقص، فدغدغت ياقتها المكشكشة المعطرة ذقني، وحفّ شعرها بوجنتي. واستجابت حيوية جسدها النابضة لحركاتي كما لم يفعل أحد في تلك الليلة، مستسلمة لها برقة داخلية ومجبرة إياها على القيام باتصالات جديدة بعبث أساليب إغوائها. وملت لأقبّل فمها ونحن نرقص. كانت الابتسامة المرتسمة عليه تعلن انتصارها وبدت مألوفة منذ وقت طويل. وفجأة لاحظت الذقن المكتنزة، والكتفين والذراعين واليدين. إنها هرمينه، ولم تعد هرمن. هرمينه بثوب آخر، نضرة ومعطرة وعلى وجهها مسحة خفيفة من المساحيق، وتلاقت شفاهنا بشغف. وتشبث كامل جسدها وحتى ركبتيها برهة بشوق واستسلام بجسدي. ثم أبعدت فمها وظلت هكذا، هاربة مني أثناء رقصنا. وعندما سكتت الموسيقى فجأة كنا ما نزال متشابكين حيث كنا واقفين. وراح كل الراقصين الذين تولتهم الدهشة يصفقون ويضربون الأرض بأقدامهم، ويهتفون. وحثوا أعضاء الفرقة المرهقين على إعادة عزف مقطوعة «توق». ومن ثم انتابنا شعور بأن الصباح قد طلع علينا، فقد رأينا النور الباهت يلوح من وراء الستائر. مما أنذرنا باقتراب نهاية المسرَّة ومنحنا أعراض الإرهاق الآتي. واندفعنا بيأس وتهوُّر، ونحن نطلق نوبات من الضحك، نرقص من جديد، ننساب مع الموسيقى، حتى أخذ ضوء النهار يغمر الغرفة. وتحركت أقدامنا

مع إيقاع الموسيقى كالممسوسين، ولامسنا كل الراقصين، ومرة أخرى شعرنا بموجة السعادة العظمى تتحطم علينا. وتخلت هرمينه عن هيئتها المنتصرة وسخريتها وهدوئها، لقد أدركت أنه لم يعد ثمت ما تفعله لتجعلني أحبها. لقد كنت مُلكًا لها، وأسلوبها في الرقص، ونظراتها وابتساماتها وقُبلها كل ذلك كان يبرهن على أنها وهبت نفسها لي. إن كل نساء هذه الليلة المحمومة، كل اللواتي رقصت معهن، وبثت فيهن الحيوية أو بثثن فيّ حيويتهن، وتوددت إليهن، وتعلقن بي بشوق، وتابعتهن بعينين منتشيتين قد ذبن معًا في واحدة، هي التي أضمها بين ذراعيّ.

تواصلت مع الرقصة الزيجية دون توقف، ومرة بعد مرة أخذت الموسيقى تفتر. عازفو آلات النفخ تركوا آلاتهن تنزل. وعازف البيانو نهض واقفًا عن البيانو. وعازف الكمان الأول هزّ رأسه. وكانوا في كل مرة يقتنعون بإلحاح آخر الراقصين الثملين المتوسل ويعاودون العزف. وكانوا يعزفون بشكل أسرع وأشد عنفًا. وأخيرًا، عندما وقفنا، ومانزال متلاحمين، ونلهث بعد أداء آخر رقصة مفعمة باللهفة، أُغلق البيانو بقوة، وانهارت أذرعنا من فرط الإرهاق إلى جنبينا كما انهارت أذرع عازفي آلات النفخ والآلات الوترية ودسّ عازف الفلوت، وهو يطرف بعينيه الناعستين، آلته في صندوقها، وفُتحت أبواب، واندفع الهواء البارد إلى الداخل، وظهر الخدم مع الأردية، وأطفأ نادل البار الأضواء. ثم اختفى المشهد كله بصورة مخيفة، والراقصون الذين كانوا قبل قليل كالنار الملتهبة أخذوا يرتعشون وهم يرتدون معاطفهم وأرديتهم ويقلبون ياقاتهم إلى أعلى. كان الشحوب يعلو هرمينه، لكنها كانت تبتسم. ورفعت ذراعها ببطء ودفعت شعرها إلى الخلف. وبينما هي تفعل سقط الضوء على إحدى ذراعيها فامتد ظل باهت

ورقيق رقة تعصى على الوصف من إبطها حتى ثديها المستتر، وتهيأ لي أن امتداد الظل القصير المرتعش هذا يختصر كل سحر جسدها وفتنته وكأنه ابتسامة.

وقفنا نتبادل النظرات، ولم يبق غيرنا في الصالة، ولم يبق غيرنا في البناء كله. وسمعت في مكان ما تحتنا بابا يُغلق، وكأسًا يُكسر، وضحكًا مكبوتًا يخبو، ممزوجًا بتشغيل سيارات مسرع وغاضب. وفي مكان ما، وعلى مسافة وعلو غير محددين، سمعت ضحكًا يتردد صداه، نوبة ضحك صاف ومرح بشكل خارق. غير أنه كان مخيفًا وغريبًا. كان ضحكًا من كريستال وثلج، برّاقًا ومتألقًا، لكنه بارد ومتصلب. أين سمعت هذه الضحكة من قبل؟ لم أتذكر.

وقفنا نتبادل النظرات. وعدت برهة إلى وعيي. شعرت بإرهاق شديد يحط عليّ. شعرت بامتعاض من ملابسي المبللة والمترهلة متهدلة عليّ. رأيت يديّ حمراوين وبارزتي العروق ظاهرتين من طرفي كمّيّ المجعدين والذاويين. ولكن فجأة تلاشى الجو العام، اختفى بنظرة من هرمينه. بفعل هذه النظرة التي بدت وكأنها صادرة عن روحي أنا سقط الواقع كله، حتى واقع حبي الحسي لها. ورحنا نتبادل النظر كالمسحورين، وكانت روحي الصغيرة المسكينة تنظر إليّ.

سألتْ هرمينه: «أأنت جاهز؟»، وفرّت ابتسامتها كالظلال المرتسمة على صدرها. وفي مكان عالٍ على مسافة مجهولة تردد صدى تلك الضحكة الغريبة والمخيفة.

أومأت إيجابًا، أوه، نعم، أنا جاهز.

في تلك اللحظة ظهر بابلو في ممر الباب، وأشرق علينا بابتسامة من عينيه المرحتين اللتين كانتا بحق عيني حيوان لولا أن عيني الحيوان جادتان دائمًا، في حين أن عينيه دائمًا تضحكان، وهذا الضحك كان

يحوّلهما إلى عينين إنسانيتين. وأومأ لنا مبديًا ودّه الحار المعتاد. كان يرتدي سترة التدخين الحريرية الفخمة. وكان يبدو على ياقته المتهدلة ووجهه الأبيض المتعب الذبول والشحوب فوق طلائه الأحمر، لكن عينيه السوداوين المتألقتين أزالتا هذا الانطباع. وكذا امّحى الواقع، لأنهما بدورهما لهما سحرهما الخاص.

انضممنا إليه عندما أومأ إلينا وعند ممر الباب قال لي بصوت منخفض: «أخي هاري، إنني أدعوك إلى شيء من التسلية. وهي مخصصة للمجانين فقط، والثمن الوحيد، هو عقلك، ألديك استعداد؟».

من جديد أومأت بالإيجاب.

مدّ الصديق العزيز ذراعًا لكل منا بعناية رقيقة مفرطة، هرمينه إلى يمينه، وأنا إلى يساره وقادنا مرتقيًا الدرج إلى غرفة صغيرة مضاءة من السقف بضوء ضارب إلى الزرقة وتكاد تكون خالية. فلم تكن تحوي إلا على طاولة صغيرة مستديرة وثلاثة كراسٍ مريحة جلسنا عليها.

أين كنا؟ أكنت حالمًا؟ أكنت في بيت؟ أكنت أركب سيارة؟ لا، لقد كنت جالسًا وسط إضاءة زرقاء في غرفة مستديرة وجو مخلخل، في شكل من أشكال الواقع أضحى مطلق النقاء.

إذن لمَ كانت هرمينه شديدة الشحوب؟ لَم يكثر بابلو من الكلام؟ أيعقل أن أكون أنا، ربما، من جعله يتحدث، يتكلم، بصوته؟ أيضًا، ألا يجوز أن روحي أنا كانت تتأملني من عينيه السوداوين وكأني طائر تائه وخائف كما كانت تفعل من عيني هرمينه الرماديتين؟.

كان بابلو يرمقنا بطلاقته المعهودة مع مودة تتسم بصبغة رسمية، وأكثر من الكلام وأطال. وهو الذي لم أكن قد سمعته قط ينطق

بجملتين متواليتين، ولا يثير اهتمامه نقاش أو طرح علمي، ولم أؤمن قط بأنه ينطوي على فكرة واحدة، إذا به الآن يتحدث بصوته الدافئ بسلاسة، ودون أن يرتكب غلطة واحدة.

«لقد دعوتكما، يا صديقيّ، إلى عرض مسلٍّ طالما تاق هاري إلى حضوره وحلم به. إن الوقت متأخر قليلاً ونحن جميعًا ولا شك تعبون قليلاً. لذا، أولاً، سنأخذ قسطًا من الراحة وننتعش قليلاً».

تناول من فجوة في الجدار ثلاثة كؤوس وزجاجة صغيرة غريبة الشكل، وأيضًا صندوقًا صغيرًا نفيسا مطعمًا بخشب ملون بألوان مغايرة. وملأ الكؤوس الثلاثة من الزجاجة، وأخذ ثلاث سجائر صفراء اللون نحيلة وطويلة من الصندوق وعلبة كبريت من جيب سترته الحريرية، وأعطانا شعلة. ومن ثم أخذنا جميعًا ندخن ببطء السجائر التي كان دخانها كثيفًا كدخان البخور، واسترخينا في جلستنا على الكراسي ورحنا نرشف بتمهل مشروبا ذا نكهة عطرة، كان مذاقه منعشًا ومبهجًا إلى درجة تعصى على التقدير، وكأن المرء مملوء بالغاز ولم يعد له أي ثقل. وهكذا جلسنا بسلام نزفر نفحات صغيرة ونرشف رشفات قليلة من كؤوسنا، ومع كل لحظة تمر نشعر أننا غدونا أخف وزنًا وأكثر صفاءً.

تناهى صوت بابلو قادمًا من بعيد.

«يسعدني، يا عزيزي هاري، أن أحظى بامتياز كوني مضيفك على مستوى متواضع في هذه المناسبة. لقد كنت دائمًا سئمًا إلى أقصى حد من حياتك. وأظنك كنت تبذل جهدًا هائلاً لتهرب، أليس كذلك؟ إنك تنطوي على توق لنبذ هذا العالم وواقعه وإدراك واقع أكثر التصاقًا بك، عالم يتجاوز الزمن. الآن أنا أدعوك لتفعل هذا. وأنت طبعًا تعرف أين يكمن هذا العالم الآخر. إن عالم روحك أنت هو ما تبحث

عنه. وذاك الواقع الآخر الذي تصبو إليه لا يوجد إلا في داخلك. أنا لا أستطيع أن أمنحك ما ليس موجودًا أصلاً في داخلك. ليس في مقدوري أن أعرض أمامك إلا سلسلة الصور الكامنة في روحك. وكل ما في وسعي أن أمنحك هو الفرصة، الحافز، المفتاح. أنا أساعدك على أن تجعل عالمك الخاص مرئيًا، لا أكثر».

مرة أخرى مدّ يده إلى جيب سترته الفخمة وأخرج منها مرآة مستديرة.

«انظر، هكذا كنت ترى نفسك حتى الآن».

وضع المرآة الصغيرة أمام عينيّ (هنا خطر على ببالي بيت شعري للأطفال: «أيتها المرآة، أيتها المرآة في اليد»). فرأيت، وإن كان بشكل غير واضح ومبهم، انعكاس كيان قلق، يعذّب نفسه، يرزح ويضطرب من الداخل، إنه أنا، هاري هاللر. ومرة أخرى رأيت داخله ذئب السهوب، ذئبًا حييًا، جميلاً، منبهرًا بعينين مذعورتين تنمان تارة عن الغضب وتارة عن حزن. وكان مظهر الذئب هذا يجري خلال الآخر في حركة مستمرة، كرافد يصب مياهه المضطربة وغير الصافية في نهر وكان كل منهما يحاول، في كفاح مرير، وتوق حاد، أن يلتهم الآخر لكي لا يهيمن مظهره. كم كانت حزينة حزنًا يفوق الوصف النظرة التي رماها من عينيه الحييتين الجميلتين هذا الشكل البدائي المائع للذئب.

قال بابلو معلقًا: «هكذا ترى نفسك»، ثم دسّ المرآة في جيبه. وأسعدني أن أعود لأغمض عيني وأتناول رشفة من الإكسير.

قال بابلو: «والآن، ها قد أخذنا قسطًا من الراحة، وتناولنا ما أنعشنا وتحدثنا قليلاً. فإذا كان التعب قد زال عنكما فسأواكبكما إلى صندوق الفرجة، وأريكما مسرحي الصغير، هلا أتيتما؟».

نهضنا واقفين. وقادنا بابلو وهو يبتسم. فتح بابًا، وأزاح ستارة

فوجدنا أنفسنا في رواق مسرح على شكل حدوة حصان، في منتصفه تمامًا. وكان الممر المنحني يؤدي على كلا الجانبين إلى المقاصير، عبر عدد كبير، بل عدد لا يصدق، من الأبواب الضيقة.

قال بابلو شارحًا: «هذا هو مسرحنا، وهو مسرح يوفر المتعة. آمل في أن تجدا فيه ما يضحككما». وضحك بصوت عال وهو يتكلم، ضحكة قصيرة، لكنها تغلغلت داخلي كطلقة رصاص. كانت الضحكة المميزة نفسها التي سمعتها من تحت.

«إن مسرحي الصغير هذا له أبواب عديدة تؤدي إلى قدر ما تشاءان من مقاصير، عشرة أو مئة أو ألف، وخلف كل باب ينتظركما ما تبحثان عنه بالضبط. إنها حجيرة صغيرة لعرض الصور، يا صديقي العزيز، ولكن لن يفيدك في شيء إذا دخلتها كما أنت. سوف تُفتَّش وتُغْصَب عيناك عند كل منعطف من قبل ما يسرّك أن تسميها شخصيتك. ولا شك في أنك قد خمَّنت منذ وقت طويل أن إخضاع الزمن والهروب من الواقع، أو كيفما شئت أن تصف تصوّرك، يعنيان ببساطة رغبتك في أن تتخلص مما تسميه شخصيتك، أن تتحرّر من السجن الموجود داخله. فإذا دخلت المسرح كما أنت، فسوف ترى كل شيء بعيني هاري وبمنظار ذئب السهوب القديم. لذا، المطلوب منك أن تطرح هذا المنظار جانبًا وأن تتلطف وتترك شخصيتك فائقة الاحترام هنا في غرفة الملابس حيث ستجدها ثانية متى شئت. ويمكن أن تكون الرقصة الممتعة التي انتهيت لتوك من رقصها، والأطروحة حول ذئب السهوب، والقليل من المشروب المنبه الذي تناولته لتوك قد أعدّوك بشكل كاف لذلك. وبعد أن تترك شخصيتك القيّمة وراءك، يا هاري، سيكون الجانب الأيسر من المسرح تحت تصرفك والأيمن تحت تصرف هرمينه. وحالما تصبحان في الداخل يمكنكما أن تتقابلا

كما ترغبان. وسوف تتلطف هرمينه وتذهب برهة خلف الستارة، أودّ أن أقدّم هاري أولاً».

اختفت هرمينه إلى اليمين مارة بمرآة عملاقة تغطي الجدار الخلفي من الأرض وحتى السقف المقوس.

«والآن تقدم يا هاري، وكن مرحًا قدر ما في سعك. إن هدف هذا العرض المسلي كله أن نجعله كذلك وأن يعلمك أن تضحك، أرجو أن تسهّل علي مهمتي، هل أطمئن إلى أنك على أحسن ما يرام؟ ألست خائفًا؟ عظيم، ممتاز. والآن سوف تلج، دون خوف وباستمتاع غير متكلّف، عالمنا الخيالي. سوف تقدّم نفسك إليه بواسطة انتحار تافه، بما أن هذه هي العادة».

أخرج مرآة الجيب مرة أخرى وقرّبها من وجهي. ومرة أخرى واجهت الانعكاس غير الواضح والباهت، وشكل الذئب يطوّقه، ويجري خلاله. عرفته معرفة تامة، وكرهته من كل قلبي لكي لا يسبب لي تدميره أي حزن.

«الآن، يا صديقي العزيز، سوف تقضي على ذاك الانعكاس الزائد. هذا كل ما يلزم. ويكفي لذلك أن تحيّيه، إذا سمح مزاجك، بضحكة من القلب. أنت هنا في مدرسة الفكاهة. وعليك أن تتعلم كيف تضحك. والفكاهة الحقيقية تبدأ عندما يكف الإنسان عن التصرف بجدية».

ثبّتُّ نظري على المرآة الصغيرة، حيث كان هاري الإنسان والذئب تنتابهما اضطرابات عنيفة. وهزني بدوري قليل من الاضطراب العميق من داخلي، كان ضعيفًا ولكنه مؤلم كالذكرى، أو كالحنين إلى الوطن، أو كالندم. ثم أفسح الإحساس القليل بالضيق المجال لشعور جديد كالذي يشعر به الإنسان عندما «يقتلع سنًّا» باستخدام

الكوكايين، إحساس بالارتياح وإطلاق زفير عميق، وأيضًا تعجُّب من كونه لم يسبّب أدنى ألم. وهذا الشعور كان مصحوبًا بانتعاش منشّط وبرغبة لا تقاوم في الضحك حتى أني كنت مضطرًا إلى أن أنفّذها.

تشنجت الصورة المحزنة البادية في المرآة للمرة الأخيرة، ومن ثم تلاشت. والمرآة نفسها راحت تتحول من رمادية إلى سوداء فاحمة معتمة، وكأنها تحترق. فرماها بابلو وهو يضحك بعيدًا، وأخذت تتدحرج على طول الرواق الذي لا نهاية له، واختفت.

هتف بابلو: «أحسنت الضحك يا هاري. وسوف تتعلم لاحقًا كيف تضحك كالخالدين. لقد قضيت أخيرًا على ذئب السهوب. لا ينفع الموسى في هذا المجال. احرص على أن يبقى ميتًا، سوف تتمكن من أن تترك مهزلة الواقع وراءك مباشرة، وفي لقائنا التالي سوف نشرب، يا صديقي العزيز، نخب الأخوة. إنني لم أحبك قط كما أحببتك اليوم. وإذا كنت ما تزال تعتقد أنك تستفيد فيمكننا أن نتفلسف معًا ونتجادل ونتحدث عن الموسيقى وموتسارت وغلوك وأفلاطون وغوته حتى تكتفي. وسوف تفهم الآن لِمَ كان هذا مستحيلاً من قبل. وعلى أي حال أتمنى لك اليوم خلاصًا تامًا من ذئب السهوب، إذ من الطبيعي ألاّ يكون انتحارك هو الأخير، فنحن في مسرح سحري، عالم من الصور لا مكان فيه للواقع. احرص على أن تنتقي صورًا جميلة ومفرحة وبيِّن أنك فعلا لم تعد عاشقًا لشخصيتك المشكوك في أمرها إلى أقصى حد. ولكن إذا كنت ما تزال تتلهف إليها، فكل ما عليك أن تفعله هو أن تلقي نظرة أخرى إلى المرآة التي سأريك الآن. ولكنك تعرف ماذا يقول المثل القديم: «مرآة في اليد ولا اثنتان على الجدار». ها ! ها !». (ومرة أخرى ضج بتلك الضحكة الجميلة والمخيفة !): «والآن لم يبق غير القيام بشعيرة واحدة وهي مرحة تمامًا. وعليك

الآن أن تنحي جانبًا نظارة شخصيتك. ثم اقترب إلى هنا وانظر في مرآة لائقة، فسوف تبعث فيك المرح».

أدارني، وهو يقوم عابثًا ببعض المداعبات المضحكة، حتى أواجه المرآة العملاقة التي تغطي الجدار. وهناك رأيت نفسي. رأيت نفسي برهة خاطفة بشكلها المعتاد. غير أني بدوت ودودًا بصورة خارقة ومشرقًا وضاحكًا. ولكن قبل أن يتاح لي أن أتعرف على نفسي تهشم الانعكاس شذرًا. وقفز منها شكل ثان وثالث وعاشر وعشرون إلى أن امتلأت المرآة العملاقة بأكملها بصور لهاري أو بقطع منه، ولم أر كلاًّ منها إلا خلال برهة تعرُّف. وبعض هذه الحشود من الهاريات كان في مثل عمري، وبعضها الآخر أكبر سنًا، والبعض عجوزًا جدًا. وهناك آخرون شبان. كان هناك شبان وفتيان وتلاميذ مدارس وأولاد شياطين وأطفال أعمارهم بين خمس عشرة وعشرون سنة يلعبون لعبة القفزية. وثمت في عمر الثلاثين والخمسين من هم رصينون ومرحون، محترمون ويثيرون الضحك، حسنو الملبس ومهملو الهندام، بل هناك من هم عراة، ومرسلو الشعور والصلع، وكلهم يمثلونني أنا، وكانوا يظهرون كلمح البرق، يعرِّفون بأنفسهم ويختفون، وكان ينبثق بعضهم من البعض الآخر وفي كل الاتجاهات، يسارًا ويمينًا وفي عمق المرآة وخارجها. وأحدهم، كان شابًا أنيقًا، قفز وهو يضحك ليستقر بين ذراعي بابلو، وعانقه ومضيا معًا مبتعدين. وآخر، وقد سرني بنوع خاص، كان فتى وسيمًا وفاتنًا في السادسة عشرة أو السابعة عشرة، قفز بسرعة البرق إلى الرواق وأخذ يقرأ الملاحظات المدونة على الأبواب. فلحقت به ووجدته واقفًا أمام باب كتب عليه:

كل الفتيات تحت تصرفك

ضع قطعة نقدية في الشق

اندفع الفتى اللطيف متقدمًا، وإذا به يقفز ويدخل بنفسه بدءًا برأسه في الشق، ويختفي خلف الباب.

بابلو أيضًا كان قد اختفى، وكذا فعلت المرآة بكل أشكالها التي لا حصر لها. وأدركت أني الآن قد بتُّ وحدي مع المسرح، ورحت يحدوني الفضول أنتقل من باب إلى باب وأقرأ على كل منها دعوتها المغرية.

وقد جذبني الإعلان التالي:

صيد ممتع

صيد سيارات ضخم

ففتحت الباب الضيق ودخلت.

على الفور وجدتني منجرفًا إلى عالم يهدر بالضجيج والإثارة. حيث سيارات، بعضها مصفح، تندفع في الشوارع تطارد المشاة. كانت تدوسهم فإما أن تتركهم مشوهين على الأرض أو تسحقهم على جدران البيوت وتقتلهم. وفهمت على الفور أن هذا إنما يمثل الحرب التي طال الإعداد لها، وطال انتظارها، وطال الخوف منها، والتي تنشب بين البشر والآلات، وقد اندلعت أخيرًا. وكنت ترى في كل ناحية الجثث ملقاة ومقطعة الأوصال، وفي كل مكان أيضًا سيارات محطمة ومشوهة ونصف محروقة. وكانت الطائرات تحوم فوق الفوضى الرهيبة، والنيران تطلق عليها من أسقف بيوت عديدة ونوافذها بالبنادق وبالمدافع الرشاشة. وعلى كل جدار عُلقت إعلانات عنيفة ومحرضة إلى أقصى حد، أحرفها العملاقة المتلظية بنيران المشاعل تدعو الأمة إلى معاضدة البشر ضد الآلات، للقضاء على المتنفذين الأثرياء، البدينين والأنيقين والمعطرين الذين يستخدمون الآلات لشفط الشحم من أجساد الآخرين، منهم ومن سياراتهم الضخمة

الشيطانية الهادرة. حان الوقت لتضرموا النيران في المصانع ! احتلوا حيزًا صغيرًا على الأرض المشلولة! أخلوها من سكانها لكي ينمو عليها العشب من جديد، وتعود الغابات والمروج والخلنج والغدير والمستنقع إلى هذا العالم المؤلف من الغبار والإسمنت. ومن ناحية أخرى هناك إعلانات منفَّذة بألوان فائقة الجمال وصيغت بعبارات رائعة، تحذّر من ارتفاع مدّ الفوضوية كلَّ من له وتد في البلد وتدعوه لأن يتمتع بأي قدر من الحكمة (بعبارات أكثر اعتدالاً وأقل صبيانية كانت شاهدًا على ما يتصف به الذين صاغوها من حذاقة وذكاء فائقين). وكانت تصور بأسلوب مؤثر حقًا نِعَم النظام والعمل والملكية والثقافة والعدالة، وتطري المكننة بوصفها آخر مبتكرات العقل الإنساني وأشدها سموًا. فبمساعدتها سيصبح البشر مظاهين للآلهة. تفحصت هذه الإعلانات المكتوبة باللونين الأحمر والأخضر، وتأملت فيما جاء فيها وتعجبت. أثَّرت فيّ الفصاحة الملهبة للمشاعر بقوة المنطق المُلزم. كانت محقة، واقتنعت بعمقٍ بكل ما جاء في كل منها بقدر متساو، وكنت طوال الوقت مضطربًا اضطرابًا هائلاً من وابل إطلاق النار الذي يجري من حولي. حسن، إن الأمر الأساسي كان جليًا لي. ثمت حرب مندلعة، حرب مريعة، حقيقية، وملائمة إلى أبعد حدّ للمزاج العام، حيث لا أحد يأبه للقيصر أو للجمهورية، للحدود أو للرايات أو للألوان والأمور الأخرى التي تعادلها في صفتها الزخرفية والمسرحية، وكلها في عمقها تافهة، لكنها حرب وجد فيها كل من لا يجد له متنفسًا ولم يعد يرى الحياة جديرة حقًا بالعيش، تعبيرًا مؤكدًا على استيائه فكافح ليمهد الطريق لتدمير حضارتنا الحديدية هذه تدميرًا شاملاً. وشاهدت في كل العيون شرارات الدمار والموت الصريحة، ونمت في عيني أيضًا هذه الورود الحمراء الضارية متفتحة موفورة النموّ والعلو، وتلألأت ساطعة.

أنا أيضًا شاركت في الحرب بكل سرور.

إلا أن أفضل ما حدث قاطبة كان أن صديق دراستي غوستاف ظهر بالقرب مني. وكنت قد فقدت أثره منذ سنين عديدة، وكان أعنف أصدقاء طفولتي، وأقواهم، وأشدّهم اندفاعًا وحبًا للمغامرة. وضحكت في قرارتي عندما رأيته يومئ إليّ بعينيه الزرقاوين البراقتين. أومأ إليّ وعلى الفور تبعته وأنا سعيد.

هتفت بحبور: «يا إلهي، غوستاف، تصور أن أراك هنا، ماذا حل بك؟».

«كفاك طرحًا للأسئلة وللثرثرة ! أنا بروفيسور في اللاهوت، إذا كان هذا يهمك. لكن، المجد للرب، لا مجال الآن للاهوت، يا بني إنها الحرب، هيا بنا !».

أطلق الرصاص على سائق سيارة صغيرة كانت تقترب منا وهي تشخر، وبعد أن قفز إلى داخلها بخفة قرد، جعلها تتوقف لكي أدخلها بدوري. ثم قدنا السيارة بسرعة جنونية بين سيل الرصاص والسيارات المحطمة إلى خارج البلدة وخارج الضواحي.

سألت صديقي: «هل تساند أصحاب المصانع»؟

«أوه، يا إلهي، إنها مسألة ذوق، سنناقش هذا لاحقًا، ولكن بما أنك قد فتحت الموضوع، فإني أفضل أن نساند المعسكر الآخر، على الرغم من أن الأمر سيان طبعًا في الأساس. أنا لاهوتي وكان سَلَفي، لوثر، يتخذ جانب الأمراء والمتنفذين الأثرياء ضد الفلاحين. وهكذا فنحن نعمل على إيجاد قليل من التوازن. يا لهذه السيارة العفنة، أتمنى أن تصمد معنا مسافة ميل آخر أو اثنين».

انطلق بنا رجل الدين ذاك بسرعة الريح حتى وصلنا إلى منطقة

ريفية تشملها الخضرة والسكينة تبعد عدة أميال. وقطعنا سهلاً فسيحًا ومن ثم أخذنا نرتقي الجبال ببطء. وهنا توقفنا على درب ممهدة لامعة تمتد بمنعطفات خطرة بين الجدار الصخري المنحدر والجدار الواقي المنخفض. وفي الأسفل السحيق لمعت مياه بحيرة زرقاء.

قلت: «منظر جميل».

«بل جميل جدًا. سوف نسمّيه درب المحور[1]. إن عددًا كبيرًا من المحاور والدواليب من أنواع مختلفة ستتحطم هنا، يا هاري، يا بني، فانتبه!».

كانت هناك شجرة صنوبر نامية على جانب الطريق، ورأينا بين أغصانها الباسقة شيئًا أشبه بالكوخ الصغير صنع من ألواح خشبية ليكون بمثابة موضع ممتاز للمراقبة. ابتسم غوستاف وومض في عينيه الزرقاوين بريق المعرفة. فأسرعنا بالترجل من السيارة، ورحنا نتسلق جذع شجرة، ثم ولجنا نقطة المراقبة ونحن نلهث، وكان مكانًا ممتعًا. وعثرنا فيه على بنادق ومسدسات وصناديق من الذخيرة. وقبل أن يتاح لنا أن نرتاح سمعنا صوت هدير صاخب ملحّ خشن صادر عن سيارة سياحية كبيرة قادمة من المنعطف الطريق التالي. أتى هادرًا بأقصى سرعة مرتقيًا الطريق المهدة. وكانت البنادق مهيأة في أيدينا. وكانت الإثارة شديدة.

قال لي غوستاف بلهجة آمرة وبسرعة حالما مرت السيارة من تحتنا: «سدّد على السائق». فسدّدت على السائق ذي القبعة الزرقاء، وأطلقت النار، فسقط الرجل جثة هامدة. ومالت السيارة على جنبها وارتطمت بوجه الجرف مباشرة، ثم ارتدت، وهاجمت الجدار

(1) المقصود هنا محور دولاب ما. (المترجم).

المنخفض بعنف بكل ثقلها الضخم وكأنها نحلة عملاقة طنانة، وتهاوت عبره، ثم تحطمت مع دويّ ناء وقصير أسفل الأعماق السحيقة.

ضحك غوستاف وقال: «نلت منه. المرة القادمة دوري».

حالما قال هذا جاءت أخرى. كان فيها ثلاثة ركاب أو أربعة وهم محشورون في المقعد الخلفي. وفي خلفية السيارة برز من رأسِ امرأةٍ خمارٌ بلون أزرق براق. فامتلأتُ بشعور حقيقي بالندم. أي وجه جميل يزيّن يا ترى؟ يا إلهي، على الرغم من أننا نتصرف كقطّاع الطرق فإنه يمكننا على الأقل أن نفاوض قائدهم، ونبقي على النساء الجميلات، إلا أن غوستاف كان قد أطلق النار على الفور فارتعد السائق وانهار، وارتطمت السيارة بالجرف الشديد الانحدار، ثم ارتدت وانقلبت رأسًا على عقب. انتظرنا، ولكن لا حركة. كان الركاب محشورين كأنما في فخ. وكان المحرك ما يزال يدور والدواليب تدور وحدها في الهواء، ولكن فجأة حدث انفجار مروع واندلعت النيران.

قال غوستاف: «إنها من نوع فورد، يجب أن ننزل ونفتح الطريق».

هبطنا ورحنا نراقب الركام المحترق، وسرعان ما أتت عليها النيران، وفي تلك الأثناء صنعنا عتلات من أغصان خضراء، ورفعناها إلى جانب الطريق، وقلبناها عبر الجدار وإلى الهاوية، حيث ظلت فترة طويلة تتحطم بين الشجيرات. وكانت جثتان من الجثث قد سقطتا خارج السيارة ونحن نقلبها، وانطرحتا على جانب الطريق وقد احترقت ملابسهما جزئيًا. وكان أحدهما يرتدي معطفًا فاخرا جدًا. فأخذت أفتش جيوبه لأعرف هويته. فوقعت في يدي حقيبة جلدية تحتوي على بعض البطاقات. فأخذت إحداها، وقرأت: «تات توام آسي».

قال غوستاف: «اسم ظريف. ولكن لا يهم في الحقيقة ما هي

أسماء الضحايا، إنهم مساكين مثلنا تمامًا. ولا أهمية لأسمائهم. إن هذا العالم هالك لا محالة، ونحن أيضًا معه. والبقاء تحت الماء لعشر دقائق هو الخلاص الأقلّ ألمًا. والآن إلى العمل».

رمينا بالجثتين وراء السيارة. وللتو سمعنا هدير أخرى. ومن مكان وقوفنا رميناها بوابل من الرصاص. فانحرفت كالسكرى وسارت مسافة: ثم انقلبت. انطرحت تلهث. وكان هناك مسافر لا يزال قابعا داخلها، لكن فتاة شابة صغيرة خرجت سالمة، وإن كانت شاحبة اللون وترتعش بعنف، فحييناها بأدب وعرضنا عليها مساعدتنا. وكانت تنتفض بقوة حتى عجزت عن الكلام، وراحت تحدق إلينا برهة وهي مذهولة تمامًا.

قال غوستاف: «حسن، فلنعتنِ أولاً بالعجوز». والتفت إلى راكب السيارة الذي كان لا يزال متشبثًا بمقعده خلف السائق. كان سيّدًا محترمًا ذا شعر قصير شائب. وكانت عيناه الرماديتان الصافيتان اللتان تنمان عن ذكاء مفتوحتين، ولكن بدا أنه تعرض لجروح بليغة، على الأقل كان الدم يسيل من فمه، وقد أمال عنقه بانحراف وتصلّب.

«اسمح لي أن أقدم نفسي. اسمي غوستاف. وقد بادرنا بإطلاق النار على سائقك. فهل لنا أن نتشرف بمعرفة من نخاطبه؟».

ألقى الرجل العجوز إلينا نظرة هادئة وحزينة من عينيه الرماديتين الصغيرتين.

قال ببطء: «أنا النائب العام لورينغ. إنكما لم تقتلا فقط سائقي المسكين، بل أعتقد أنكما قتلتماني أيضًا. لماذا أطلقتما النار علينا؟».

«بسبب تجاوز السرعة القصوى».

«نحن لم نكن نسير بأكثر من السرعة العادية».

«إن ما كان عاديًا بالأمس لم يعد كذلك اليوم، يا سيدي النائب العام. نحن نرى أنه مهما كانت السرعة التي تسير بها السيارات فهي سرعة فائقة. ونحن ندمر كل السيارات وكل الآلات الأخرى».

«حتى بنادقكم؟».

«سوف يأتي دورها، إذا توفر لدينا الوقت اللازم. فغدًا ربما أو بعد غد سينتهي أمرنا جميعًا. وأنت تعلم، طبعا، أن هذا الجزء من العالم مزدحم بشكل مخيف بالسكان. وهكذا، نحن الآن نعمل على تخفيف هذا الازدحام قليلاً».

«هل أفهم أنكما تطلقان النار على الجميع، دون تمييز؟».

«حتمًا. لا شك في أنه في حالات كثيرة يكون الأمر مؤسفًا. فأنا، مثلاً، آسف لما حدث لهذه الشابة الفاتنة. ابنتك، أعتقد».

«لا. إنها كاتبة تعمل عندي».

«هذا أفضل. والآن هلا تفضلت وخرجت، أم تترك لنا أمر إخراجك، بما أننا سندمر السيارة؟».

«أفضّل أن أدمَّر معها».

«كما تشاء. ولكن اسمح لي أن أطرح عليك سؤالاً أخيرًا. إنك نائب عام، وأنا لا أفهم مطلقًا كيف يمكن لإنسان أن يكون نائبًا عامًا، إنك تكسب عيشك بإحضار أناس آخرين، هم مساكين في الغالب، ومحاكمتهم وإصدار حكم الموت عليهم. أليس كذلك؟».

«هو ذاك. إنني أؤدي واجبي. إنها وظيفتي. تمامًا كما إن وظيفة الجلاد أن ينفّذ حكم الإعدام في أولئك الذين أُصدر حكم الإعدام عليهم. أنت أيضًا تتولى وظيفة مشابهة، فأنت أيضًا تقتل الناس».

«صحيح تمامًا. غير أننا لا نقتل بدافع الواجب، بل للمتعة، أو ما

هو أكثر من ذلك بالأحرى، للتعبير عن استيائنا ويأسنا من العالم. ولهذا ترانا نجد تسلية خاصة في قتل الناس. فهل عملك يوفر لك أي تسلية؟».

«أنت تضجرني، هلا تلطفت وقمت بعملك. بما أنك لا تعرف أي شيء عن مفهوم الواجب».

لزم الصمت وقام بحركة من شفتيه وكأنه يريد أن يبصق. إلا أن مقدارًا من الدم خرج وعلق على ذقنه.

قال غوستاف بأدب: «انتظر لحظة ! لا شك في أني لا أعرف أي شيء عن مفهوم الواجب، أقصد الآن. ولكن سابقًا كان لي اهتمام وظيفي بالغ، فقد كنت بروفيسورًا في اللاهوت. وإلى جانب ذلك كنت جنديًا وخضت الحرب. وما بدا في نظري واجبًا وما كانت السلطات ورؤسائي الضباط يأمرونني من وقت لآخر بفعله لم يكن عملاً خيّرًا بأي تصوّر لمفهوم الواجب، إلا أني مازلت أدرك مفهوم الذنب، ولعلهما أمر واحد. إن إحساسي بالذنب لا يتعدى كون أمًّا حملت بي. إنني محكوم علي بالعيش، إنني مضطر إلى أن أنتمي إلى أمّة، وأن أكون جنديًا، وأن أقتل، وأن أدفع ضرائب على العتاد الحربي. والآن، في هذه اللحظة، أعادني شعوري بالذنبِ كوني حيًا مرة أخرى إلى ضرورة قتل الناس كما فعل بي في زمن الحرب. وهذه المرة أنا لا أشعر بأي اشمئزاز، لقد تكيَّفتُ مع الشعور بالذنب، ولا اعتراض لدي على أن يُدمَّر هذا العالم المحتقن الأحمق عن آخره، ويسعدني أن أمدَّ يد العون في ذلك، ويسعدني أن أفنى معه».

بذل النائب العام جهدًا كي يرسم ابتسامة صغيرة على شفتيه اللتين كان الدم قد تخثر عليهما. ولم ينجح كثيرًا في ذلك، على الرغم من أن النية الطيبة كانت واضحة.

قال: «عظيم، إذن فنحن زملاء. حسن، وعليه، أرجوك قم بواجبك».

في تلك الأثناء كانت الفتاة الحسناء قد جلست على جانب الطريق وأغمي عليها.

في هذه اللحظة سمعنا من جديد هدير سيارة قادمة على الطريق بأقصى سرعة. فأزحنا الفتاة جانبًا أكثر، ووقفنا ملتصقين بالجرف، وتركنا السيارة تقترب حتى حطام السيارة الأخرى. ثم شُدّت المكابح بعنف فوثبت السيارة في الهواء، ثم استقرت واقفة دون أن تصاب بأذى. فقبضنا على بنادقنا وسرعان ما كنا نهدد الوافدين الجدد.

أمرهم غوستاف: «اخرجوا ! وارفعوا أيديكم».

خرج ثلاثة رجال من السيارة ورفعوا أيديهم راضخين.

سألهم غوستاف: «هل بينكم طبيب؟».

هزوا رؤوسهم نفيًا.

«إذن كونوا طبيبين وأخرجوا هذا السيد. إنه مصاب بجرح بليغ. ضعوه في سيارتكم وخذوه إلى أقرب بلدة، تقدموا ونفذوا».

سرعان ما أصبح السيد العجوز ممدّدًا في السيارة الأخرى. فأعطى غوستاف أوامره، وانطلقوا.

في تلك الأثناء كانت كاتبة النائب العام قد عادت إلى رشدها، وراحت تراقب ما قد جرى. وأسعدني أننا حظينا بجائزة بهذا الجمال.

قال غوستاف: «سيدتي، لقد فقدت مستخدمك، وآمل في أن لا تكوني مرتبطة بالسيد العجوز بروابط أخرى، أنت الآن تعملين لصالحي، فكوني رفيقة صالحة، كفى من هذا. والآن إن الوقت يضيق. وسرعان ما سيصبح الوضع هنا غير مريح، هل تستطيعين

التسلق، سيدتي؟ نعم؟ إذن هيا اصعدي وسنساعدك على التسلق».

تسلقنا جميعًا إلى كوخنا في الشجرة، بأسرع ما استطعنا، ولم تشعر السيدة بارتياح وهي فوق، لكننا سقيناها بعض البراندي، وسرعان ما تحسنت حالها كثيرًا، وباتت قادرة على الإعجاب بالمشهد الرائع المطل على البحيرة والجبال، وعلى أن تقول لنا إن اسمها هو دورا.

بعد ذلك مباشرة، مرت سيارة أخرى من تحتنا. وتابعت طريقها بعناية مارة بالسيارة المقلوبة دون أن تتوقف ومن ثم استجمعت سرعتها وانطلقت.

ضحك غوستاف وأطلق النار على السائق: «جبان!» فراحت السيارة تسير بخط متعرج واندفعت بعنف مخترقة الجدار، ثم تدلَّت فوق الهاوية.

قلت: «دورا، هل تحسنين استخدام الأسلحة النارية؟».

لم تكن تحسن استخدامها، لكننا علمناها كيف تشحنها. في أول الأمر كانت خرقاء، وجرحت إصبعها وبكت وطلبت شريطًا لاصقًا. لكن غوستاف قال لها إننا في حالة حرب وإن عليها أن تبين مدى شجاعتها. ثم تحسن الوضع.

سألتْ: «ولكن ماذا سيحل بنا؟».

قال غوستاف: «لا أدري، إن صديقي هاري مولع بالفتيات الجميلات، وسوف يعتني بك».

«لكن الشرطة والجيش سوف يأتون ويقتلوننا».

«لم يعد هناك وجود لأي شرطة أو ما شابه. إن الخيار لنا، يا دورا. فإما أن نمكث هنا بهدوء ونطلق النار على كل سيارة تحاول أن تمر بنا، أو نستقل سيارة وننطلق بها وندع الآخرين يطلقون النار علينا. ولا

يهم مع أي جانب نقف، أما أنا فمع البقاء هنا».

ثم تناهى هدير قوي صادر عن سيارة أخرى تحتنا، وسرعان ما صفينا أمرها، وأصبحت مقلوبة رأسًا على عقب.

قلت: «غريب، إن إطلاق النار يمكن أن يكون ممتعًا! وأنا الذي كنت أناصر اللاعنف!».

ابتسم غوستاف: «نعم، هناك بحق أعداد هائلة من الناس في العالم. في العهود السابقة لم يكن هذا ملحوظًا، أما الآن وقد أصبح كل إنسان يطلب هواء ليتنفسه وسيارة أيضًا ليقودها، أصبحنا نلاحظ طبعًا، أن ما نفعله ليس عقلانيًا. إنه صبياني، تمامًا كما إن الحرب صبيانية، ولكن بمعيار هائل. وعندما يحين الوقت المناسب سيتعلم البشر أن يضبطوا أعدادهم بوسيلة عقلانية. وحتى ذلك الحين، ها نحن نواجه وضعًا لا يحتمل بطريقة لا عقلانية. غير أن المبدأ صحيح، إننا نُنقِص العدد».

قلت: «نعم، إن ما نقوم به قد يكون جنونًا، ولعله مع ذلك جيد وضروري. ويصبح أمرًا سيئًا عندما يرهق الإنسان عقله ويحاول أن يُخضع المسائل غير القابلة للمعالجة العقلانية للنظام العقلاني. عندئذ تنشأ مُثل عليا كتلك التي يتبناها الأميركيون أو البلشفيون. وكلاهما عقلاني بدرجة خارقة، وكلاهما يؤدي إلى الاضطهاد الرهيب، وإلى إفقار الحياة لأنهما يبسّطانها بطريقة فجّة. إن شبيه الإنسان، ذاك الذي كان سابقًا مثلاً أعلى، بصدد أن يصبح مادة مصنَّعة. وربما على المجانين أمثالنا أن يعيدوا إليه نبالته».

أجاب غوستاف وهو يضحك: «إنك تتكلم وكأنك كتاب، يا بني، وإنه ليمتعني ويشرفني أن أشرب من نبع حكمتك. بل لعل فيما تقول شيئًا ذا قيمة. أما الآن فهلاّ تلطّفت وأعدت شحن قطعة سلاحك.

إني أجدك حالمًا بإفراط. وقد يظهر بعض الغزلان في أي لحظة، ولا يمكننا أن نقتلهم بالفلسفة، يجب أن يكون هناك رصاص في بنادقنا».

اقتربت سيارة وأصبناها في الحال، وسُدَّ الطريق، ونجا أحدهم من الموت، وكان رجلاً سمينًا وأحمر الوجه، وقف يومئ بعنف فوق الحطام. ثم أخذ يحدق إلى كل الاتجاهات، وعندما اكتشف مخبأنا، اقترب منا وهو يعوي ويطلق النار علينا من مسدسه.

صرخ غوستاف باتجاهه: «اخل الطريق، وإلا قتلتك». لكن الرجل سدد نحوه وعاد إلى إطلاق النار. فأرديناه قتيلاً.

بعد ذلك مرت سيارتان أخريان، وتصيدناهما. ثم ران الصمت على الطريق وأقفر. كان واضحًا أنه قد شاع أنه قد بات يشكل خطرًا. وتوفر لدينا وقت للاستمتاع بجمال المنظر الطبيعي. وعلى الجانب البعيد من البحيرة شاهدنا بلدة صغيرة تستكين آخر الوادي. ثم تصاعد الدخان منها وسرعان ما رأينا النار تنتقل من سقف منزل إلى آخر. وسمعنا صوت إطلاق نار، وبكت دورا قليلاً، فأخذت أمسّد على وجنتيها المخضلتين بالدموع.

سألتْ: «أعلينا جميعًا إذن أن نموت؟» لم تتلق جوابًا. وفي تلك الأثناء مرّ من تحتنا رجل سائر على قدميه. ورأى السيارات المحطمة فأخذ يجوس حولها. ومال فوق إحداها وسحب منها مظلة زاهية الألوان، وحقيبة يد نسائية وزجاجة نبيذ. ثم جلس على الجدار برضى، وشرب جرعة من الزجاجة، وأكل شيئًا ملفوفًا بورق مفضض أخرجه من حقيبة اليد. وبعد أن أفرغ الزجاجة مضى في طريقه، وهو سعيد، والمظلة المزوقة محشورة تحت إبطه، فقلت لغوستاف: «أترى نفسك قادرًا على أن تطلق النار على هذا الرجل الطيب وتترك ثقبًا في رأسه؟ يا إلهي، أنا لا أقدر».

دمدم صديقي: «لا أحد طلب منك هذا». إلا أنه هو أيضًا لم يرتح كثيرًا للفكرة. إننا ما إن رأينا رجلاً غير مؤذ في سلوكه ومسالماً وأشبه بطفل ولا يزال يعيش حالة من البراءة حتى أصبحت أشد نشاطاتنا ضرورة واستحقاقًا للمديح مجرّد أفكار حمقاء ومثيرة للاشمئزاز، آه، يا لكل هذه الدماء! لقد كنا خجلين من نفسينا. ولكن في الحرب لا بد أن يوجد قائد ما يشعر مثلنا.

قالت دورا مناشدة: «دعونا لا نمكث هنا أكثر من ذلك. فلننزل. لا بد أن نعثر على شيء من الطعام في السيارات. ألستما جائعين، أيها البلشفيان؟».

في البلدة المحترقة أسفل الوادي بدأت النواقيس تجلجل برعب ضار، وصممنا على الهبوط. وبينما أنا أساعد دورا على اجتياز المتراس المرتجل، قبّلت ركبتها. فضجّت بالضحك، ثم انهارت الألواح الخشبية فوقعنا معًا على بقعة أرض خالية.

* * *

مرة أخرى وجدتني واقفًا في الرواق المستدير، وإثارة مغامرة الصيد تستولي عليّ. وكان قد كتب في كل مكان على كل الأبواب الغفيرة العبارات الجاذبة التالية:

موتابور

التحول إلى أي حيوان أو نبات وحسب الرغبة

كاماسوترام

إرشادات في فنون الحب الهندي – دورة للمبتدئين،

اثنان وأربعون وسيلة وتمرين مختلفة.

الانتحار اللذيذ

اضحك حتى تتمزق أشلاءً

أتريد أن تتحول بأكملك إلى روح؟

عليك بمحكمة الشرق.

انهيار الغرب

أسعار معتدلة – لا تُنافس

الفاني في الفن

التحول من الزمن إلى الفراغ

بواسطة الموسيقى

الدموع الضاحكة

غرفة الفكاهة

تيسير العزلة

استبدال كافة أشكال حب الاختلاط

كانت سلسلة الإعلانات لا حصر لها، وأحدها قال:

النجاح مضمون.

وقد بدا لي هذا الأخير يستحق الاطلاع على ما ورائه فدخلت هذا الباب.

وجدتني في غرفة شبه معتمة وهادئة ورجل مع ما يشبه رقعة شطرنج كبيرة موضوعة أمامه جالس على الطريقة الشرقية على الأرض. للوهلة الأولى حسبت أنه الصديق بابلو. على أي حال كان يرتدي سترة حريرية فخمة مشابهة، وله العينان السوداوان المشرقتان نفسهما.

«أأنت بابلو؟».

أجاب بلهجة ودية: «أنا لا أحد، لا أسماء لنا هنا، ونحن لسنا أشخاصًا. أنا لاعب شطرنج. أترغب بتلقي إرشادات في بناء الشخصية؟».

«نعم، من فضلك».

«إذن تلطّف وضع حفنة من قطعك تحت تصرفي».

«قِطعي؟».

«من القطع التي ترى فيها ما تسميه شخصيتك المحطمة، أنا أستطيع أن ألعب دون قطع».

وضع مرآة أمامي، ورأيت من جديد وحدة شخصيتي المحطمة إلى ذوات عديدة، بدا أن عددها قد ازداد، إلا أن القطع كانت قد أضحت صغيرة جدًا، وحجمها يقترب من حجم البيادق. أخذ اللاعب حفنة منها بين أصابعه الهادئة والواثقة ووضعها على الأرض بالقرب من رقعة الشطرنج، ولما فعل ذلك بدأ يتكلم بنبرة رتيبة كمن يتلو أو يقرأ

شيئًا، واعتاد أن يفعل ذلك غالبًا.

«أنت تعرف الفكرة الخاطئة أو المؤسفة التي تقول إن الإنسان يشكل وحدة باقية. وتعرف أيضًا أن الإنسان يتألف من حشد من الأرواح، من عدد غفير من الذوات. وانفصام الشخصية إلى هذه القطع الغفيرة يؤدي إلى الجنون. وقد ابتكر العلم لهذه العملية اسم الشيزوفرينيا (انفصام الشخصية)، والعلم في هذا محق حتى الآن طالما أنه لا يمكن التعامل مع أي تعددية إلا إذا توفر تسلسل، أو نظام وتصنيف معينين. وهو مخطئ طالما لا يوجد حسب نتائجه إلا نظام واحد مُلزِم ودائم حتى نتمكن من التعامل مع تعددية الذوات الثانوية. إن هذا الخطأ الذي يرتكبه العلم له الكثير من العواقب السيئة، وله ميزة وحيدة هي تبسيط عمل القساوسة والمربين المعيَّنين من قبل الدولة وإعفاؤهم من مشقة التفكير المبدع. ونتيجة لهذا الخطأ يُعتبر العديد من الأشخاص طبيعيين، بل وأعضاء ذوي قيمة عالية في المجتمع، وهم في الحقيقة مجانين ميؤوس منهم، ومن ناحية أخرى هناك عديدون يُعتبرون مجانين وهم عباقرة. وعليه فنحن نكمل نقص علم نفس بالمفهوم الذي نسميه فن بناء الروح. إننا نبيِّن لكل منْ تفتتت روحه قطَعًا أن في إمكانه أن يعيد ترتيب هذه القطع التي تخص روحًا سابقة بأي ترتيب يشاء، فيصل بهذا إلى عدد لا يحصى من النقلات في لعبة الحياة. وكما يؤلف الكاتب المسرحي دراما من حفنة من الشخصيات، كذلك نبني نحن من قطع الذات المفتتة مجموعات جديدة تمامًا، وبتفاعل وتشويق جديدين تمامًا، وبأوضاع جديدة تمامًا لا تنضب أبدًا، انظر».

بلمسة واثقة وصامتة من أصابعه الماهرة أمسك بقطعي، بكل العجائز والشبان والأطفال والنساء، المرحين منهم والحزانى، الأقوياء منهم والضعفاء، الرشيقين والبلداء، ورتبهم بسرعة على رقعته

استعدادًا للَّعب. وعلى الفور تشكلوا مفرزات وفصائل، وأعدّوا خططًا ومعارك، وعقدوا صداقات وعداءات، مكونين بذلك عالما صغيرًا وحدهم ودون مساعدة. وترك هذا العالم الذي يضج بالحياة ولكن المنظِّم أيضًا بعض الوقت كي يمرّ بتحولاته أمام عيني المفتونتين لهوًا وكفاحًا، يقيم المعاهدات ويخوض المعارك، يتودّد، يتزوج ويتناسل. لقد كان بحق خشبة مسرح تغص بما عليها ودراما متحركة لا تهدأ.

ثم مرَّر يده بسرعة فوق الرقعة وجرف برفق كل القطع وكوَّمها. ومن ثم أنشأ، متأملاً وببراعة فنان، لعبة جديدة من القطع نفسها بتقسيمات وعلاقات وتشابكات مختلفة كل الاختلاف. وكان للعبة الثانية صلة وثيقة بالأولى، فقد كان العالم نفسه بُني من المواد نفسها، لكن السمة المميزة اختلفت، والزمن تغير، والدافع أطلق بشكل مختلف والأوضاع قدِّمت بطريقة مختلفة.

بهذه الطريقة راح المهندس الماهر ينشئ اللعبة تلو اللعبة من الأشكال التي كان كل منها يؤلف جزءًا مني، وكان كل منها يختلف كل الاختلاف عن الأخرى، وكل منها ينتمي بشكل ملحوظ إلى العالم نفسه ويعترف بأصل مشترك، ومع ذلك فكل منها كان فريدا تمامًا.

قال بأسلوب أستاذ مدرسة: «هذا هو فن الحياة. إنك قد تطور لعبة حياتك، وتبث فيها الحيوية، قد تعقّدها وتغنيها كما تشاء. فهي رهن يديك. وكما أن الجنون، بالمعنى الأرقى للكلمة، هو بداية كل حكمة، كذلك الشيزوفرينيا هي بداية كل فن وكل خيال جامح. حتى المثقفون توصلوا جزئيًا إلى هذه المعلومة، كما يمكن أن نفهم، مثلاً، من «الأمير فوندر هورن»، ذاك الكتاب الساحر، الذي يخلّد كل رجل مثقف وجهوده، بمساعدة عبقرية من عدد من المجانين والفنانين عُزلوا بسبب ما هم عليه. هناك، خذ قطعك الصغيرة معك، سوف تمنحك اللعبة

المتعة غالبًا. والقطعة التي تتعاظم اليوم لتصبح بحجم بغيض، سوف تحطّمها غدًا لتغدو مجرد شخص تافه. وسندريلا التعيسة ستصبح في اللعبة التالية الأميرة، أتمنى لك أقصى متعة، يا سيدي العزيز».

انحنيت انحناءة كبيرة للاعب الشطرنج الموهوب، ووضعت القطع الصغيرة في جيبي ثم انسحبت عائدًا من الباب الضيق.

كان في نيتي أن أجلس من فوري على أرض الرواق، وأظل ألعب اللعبة ساعات طوال، بل إلى الأبد، ولكن ما إن خرجت إلى الضوء الساطع في ممرّ المسرح الدائري حتى وجدتني مدفوعًا بتيار لا يقاوم لمواصلة المسير. ثم ومض أمامي ملصق مبهر يقول:

أسلوب رائع لترويض ذئب السهوب

تلاطمت انفعالات مختلفة داخلي لمرأى هذا الإعلان. وأخذ قلبي يتعرض لتقلصات مؤلمة سببها كافة صنوف الخوف والقمع من حياتي السابقة والواقع الذي خلّفته ورائي. فتحت الباب بيد مرتعشة فوجدتني على خشبة مسرح بائسة. وعلى الخشبة رأيت مروّض وحوش، هو بائع سلع رخيصة يتخذ هيئة نفاجة، على الرغم من شاربه الكبير وعضلات ساعديه الضخمة وزي السيرك السخيف الذي يرتديه كان له شبه خبيث ومقيت بلا جدال بي. وكان الرجل يقود، بصورة تدعو إلى الأسى، ذئبًا ضخمًا وجميلاً ولكنه هزيل جدًا برسن وكأنه كلب، كانت تطل من عينيه نظرة مختلسة ومذعورة، وكان مشهد مروض الوحوش القاسي هذا، المثير للاشمئزاز بقدر ما هو آسر، والفظيع بقدر ما يوفر تسلية سرية، وهو يُخضع الحيوان الضاري النبيل والمطيع أيضًا بصورة مذلة لسلسلة من الخدع والحركات المذهلة.

على أية حال، لقد طوّع الرجل، شبيهي المشوّه بصورة شيطانية،

ذئبه بشكل رائع. وأصبح الذئب ينتبه بإذعان لكل أمر، ويستجيب ككلب لكل نداء ولكل فرقعة سوط. وكان يركع على ركبته، ويتظاهر بالموت وأيضًا يقلّد سيده، فيحمل رغيف خبز أو بيضة أو قطعة لحم أو سلة بفمه بإذعان مرح، بل لقد كان عليه أن يلتقط السوط الذي تركه المروِّض يسقط منه وحمله إثر ذلك بأسنانه وهو يهزّ ذيله بخنوع لا يطاق. ثم وُضع أمامه أرنب ثم حمَل أبيض. فكشّر عن أنيابه، بحق، وأخذ لعابه يسيل من فمه وهو يرتعش رغبة، لكنه لم يلمس أيًا من الحيوانين، وفور سماعه كلمة آمرة قفز عليهما قفزة رشيقة، وهما جالسان على الأرض منكمشين يرتعشان خوفًا. بل لقد جلس بين الأرنب والحمل وعانقهما بمخلبيه الأماميين ليشكلوا معًا مجموعة عائلية مؤثرة، وأخذ في الوقت نفسه يأكل قضيبًا من الشكولاتة، من يدٍ الرجل. لقد كان موجعا مشاهدة المدى العجيب الذي وصل إليه تعلّم الذئب مخالفة غريزته. فتجمّدت هناك وقد انتصب شعر رأسي.

إلا أنه كان هناك بعض التعويض للمراقب المرتعب وللذئب نفسه معًا، وذلك في الجزء الثاني من البرنامج. فبعد هذا العرض الراقي لترويض الحيوانات، وبعد أن ينحني الرجل ذو ابتسامة النصر انحناءة انتصاره في جمع الذئب مع الحمل، تُعكس الأدوار. إذ فجأة يضع شبيهي صاحب العرض سوطه بكل وقار عند قوائم الذئب ويضطرب وينكمش ويصبح بائس الحال كما كان الذئب من قبل. أما الذئب فأخذ يلعق فمه مكشّرًا، وقد اختفى ارتباكه ورياؤه، واتقدت عيناه، وتوتر جسمه وأظهر الابتهاج الذي شعر به لدى استرجاعه غريزته الوحشية.

ثم تولى الذئب إصدار الأوامر، وأطاع الرجل، وكان على الرجل عند كل أمر أن ينيخ على ركبتيه، ويدلّي لسانه، ويمزق ملابسه بأسنانه

الحادة. وكان يمشي على قدمين أو على أربع كما يأمره الذئب، ويقلد البشر، ويتمدّد كأنه ميت، ويدع الذئب يركب على ظهره، ويلاحقه بالسوط. وكان يرضخ بفرح خليق بكلب لكل إذلال وتحريف لطبيعته. ودخلت فتاة جميلة إلى خشبة المسرح، واقتربت من المروِّض، فداعبت ذقنه، وحكّت وجنتها بوجنته، لكنه ظل رابضًا على قوائمه الأربع، وظل حيوانًا. هزّ رأسه، وأخذ يبرز أسنانه للمخلوقة الفاتنة إلى أن أخذ يفعل ذلك مهددًا على طريقة الذئب، ففرّت هاربة. ووضعت الشوكولاتة أمامه، لكنه أخذ يشمّها بامتعاض، ثم أبعدها عنه بخطمه. وأخيرًا أحضر الحمل الأبيض والأرنب الأرقط السمين من جديد، وقام الرجل الطيّع بآخر حركاته، ولعب دور الذئب بشكل مسلٍّ جدًا، فقبض على المخلوقين الزاعقين بأصابعه وأسنانه، ومزّقهما إربًا، ثم راح يمضغ اللحم الحي مكشّرًا، ويجرع منتشيًا دمها الدافئ وهو مغمض العينين في استمتاع حالم.

اتجهت صوب الباب يملؤني الرعب، واندفعت خارجًا. لقد كان جليًا أن هذا المسرح السحري ليس فردوسًا. فتحت سطحه الجذاب يكمن جحيم كامل. آه، يا إلهي، حتى هنا لا توجد وسيلة للتحرر؟

رحت أركض في هذا الاتجاه أو ذاك يتملكني الخوف، وأنا أحمل معي مذاق الدم والشوكولاتة في فمي، وكل منهما مقزز للنفس أكثر من الآخر. وكان كل ما رغبت فيه أن أبتعد قدر ما أستطيع عن موجة التقزز هذه التي غمرتني. ورحت أتصارع مع نفسي سعيًا وراء مزيد من الصور المقبولة أكثر، والودية أكثر. وكان نشيد «آه يا أصدقائي، لا تغنّوا هذه الألحان[1]». يتردد في ذهني، وتذكرت وأنا مرعوب

---

(1) هو نشيد الفرح الذي ألّفه الشاعر الألماني شيللر، واستخدمه الموسيقار الألماني بيتهوفن في سمفونية «التاسعة». (المترجم).

تلك الصور الفوتوغرافية الفظيعة عن الجبهة ويراها المرء أحيانًا خلال الحرب، تلك الأكوام من الجثث المتشابكة معًا، التي تحولت وجوهها إلى غيلان مكشرة وهي تضع أقنعة الغاز. ما كان أشد حمقي وسخافتي، وأنا ذو العقل الإنساني المناهض للحرب، إذ ينتابني الرعب جراء النظر إلى تلك الصور. واليوم أعرف أنه ليس هناك أي مروّض للوحوش أو قائد حربي أو مجنون يستطيع أن يستحضر فكرة أو صورة في ذهنه أعجز أنا عن أن أتكيف معها أو مع واحدة مثلها لا تقل عنها إثارة للرعب ووحشية وخبثًا وفظاظة وحمقًا.

تذكرت بارتياح غامر الملاحظة التي رأيتها أول ولوجي المسرح، تلك التي زعق ذاك الفتى اللطيف وهو يقرؤها:

كل الفتيات تحت تصرفك

وبدا لي بشكل عام أنه لا يوجد بحق ما يضاهي هذه الدعوة في جاذبيتها وقد أبهجني أيّما بهجة أن أكتشف أن في مقدوري أن أهرب من عالم الذئب الملعون ذاك، ومن ثم دخلت.

قابلني عبير فصل الربيع، لقد كان يكتنفني جوهر سمات الفتوة والشباب المألوف بعمق والأسطوري أيضًا، وتدفقت في عروقي دماء تلك الأيام. كل ما كنت قد فعلته وفكرت فيه وكنته منذ ذلك الحين غادرني، وعدت شابًا من جديد. وكنت قبل ساعة، بل حتى قبل بضع دقائق، أفتخر بمعرفتي الحب والرغبة والتوق، إلا أنه كان حبَّ وتوقَ رجلٍ كهل. والآن ها قد عدت شابًا وتيار النار المتوهج ذاك الذي كنت أشعر به يتغلغل داخلي، هذا النبض الحار، هذا الشغف المتدفق كتلك الرياح التي تهب في شهر آذار وتذيب الثلوج، كان يانعا وجديدًا. يا لذاك اللهب الذي كنت قد نسيته كيف طفر إلى الوجود ثانية، وما أشد

رهبة ترجيع أصوات الماضي ! كان دمي يغلي ويتفتَّح ويزهر وهتفت روحي بأعلى صوتها وغنّت. كنت فتى في الخامسة عشرة ورأسي محشوّ باللغتين اللاتينية واليونانية وبالشعر. كنت متّقدًا بالطموح، وكان خيالي مثقلاً بأحلام الفنان. ولكن ما كان أشد عمقًا من كل ذلك وأقوى وأقسى، ويتلظى ويمور داخلي فلهب الحب والجوع إلى الجنس وحمّى الرغبة ونذيرها.

كنت واقفًا على أنف التلال المطلة على البلدة الصغيرة التي أعيش فيها. وكانت الريح تعبق بعبير الربيع والبنفسج وتتغلغل في شعري المرسل. وفي الأسفل داخل البلدة رأيت لمعان مياه النهر ونوافذ بيتنا، وكل ما رأيت وسمعت وشممت غمرني بنضارة وكأنه يخرج إلى الوجود لتوّه، وبتألّقِ عمقِ اللون، تُأرجحهُ ريح الربيعً ليمرّ بتحولات سحرية، تمامًا كما كنت قد نظرت إلى العالم بعيني الشباب، الشباب الأول والشعر الأول. وبيدٍ سارحة انتزعت ورقة برعم نصف متفتح من شجيرة حديثة الاخضرار. تأملتها وشممتها (ومع الرائحة عاد كل ما يتعلق بتلك الأيام متوهجًا)، ثم وضعتها بين شفتيّ، شفتان لم تكن أي فتاة قد قبَّلتهما بعد، وأخذت أمضغها عابثًا. ومن مذاقها الحامض العطِر في آن واحد، عرفت على الفور وبدقة ما الذي كنت أعايشه من جديد. لقد عاد إليّ كل شيء، كنت أعيش من جديد ساعة من سنوات فتوّتي الأخيرة، بعد ظهر يوم أحد في أوائل الربيع، اليوم الذي قابلت فيه روزا كرايزلر وأنا أتمشى وحدي، وحيّيتها بحياء شديد وعشقتها حتى الجنون.

جاءت، في ذاك النهار، وحدها ترتقي التل حالمة باتجاهي، لم تكن قد رأتني، وملأني مرآها وهي تقترب بالخوف والترقب. رأيت شعرها مربوطًا على شكل ضفيرتين ثخينتين، مع جديلتين على كل جانب،

والريح تداعب وجنتيها، رأيت لأول مرة في حياتي كم كانت جميلة، وكم كان جميلاً وشبيهًا بالحلم عبث الريح بشعرها الناعم، وكم كان جميلاً ومثيرًا انسدال ثوبها الأزرق الهفهاف على أعضائها البضة، وتمامًا كما غمرتني نكهةُ البرعم المضوغ الحريفةُ بكامل بهجة الربيع وألمه المخيفين، كذلك ملأنَي مرأى الفَتاة بكامل نذير الحب القاتل، بنذير امرأة. تلك اللحظة كانت تنطوي على صدمة احتمالاتٍ ووعودٍ هائلة وتحذيرها وبهجة مبهمة وارتباكات وألم ومعاناة، تعصى على الوصفً، على أوغلِ تحررٍ وأعمقِ شعورٍ بالذنب. آه، ما أفظع مذاق الربيع المرّ على لساني! وكيف انسابت الريح عابثة تتغلغل في الشعر المنسرح حول وجنتيها الورديتين! ثم أضحت قريبة. رفعت بصرها وعرفتني. تضرجت قليلاً لبرهة، ونظرت إلى الناحية الأخرى. ولكن عندما خلعتُ قلنسوة المدرسة، سرعان ما تمالكت نفسها، ثم رفعت رأسها، وردّت على تحيتي بابتسامة ناضجة تمامًا. ومضت في طريقها، وقد سيطرت على الموقف سيطرة تامة، فأرسلت خلفها هالة من ألف رغبة وأمنية وهيام.

هذا ما حدث ذات يوم أحد قبل خمسة وثلاثين عامًا وكل ما كان قد حدث استعدته في تلك اللحظة. التل والبلدة، ريح آذار والمذاق الزميل، وروزا وشعرها البني وجَيَشَان الرغبة وخنق الألم العذب. كل شيء كما كان عندئذ، وبدا لي أنني لم أعشق أحدًا في حياتي مثلما عشقت روزا في ذاك النهار. ولكن هذه المرة أتيح لي أن أحيّيها في مناسبة أخرى غير تلك. رأيت تضرّجها خجلاً عندما تعرّفت إليّ، والجهد الذي بذلته لتخفيه، وأدركت على الفور أنها تميل إليّ وأن هذا اللقاء يعني لها بقدر ما يعني لي. وفي هذه المرة بدل أن أكتفي بالوقوف بشكل مهذب وقلنسوتي في يدي إلى أن تتجاوزني وتبتعد،

قمت، على الرغم من الألم الذي يقارب الهاجس، بما أمرني دمي أن أقوم به. هتفت: «روزا! الحمد لله أنك جئت، أنت فتاة جميلة، جميلة. وأنا أحبك حبًا فائقا». لعل قولي لم يكن ألمع ما قيل في هذا المجال في تلك اللحظة، إلا أنه لم يكن ثمت حاجة إلى التألق عندئذ، وكان ذلك يكفي ويزيد. ولم تتخذ روزا هيئة البالغين، ولم تتابع طريقها. بل توقفت ونظرت إليّ، وقالت وقد تضرجت وجنتاها أكثر من ذي قبل: «مرحبًا هاري- أحقًا أنا أعجبك؟». وأضاءت عيناها البنيتان وجهها القوي التقاطيع، وبيّنتا لي أن حياتي الماضية وعلاقاتي العاطفية كلها كانت زائفة ومرتبكة ومفعمة بالتعاسة الحمقاء منذ تلك اللحظة من بعد ظهر يوم أحد عندما تركت روزا تتجاوزني وتمضي. أما الآن فقد تم تصحيح الخطإ الفاضح، وسار كل شيء بشكل مختلف وعلى أحسن ما يرام.

تشابكت أيدينا، وسرنا الهوينا يدًا بيد تغمرنا السعادة والارتباك. لم نكن ندري ماذا نفعل أو نقول، لذا رحنا نسرع خطانا باضطراد من فرط ارتباكنا، ومن ثم انطلقنا نركض، وظللنا نركض إلى أن انقطعت أنفاسنا واضطررنا إلى التوقف تمامًا. لكن يدينا بقيتا متماسكتين. لقد كنا ما نزال طفلين ولم ندر بالضبط ماذا نفعل معًا. في يوم الأحد ذاك لم نتبادل حتى القُبَل، لكننا كنا سعيدين سعادة تفوق الوصف. توقفنا لنلتقط أنفسنا. ثم جلسنا على العشب، ومسّدتُ على يدها بينما كانت تمرر اليد الأخرى بحياء على شعرها. ومن ثم عدنا فنهضنا واقفين وحاولنا أن نعرف من منا الأطول قامة. في واقع الأمر كنت أنا الأطول قامة بمقدار عرض إصبع لكنني لم أبيّن ذلك. وأكّدتُ لها أننا متعادلان في الطول وأن الله قد خلق كلاً منّا للآخر وأننا فيما بعد سنتزوج. ثم قالت روزا إنها شمّت عبير زهر البنفسج فركعنا

على عشب الربيع القصير ورحنا نبحث عنه حتى عثرنا على بعض السيقان القصيرة فأعطيتها ما وجدته وأعطتني ما وجدته هي. ولما بدأ الجو يبرد والشمس تميل نحو المغيب من فوق الجروف، قالت روزا إن عليها أن تعود إلى البيت. وعلى الأثر انتاب الحزن كلينا، فلم أجرؤ على مرافقتها. غير أننا كنا نتقاسم سرًا، وكان أغلى ما نملك. وبقيت عند الجروف وانبطحتُ على حافة المنحدر الشاهق أستشرف البلدة مراقبا قامتها الصغيرة الحلوة لتظهر بعيدًا في الأسفل. فرأيتها تتجاوز النافورة وتعبر الجسر. ثم عرفت أنها قد وصلت إلى بيتها وأنها تنتقل من غرفة إلى أخرى، وأنا أستلقي هناك بعيدًا عنها، ولكن كان هناك رابط يصل ما بيننا. تيار واحد يسري في كلينا، وسرٌّ يتنقل بيني وبينها.

تكررت لقاءاتنا في أماكن متفرقة طوال فصل الربيع، تارة على الجروف، وأخرى على سياج الحديقة، وعندما بدأ زهر الليلك يتفتح تبادلنا أول قُبلة حيّة. وكان نادرًا ما يتبادل الأطفال مثلنا أي هبات، وكانت قبلتنا تفتقر إلى الحرارة والإشباع. ونادرًا ما غامرت بلمس ضفيرتي شعرها المحيطتين بأذنيها. لكن كل الحب والفرح الذي كان فينا كان ملكنا. كانت عاطفة خجلى والعهد الذي تعاهدنا عليه كان لا يزال سابقًا لأوانه، لكن تلك الرعاية الخائفة التي يحيط بها كلّ منّا الآخر عرّفتنا إلى سعادة جديدة. وارتقينا درجة واحدة على سلّم الحب. وهكذا، بدءًا من روزا والبنفسج، عشت من جديد كل علاقات الحب التي مررت بها في حياتي، ولكن في ظروف أفضل. فقدتُ روزا، وظهرتْ «إرْمغاد» وكانت الشمس أشد حرارة والنجوم أقل ثباتًا، لكن حبي لـ «إرْمغاد» لم يكن يفوق حبي لروزا. كان لا بد أن أرتقي السلم درجة درجة. كان أمامي الكثير لأعايشه والكثير لأتعلمه، وكان لا بد أن

أفقد إرمغاد وآنّا أيضًا. وكل فتاة كنت قد أحببتها في شبابي، أحببتها من جديد، لكنني الآن أصبحت قادرًا على أن ألهِبَ الحب في كل منهن. كان هناك شيء استطعت أن أمنحه لكل منهن، شيء بات في إمكان كل منهن أن تمنحه لي. والرغبات، والأحلام، والاحتمالات التي لم تكن ذات يوم تجد لها حياة في مخيلتي أضحت الآن تعيش على أرض الواقع. مررن من أمامي كأزهار جميلة، «إدا» و«لورا» وكل من أحببت مدة صيف، أو شهر، أو يوم.

ها أنا ذا الآن، كما أدركت، قد أضحيت فتى على قدر من الوسامة والاتقاد رأيته يندفع بلهفة شديدة نحو باب الحب. كنت أعيش فقط جزءًا صغيرًا من ذاتي، جزء صغير لم يُعبَّر عنه في حياتي الواقعية ووجودي ولا بمقدار عُشر أو واحد على ألف من الجزء، وكنت أعيشه حتى الثمالة. أراقبه ينمو دون أي إزعاج من أي جزء آخر مني. لم يشوّشه المفكّر، ولا عذّبه ذئب السهوب، ولا قزّمه الشاعر الرؤيوي، ولا المعلّم الأخلاقي. لا،لم أكن عندئذ غير عاشق، ولم أتنفّس أي سعادة أخرى، ولا عانيت غير ألم الحب. كانت «إرمغاد» قد علمتني الرقص وعلمتني «إدا» كيف أقبّل، وكانت «إمّا»، أجملهن جميعًا، هي أول من قدّمت لي نهديها لأقبّلهما، في أمسية خريفية تحت شجرة درداء تتهادى، وكأس الرغبة المترع لأجرعه.

لقد عايشت الكثير في مسرح بابلو الصغير، ولا يمكن التعبير بالكلام حتى عن جزء من ألف منه. كل الفتيات اللواتي أحببتهن كن لي، كل واحدة منهن منحتني ما لا تستطيع إلا هي أن تمنحه، ومنحت أنا كلاً منهن ما لا تعرف إلا هي كيف تأخذه. وكان من نصيبي الكثير من الحب، الكثير من السعادة والكثير من الانغماس في الأهواء، والكثير من الحيرة، أيضًا، والمعاناة. كل الحب الذي افتقدته خلال

حياتي أزهر كما السحر في حديقتي خلال ساعات الحلم تلك، كان فيها أزهار طاهرة رقيقة، وأخرى صارخة الألوان مزعجة الوهج، وأزهار قاتمة تذبل ببطء. كان فيها الشهوة المستعرة، والفكر الحالم الرقيق، والسوداوية المتقدة، والاحتضار المؤلم، والولادة المشعة. وجدت نساء لا يمكن نيلهن إلا عنوة وأخريات من الممتع التودد إليهن ونيلهن بالتدريج. وكل ركن معتم من حياتي ناداني فيه، ولو برهة من الزمن، صوت الجنس، ونظرة خاطفة مثيرة من امرأة أو وميض بشرة فتاة بيضاء أغواني، برز من جديد وكل ما كان قد افتُقد عُوِّض. كلهن كن ملكي، وكل على طريقتها الخاصة. والمرأة ذات العينين البنيتين الغامقتين الرائعتين تحت الشعر البني الشاحب كانت هناك. وقفت إلى جوارها مدة ربع ساعة في رواق قطار سريع وبعد ذلك كثيرًا ما ظهرت لي في أحلامي. لم تتفوّه بأي كلمة، لكن ما علمتنيه في فن الحب كان فوق التصور ومخيفًا ومهلكًا. والصينية الدمثة، الهادئة، من مرفإ مارسيليا، بابتسامتها الناعمة، وشعرها الأملس الحالك السواد والعينين الرقراقتين، هي أيضًا كانت تعرف أمورًا لا ترِد حتى في الأحلام. كان لكل واحدة سرها وشذى تربتها. كل واحدة قبّلت وضحكت بأسلوبها الخاص بها، إن كانت مشينة فبطريقتها المميزة وإن كانت وقحة فبطريقتها الخاصة. كنّ يتوافدن ويرحلن. كان التيار يحملهن إليّ ويجرفني إليهن ويعيدني. كنت طفلاً في تيار الجنس ألهو وسط كل سحره وخطره ومفاجآته. وقد أدهشني أن أكتشف مدى غنى حياتي، حياة ذئب السهوب، التي تبدو ظاهريًا شديدة الفقر وخالية من الحب، في ظل فرص الحب ومغرياته. كنت قد افتقدتها، وهربت منها، وتعثرت بها، وأسرعت في نسيانها، ولكن ها هي جميعًا مخزَّنة بأعدادها الغفيرة، ولم تُفقد واحدة منها. والآن وقد شاهدتها،

استسلمت لها وأنا أعزل، وغصت داخل شفق عالمها السفلي الوردي، حتى تلك الغواية التي كان بابلو قد دعاني إليها عادت إلي من جديد. وهناك أخرى من مرحلة مبكرة، لم استوعب أيًا منها في حينه، هي ألعاب غريبة يؤديها ثلاثة أشخاص أو أربعة، أسرتني وأنا أضحك بمرحها. أمور كثيرة حدثت، وألعاب عديدة لُعبت تعجز الكلمات عن وصفها.

عندما ارتفعتُ من جديد إلى سطح تيار الغواية والشر والتنوير اللانهائي، كان يرين علي الهدوء والصمت. كنت مجهزًا، متوغلاً عميقًا في المعرفة، وحكيمًا، وخبيرًا، كنت مبتعدًا وجاهزًا لهرمينه. وقد برزت بما هي آخر شكل في حشدي الميثيولوجي المزدحم، آخر رسم لقصة الحب الخيالية هذه إذ لم أرغب في أن أقابلها في عتمة المرآة السحرية هذه. إنني أنتمي إليها ليس فقط بوصفي هذه القطعة الواحدة في لعبة الشطرنج، بل أنتمي إليها بكلّي. أوه، كم أود الآن أن أنشر القطع في لعبتي التي تتمركز كلها فيها، وأبدأ الإنجاز.

كان التيار قد جرفني إلى الشاطئ. ومن جديد وجدتني واقفًا في ممر المسرح الذي يلفّه الصمت. والآن ماذا؟ تحسست الأشكال الصغيرة القابعة في جيبي، لكن هذا الحافز كان قد خبا. وكان يحيط بي عالم الأبواب والملاحظات والمرايا السحرية الذي لا ينضب، وقرأت بفتور أول كلمات لمحتها عيناي، فارتعشت:

كيف تقتل لأجل الحب

هذا ما كان مكتوبًا.

ارتسمت بسرعة البرق صورة على جدار ذاكرتي باهتزازة عنيفة وبقيت مرسومة برهة. كانت صورة هرمينه جالسة على مائدة في

مطعم، وفجأة تركت النبيذ والطعام، وغرقت في لجة من الكلام، وبدت على وجهها علائم جدية مفزعة وهي تقول إن نصب عينيها هدف واحد من وراء جعلي عشيقًا لها، وإنها سوف تموت على يدي. فاجتاحت قلبي موجة ثقيلة من الألم والسواد. وإذا بكل شيء فجأة يواجهني مرة أخرى. وفجأة عصر قلبي من جديد إحساس بآخر نداء من القدر. وتحسست في جيبي عبثًا بحثًا عن الأشكال الصغيرة حتى أتمكن من ممارسة بعض السحر وأعيد ترتيب تخطيط الرقعة. ولكن الأشكال اختفت. وبدلاً عنها أخرجت سكينًا. ورحت وأنا في حالة رعب قاتل أجري على طول الرواق، متجاوزًا كل الأبواب. ثم توقفت أمام مرآة عملاقة. ونظرت فيها. فإذا بي أرى فيها ذئبًا جميلاً يبلغ قامتي واقفًا هناك. كان ساكنًا، يرمقني بحياء بعينيه القلقتين. وبينما هو ينظر إلي شذرًا، إذا بعينيه تتقدان غضبا، ورسم تكشيرة صغيرة حتى تباعدت شفتاه وكشفتا عن لسانه الأحمر.

ترى أين بابلو، أين هرمينه؟ أين ذاك الرجل الحاذق الذي راح يتحدث بشكل مسلٍ عن بناء الشخصية؟.

من جديد نظرت في المرآة. لقد مسّني الجنون. إذ لا وجود لأي ذئب في المرآة يدلّي لسانه بين فكّيه. لقد كان أنا، هاري. كان وجهي شاحبًا شحوبًا مرعبًا، إلا أنه كانه ما يزال يمثل كائنًا بشريًا، يمكن التحدث إليه.

قلت: «هاري، ماذا تفعل هناك؟».

قال الظاهر في المرآة: «لا شيء، فقط أنتظر، أنتظر الموت».

«وأين هو الموت؟».

قال الآخر: «قادم». وسمعت من المساحات الخاوية داخل المسرح أنغامًا موسيقية، موسيقى جميلة ومروعة، مأخوذة من أوبرا «دون

خوان» والتي تعلن عن اقتراب الضيف الحجري. جلجلت في أرجاء دار المسرح المخيفة، مع قرقعة حديدية ورهيبة، قادمة من العالم الآخر، عالم الخالدين.

قلت في نفسي: «موتسارت» ومع هذه الكلمة استحضرت أجمل صورة تضمنتها حياتي الداخلية وأشدّها استنهاضًا للروح.

على الأثر، اصطخبت خلفي نوبة ضحك، ضحك صاف وبارد كالثلج قادم من عالم ماورائي يجهله البشر، عالم من الآلام، من فكاهة مطهرة وقدسية. تلفتُّ حولي، وقد جمّدني نعيم هذا الضحك، وإذا بي أمام موتسارت. لقد تجاوزني وهو يضحك ومضى، وأثناء سيره المتئد فتح باب أحد المقاصير وولجه. فتبعت متلهفًا إله عهد شبابي، كان موتسارت يميل عبر مقدمة المقصورة. ولم يكن ظاهرًا من المسرح أي شيء. وكان الظلام يغمر المساحة الشاسعة.

قال موتسارت: «أتعلم، ستكون على أحسن ما يرام دون آلة الساكسفون، وإن كنت بلا ريب لا أتمنى أن أجرح مشاعر تلك الآلة الموسيقية الشهيرة».

سألته: «أين نحن؟».

«نحن في آخر فصل من أوبرا «دون خوان» ليبوريللو راكع على ركبتيه، مشهد ممتاز، والموسيقى أيضًا، وبصورة ما، رائعة، لا شك في أنها غنية جدًا وإنسانية جدًا، لكنك تستطيع أن تسمع الضحك و العالم الآخر فيها، هه؟».

قلت بأبّهة أستاذ مدرسة: «إنها آخر أعظم موسيقى أُلِّفت قاطبة. طبعًا بعد ذلك جاء شوبرت وهوغو فولف أيضًا، ويجب أن لا أنسى أيضًا المسكين المحبوب شوبان. أتعبس يا مايسترو؟ آه، نعم، بيتهوفن هو أيضًا رائع، ولكن كل هذه الموسيقى، رغم جمالها، تتصف بشيء

من العاطفية المفرطة، بشيء من الانحلال. إن عملاً بكمال وقوة أوبرا «دون خوان» لم يظهر بين البشر منذ ذلك الحين».

ضحك موتسارت، في نبرة سخرية مخيفة: «لا ترهق نفسك هكذا، أنت نفسك موسيقي، كما فهمت. حسن، لقد تخليت عن هذا العمل واستقلت لأرتاح. وأنا أطل على المهنة من وقت لآخر فقط من باب التسلية».

رفع يديه وكأنه يقود فرقة موسيقية، وكأن قمرًا ما أو كوكبة باهتة من النجوم، قد أشرقت. أرسلت نظري عبر حافة المقصورة إلى أعماق المدى غير المحدودة. كان الضباب والغمام يغمران المكان والجبال وشواطئ البحر تومض، وامتدّ تحتنا سهل مقفر على مساحة العالم. وفي هذا السهل رأينا سيدًا عجوزًا يبدو عليه الوقار والاحترام، له لحية طويلة، يسير بكآبة على رأس طابور هائل ممّا يقارب العشرة آلاف رجل متشحين بالسواد، وهيئته تنم عن السوداوية واليأس، فقال موتسارت:

«انظر، ها هو برامز، إنه يكافح لنيل الخلاص، لكن ذلك سيستغرق منه حياته كلها».

أدركت أن آلاف الرجال المتشحين بالسواد ما هم إلا عازفو تلك الأنغام والأجزاء من قِطَعِهِ الموسيقية التي كانت، وفقًا للأحكام القدسية، زائدة.

قال موتسارت وهو يومئ: «توزيعها الأوركسترالي مغالى في كثافته، وهناك هدر مسرف جدًا في المادة الموسيقية».

على الإثر شاهدنا ريتشارد فاغنر يقود مسيرة حشد يعادل الأوّل في كثافته، وشعرنا بضغط تلك الآلاف المتشبثة والملتصقة به. وراقبناه بدوره وهو يجرّ نفسه في سيره بخطى بطيئة تنمّ عن حزن.

علَّقتُ بحزن: «في أيام فتوّتي كان هذان الموسيقيان يمثلان أقصى ما يمكن تصوره من تناقض».

ضحك موتسارت:

«نعم، هكذا هو الوضع دائمًا. إن النظر إلى مثل هذه التناقضات من مسافة قريبة، دائمًا يبين تشابهها المضطرد، فالتوزيع الأوركسترالي المكثف على أي حال لم يكن يدل على نقطة ضعف سواءً في موسقى فاغنر أو برامز. بل كانت غلطة زمنهما».

هتفت محتجًا: «ماذا؟ أكان عليهما أن يدفعا ثمن ذلك باهظًا جدًّا؟».

«هذا طبيعي. القانون يجب أن يتخذ مجراه. إذ لم يكن من الممكن أن يُعرف ما إذا تبقَّى لهما أي سمة شخصية تحسب لهما إلا بعد أن يسدّدا دَيْن زمنهما».

«لكن ذلك لم يكن ذنب أي منهما!».

«طبعًا ليس ذنبهما، ولا ذنب لهما في أن آدم أكل التفاحة، ولكن مع ذلك كان لا بد لهما أن يدفعا الثمن».

«لكن هذا مريع».

«دون شك. الحياة دائمًا مريعة. ونحن لا ذنب لنا في هذا، ومسؤولون في الوقت نفسه عنه. فحالما يولد المرء يغدو مذنبًا من فوره. وإذا لم تكن تعرف هذا، فلا بد أنك قد تلقّيت ثقافة دينية غير عادية».

عندئذ شعرت إني بائس بؤسًا كاملاً. وجدتني أشبه بحاج مُستنزَف من فرط التعب، يجرّ نفسه عبر صحراء العالم الآخر، مثقلاً بحمل العديد من الكتب التي ألّفتها ولا لزوم لها، وبكل المقالات والمواد الصحفية المسلّية، يتبعني جيش من المنضّدين ومعهم الحروف

المطبعية التي عليهم تنضيدها، وجيش من القراء عليهم ابتلاع كل ذلك. يا إلهي، وفوق كل هذا وقبله كان هناك آدم والتفاحة، وكامل الخطيئة الأصلية. إذن، فلا بد من تسديد كل ذلك الدَيْن. في مَطْهَر أبدي. وعندئذ فقط يمكن أن أسأل إن كان قد بقي، بعد كل ذلك، أيّ شيء شخصي، أي شيء خاص بي، أو إن لم يكن كل ما أنجزته وكل نتائجه ليس إلا زبدا بحريا فارغا وموجة صغيرة تافهة في فيض ما انتهى وانقضى.

ضحك موتسارت بصوت عال عندما رأى وجهي المكتئب. وراح يتشَقْلَب في الهواء لإشاعة الضحك، ويُوقّع بعقبيه توقيعات مرتعشة. وفي الوقت نفسه صاح قائلاً لي: «هيه، أيها الشاب، أتشعر بالندم يا رجل، وبانقباض في صدرك؟ أراك تفكر في قرّائك، ناهشي الجثث، وفي كل أصحابك منضّدي الحروف الطباعية، المحرضين البائسين، وفي شاحذي الخناجر. يا لك من صارم عنيف، إنك تجعلني أضحك حتى يهتزّ جسمي ويتمزق بنطالي. آه أيها الساذج، المملّ، الحزين. سأشعل لك شمعة، إذا كان هذا يريحك. ثرثر وبربر، ضع نظارة، والبس أصفادًا، اغْلَق يا مسكين وهُزَّ ذيلك، فلن تحصل على ما تريد بالتردد. أتمنى أن يأخذك الشيطان ويقطعك شرائح ويجلدك إلى أن يكفيك ذلك من أجل كتاباتك وآرائك العفنة المنتحلة بشكل سيء».

إلا أني لم أحتمل هذا. ولم يُبقِ الغضب مكانًا للكآبة. فأمسكت بموتسارت من ضفيرته وإذا به ينطلق طائرًا. وأخذت الضفيرة تستطيل كذيل المذنّب وأنا أنطلق في طرفها. يا له من شيطان، الجو بارد في هذا العالم! إن أولئك الخالدين يحتملون الجو العالي النقاء والمصقع. ولكن مع ذلك كان ممتعًا – هذا الهواء المثلج. لقد عرفت هذا، حتى من خلال البرهة الوجيزة التي سبقت فقداني وعيي.

وتملكتني بهجة حادة براقة ومثلجة ورغبة في أن أضحك بصوت ثاقب وعنيف وخارق كما كان موتسارت قد فعل. غير أن أنفاسي ووعيي خذلاني.

* * *

حين عدت إلى وعيي كنت مذهولاً ومصابًا برضوض، كان نور الرواق الأبيض يسطع منعكسًا على الأرضية الصقيلة، لم أكن بين الخالدين، ليس بعد. كنت، كعهدي دائمًا، على هذا الجانب من لغز المعاناة، من الرجال - الذئاب، والتعقيدات المعذّبة. إنني لم أعثر على بقعة سعيدة، لا مكان لراحة دائمة، لا بد لكل هذا أن ينتهي.

في المرآة العملاقة وقف هاري قبالتي، لم يبد عليه أنه في أحسن حالاته. ظهر تمامًا كما كان قد فعل ليلة زار البروفيسور، وأمضى ليله كلّه جالسًا في حانة «النسر الأسود» والناس يرقصون، لكن ذلك كان في زمن غابر، قبل سنين، قبل قرون مضت. لقد كان قد تقدم في السن، وتعلم كيف يرقص، وقام بزيارة المسرح السحري، وسمع موتسارت يضحك. لم يعد الرقص والنساء والأمواس تثير فيه الرعب. حتى أصحاب المواهب العادية، إذا مُنِحوا بضع مئات من السنين، يبلغون النضج. أطلتُ التأمل في هاري عبر المرآة. مازلتُ أعرفه حق المعرفة، ومازال يحمل شبهًا بسيطًا بالفتى ذي الخمسة عشر ربيعًا الذي كان قد قابل ذات يوم أحد من شهر آذار روزا فوق الجروف وخلع قلنسوة المدرسة لها. ومع ذلك ومنذ ذلِك الحين تقدم في السن بضع قرون. سعى وراء الفلسفة والموسيقى، وأُتخم من الحرب، وشرب نبيذ إلزاس في حانة «الخوذة الفولاذية»، وتناقش حول كريشنا مع أناس ذوي ثقافة حقيقية. وقد عشق إريكا وماريا، وكان صديقًا لهرمينه، وتصيَّد السيارات، وضاجع الصينية الناعمة، وقابل موتسارت وغوته، وأحدث

ثقوبًا عديدة في نسيج الزمن وشقوقًا في قناع الواقع، على الرغم من أنه مازال سجينه. ولو فرضنا أنه فقد صاحبه لاعب الشطرنج الجميل، إلا أنه كان ما يزال يحتفظ بالموسى الحادة في جيبه. استمِرَّ إذن، يا هاري العجوز، أيها الوغد المتهالك العجوز.

آه، إلى الجحيم، ما أمرّ مذاق الحياة! بصقتُ على هاري في المرآة، رفسته ونثرته شظايا. سرت بخطى بطيئة في الأبواب بما تقدِّمه من عدد غفير من الوعود البراقة. لم يعد أي منها الآن يقدم إعلانًا. ورحت أتجاوز الأبواب المئة كلها في المسرح المسحور. ألم يكن ذاك هو اليوم الذي ذهبتُ فيه لحضور حفلة الأزياء التنكرية؟ لقد انصرمت منذ ذلك الحين وحتى الآن مئات السنين. وقريبًا ستتوقف السنون كلها دفعة واحدة، ولكن ظل هناك أمر واحد يجب القيام به. كانت هرمينه تنتظرني. كان سيكون زواجًا غريبًا، ودفعتني إلى الأمام موجة من الحزن العميق، دفعتني بوحشة، مسترقًا، إنسانًا–ذئبًا. آه، إلى الجحيم!.

توقفتُ عند آخر باب. لقد حملتني موجة الحزن حتى هناك. آه يا روزا !آه أيها الشباب الزائل! آه يا غوته! آه يا موتسارت!.

فتحته. وما رأيته كان لوحة بسيطة وجميلة، فعلى البساط الممدود على الأرض كان يستلقي جسدان عاريان، هرمينه الجميلة وبابلو الجميل جنبًا إلى جنب في حالة نوم عميق جراء الإرهاق الشديد بعد ممارسة الحب. جسدان جميلان جمالاً فائقًا، لوحتان ممتعتان، جسدان رائعان، وتحت نهد هرمينه الأيسر كانت علامة مستديرة حديثة العهد، رضة غامقة اللون، إنها عضة الحب من أسنان بابلو الجميلة، اللامعة. وهناك حيث كانت العلامة، غرزتُ سكيني حتى الغمد. فانبجس الدم فوق بشرتها البيضاء والرقيقة. وكان يمكن أن

أقبِّل الدم وألعقه كله لو أن شيئا كان قد حدث بشكل مختلف قليلاً. إلا أني في الواقع، لم أفعل. اكتفيت بمراقبة تدفق الدم، وراقبت عينيها وهما تُفتحان برهة وجيزة، تأملت بتساؤل عميق، ترى، ما الذي يدفعها إلى التساؤل؟ ثم تبدَّى لي أنه عليّ أن أغمض عينيها. لكنهما أغمضتا ثانية من تلقاء ذاتهما، وهكذا كل شيء. وتقلَّبتْ قليلاً على أحد جنبيها، وبدءًا من تحت إبطها وحتى نهدها رأيت ظلاً رقيقًا يعبث، وكأنه كان يرغب في أن يذكّرني بشيء، لكني لم أتذكر، ثم استلقيت بسكون.

تأملتها مطولاً، وأخيرًا تنبَّهت مع ارتعاشة واستدرتُ لأبتعد. رأيت بابلو يتمطى. رأيته يفتح عينيه ويتمطى بأطرافه ثم مال فوق الفتاة، وابتسم. قلت في نفسي: هذا الرجل لن يتعامل مع أي شيء بجد، إن أي شيء يدفعه إلى الابتسام. في هذه الأثناء طوى بابلو بحذر إحدى زوايا البساط، ودثّر بها هرمينه حتى صدرها ليستر الرضّة، ومن ثم خرج بصمت من المقصورة، إلى أين كان ذاهبًا؟ هل الجميع يتركونني وحدي؟ بقيت في مكاني، وحدي مع جسدها نصف المغطى الذي أحببته وحسدته. كان الشعر الصبياني يتدلى حتى يغطي الجسد الأبيض، وأشرقت شفتاها الحمراوان على شحوب الموتى في وجهها، وكانتا متباعدتين قليلاً، ونشر شعرها عطره المرهف ومن خلاله ومضت الأذن الصغيرة الشبيهة بالصدفة.

لقد تحققت أمنيتها. فقبل أن تصبح لي بأي حال، كنت قد قتلتُ حبيبتي. لقد فعلتُ ما لا يصدق، وها أنا ذا أركع وأحدق ولم أفهم على الإطلاق ماذا يعني هذا العمل، ما إذا كان خيرًا وصوابًا أم العكس. لم أعرف ماذا يمكن أن يكون تعليق لاعب الشطرنج الحاذق أو بابلو على هذا، ولم أكن قادرًا على التفكير. توهجت أكثر حمرة الشفتين

المرسومتين على شحوب الوجه المتفاقم. هكذا كانت حياتي كلها. إن سعادتي الصغيرة وحبي كانا أشبه بهذا الفم البارد الصارخ، حمرةً قليلة على قناع الموت.

ومن الوجه الميت، من الكتفين الأبيضين الميتين والذراعين الأبيضين الميتين، زفرت رعشة، وتسللت ببطء برودة صحراوية وعمّ القفر، ازداد الصقيع ببطء، تخدّرت يداي وشفتاي، فهل أطفأتُ الشمس؟ هل أفرغت القلب من كل أثر للحياة؟ أم أن برودة الموت والفراغ كانا يقتحمان هذا القلب ويتغلغلان فيه؟

حدَّقتُ وقد انتابتني هزةٌ إلى الحاجب المتحجِّر والشعر المتصلّب ووميض الأذن الشاحب البارد. كانت البرودة المتدفقة منها هي برودة الموت. ومع ذلك كانت جميلة، تضج، وتتذبذب، كأنّها موسيقى!.

أما كنتُ شعرتُ بهذه الهزة من قبل؟ أَلَمْ أجد فيها الفرح الخالص؟ أما سمعتُ هذه الموسيقى قبل الآن؟ نعم، مع موتسارت والخالدين.

خطرتْ أبياتٌ شعرية كنت قد صادفتها في موقعٍ مّا ببالي:

نحن المرتفعين فوقكم باقون أبدًا
في نجم الأثير ثلجًا شفافًا
لا نعرف نهارًا ولا ليلاً ولا تقطيع الزمن
لا نبلى ولا نشيخ ولا جنس لنا
وُجودنا الأبدي بارد وثابت
وضحكنا الأبدي بارد وساطع كالنجم

ثم فُتح باب المقصورة ودخل موتسارت، لم أتعرَّف إليه للوهلة الأولى لأنه كان دون ضفيرة، ويرتدي بنطالاً قصيرًا وحذاءً بإبزيم وبذلة حديثة. اتخذ له مجلسًا لصيقًا إلى جواري، وكنت على شفا

أن أُرجعه إلى الخلف بسبب الدماء التي سالت على الأرض من صدر هرمينه. جلس هناك وبدأ ينهمك بآلة ما وبأدوات معينة كانت إلى جانبه. تناولها بكل جدية، وأخذ يثبّتُ هذه، ويشدُّ برغي تلك، وأنا أتفرج متعجبًا من أصابعه البارعة والرشيقة، وتمنيت لو أني أراها وهي تعزف على البيانو، ولو مرة واحدة، ورحت أتابعه وأنا أفكر، أو بالأحرى وأنا في حلم شارد، تائهًا في إعجابي بيديه الجميلتين والماهرتين، وأيضًا ابتهجت بإحساسي بوجوده مع شيء من الخوف. ولم أبالِ بما كان يفعله وبالشيء الذي كان يشد براغيه ويعالجه بمهارة.

إلا أني سرعان ما اكتشفت أنه قد أصلح جهاز راديو وأعاده إلى العمل، ثم أقحم مكبر الصوت، وقال: «هنا إذاعة ميونيخ نقدم إليكم كونشرتو غروسّو من مقام صول الكبير لهاندل».

كانت دهشتي ورعبي يفوقان الوصف عندما أخذ القمع المعدني الشيطاني، يلفظ فورًا، دون مزيد من الجلبة، مزيجه من قذراته الشُعَبية وصوت مضغ المطاط، ذاك الضجيج الذي يصرُّ أصحاب الغرامافونات وأجهزة الراديو على تسميته بالموسيقى. وخلف أصوات القذارة والنعيب كانت هناك، ولا ريب، الخطوط العامة لتلك الموسيقى العلوية، مثل أستاذ عجوز رازح تحت طبقة من القذارة. لقد كان في إمكاني أن أتعرّف على البناء الفخم والاتساع الرحب والعميق وانحناء الأوتار الكامل والفسيح.

هتفت مرعوبًا: «يا إلهي، ماذا تفعل يا موتسارت؟ أحقًا تنوي أن تبليني وتبلي نفسك بهذه اللخبطة، بهذا الانتصار المعاصر، آخر سلاح ظافر في حرب إبادة الفن؟ ألا بد من هذا، يا موتسارت؟».

ولَكَمْ ضحك الرجلُ الخارق! يا له من ضحك بارد ومخيف. كان

بلا ضجيج ومع ذلك فكل شيء فيه كان يتفتت. انتبه إلى انزعاجي الشديد بارتياح عميق، وهو منحن يلعن البراغي ويصغي إلى البوق المعدني. وظل يضحك، وترك الموسيقى المشوهة، المقتولة والقاتلة تنز بلا انقطاع، وأجاب وهو ما يزال يضحك:

«أرجوك، بلا إثارة للشفقة يا صديقي! على أي حال، هل لاحظت الريتارداندو[1]؟ إنه إلهام، نعم، والآن أيها البرم، دع الريتارداندو يؤثر فيك. ألا تسمع الآلات الجهيرة؟ إنّها تخطو بخطى واسعة كالآلهة. ودع هذا الإلهام للعجوز هاندل يتغلغل في قلبك المترع بالقلق، ويمنحك السكينة. فقط أنصت، أيها المخلوق المسكين، أنصت فقط بلا شفقة أو محاكاة ساخرة، أنصت فيما بينما يمرّ شكل هذه الموسيقى العلوية بعيدًا جدًا خلف حجاب هذه الآلة البلهاء والسخيفة أبدًا. انتبه وسوف تتعلم شيئًا، لاحظ ما يفعله هذا البوق المتكلم المجنون، من الواضح أنه أشد الأشياء حماقة، وعقمًا، ورداءة في العالم، على أدائه. إنه يتناول بشكل اعتباطيّ قطعةً موسيقيةً عُزفت من قبل، قطعةً مشوهة بشكل يدعو للأسى، ثم يُقذَف بها إلى الفضاء لتحط حيث لا عمل لها. ومع ذلك فبعد كل هذا لا يمكنه أن يدمر الروح الأصلية للموسيقى، وكل ما يستطيع أن يفعله، مهما تطفَّل وشوّه، هو أن يضع آليّته العقيمة عند قدميها. أنصت، إذن، أيها المسكين. أنصت جيدًا. أنت بحاجة إليها. وها أنت الآن تسمع ليس فقط مقطوعة لهاندل الذي يبقى قدّيسًا على الرغم من تشويه الراديو له. لكنك تسمع أيضًا وتلاحظ، يا سيدي الفاضل، رمز الحياة كلها، الرمز الأكثر إثارة للإعجاب. وعندما تنصت إلى الراديو فإنك تكون شاهدًا على الحرب الأبدية بين الفكرة والمظهر، بين الزمن والأبدية، بين الإنساني والقدسي. تمامًا،

---

(1) ريتارداندو: في الموسيقى الغربية هو تباطؤ الإيقاع الموسيقي بالتدرج. (المترجم).

يا سيدي العزيز، كما يبث الراديو وعلى مدى عشر دقائق متواصلة أجمل موسيقى بشكل اعتباطيّ إلى أشد الأماكن غرابة، مثل غرف الجلوس الجامدة والعليّات. ويبثّها بين مستمعين يثرثرون، ويجرعون الشراب، وهم يتثاءبون ناعسين، ومثلما تجرِّد الحياة هذه الموسيقى من جمالها الحسي، وتفسدها وتخدشها، وتلوثها، وتعجز مع ذلك أن تدمر روحها تمامًا، فإن هذه الحياة، المسمّاة بالواقع، تتناول طابع الخيال المرح، الخيال السامي للعالم، وتجعل منه هرجًا ومرجًا. تجعل من نبرته، وقذارته المنفّرة أروع موسيقى أوركسترالية. إنها في كل مكان تبرز آليته ونشاطه ومتطلباته الكئيبة وتفاهته بين المثالي والواقعي، بين الأوركسترا والأذن. الحياة كلها هكذا، يا ولدي، وعلينا أن ندعها كما هي، إذا لم نكن حميرًا، نضحك منها. لا يليق بأناس مثلك أن يكونوا نقادًا للراديو أو حتى للحياة. الأجدر بك أن تتعلم أولاً كيف تنصت! تعلّم ما يجب أن تتناوله بجدية ومن ثم اضحك من الباقي. هل قمت بنفسك بما هو أفضل، وأنبل وأنسب وبذوق أرقى؟ أوه، لا، يا سيد هاري، أنت لم تفعل. لقد جعلت من حياتك تاريخًا فظيعًا للمرض، ومن مواهبك شيئًا مؤسفًا. وكما أرى ها أنت لم تجد ما تفعله بسيدة شابة، غاية في الجمال والسحر، غير أن تغرز السكين في جسدها وتدمرها، أتعتقد أن هذا تصرّف سليم؟».

صرخت يائسًا: «سليم؟ لا، يا إلهي، إن كل شيء مغرق في الزيف والحماقة الجحيمية والخطإ! أنا وحش، يا موتسارت، وحش أحمق وغاضب، مريض وعفن. هنا أنت على حق ألف مرة. أمّا هذه الفتاة، فكانت تلك رغبتها. وكل ما فعلت أني حققت لها أمنيتها».

أطلق موتسارت ضحكته الخرساء، لكنه أبدى لطفًا ضافيًا، وأغلق الراديو.

بدا تبريري لذاتي بصورة غير متوقعة أحمق تمامًا بالنسبة إليّ أنا الذي صدّقته من أعماقي. وظهر لي فجأة أنه عندما حدثتني هرمينه ذات مرة عن الزمن والأبدية، كنت مستعدًا لاعتبار أفكارها انعكاسًا لأفكاري. لكني اعتبرت أن من البديهي أن فكرة انتحاري هي إيحاء منها ورغبة ولا علاقة لي بها البتة. ولكن لماذا في تلك المناسبة لم أكتف بقبول تلك الفكرة الرهيبة والشاذة، بل لقد خمنت فيها مسبقًا؟ ربما لأنها فكرتي أنا. ولماذا لم أقتل هرمينه في اللحظة نفسها التي رأيتها مستلقية عارية بين ذراعَيّ شخص آخر؟ وجلجلت ضحكة موتسارت الخرساء المفعمة بالمعرفة وبالسخرية.

قال: «هاري، أنت مهرج كبير. أحقًا لم تكن هذه الفتاة الجميلة تريد منك إلا أن تطعنها بخنجر؟ قل هذا الكلام لشخص آخر! على كل حال، على الأقل طعنتها طعنة نجلاء. إن المسكينة جثة هامدة كفأر. والآن لعل اللحظة المناسبة قد حانت لإدراك عواقب شهامتك التي أبديتها نحو هذه السيدة، هل تفكر في أن تتملص من العواقب؟».

هتفتُ: «لا، ألا تفهم على الإطلاق؟ أأنا أتملص من العواقب؟ إن أمنيتي الوحيدة هي أن أدفع ثمنها، وأدفع، وأدفع، حتى أضع رأسي تحت الفأس وأعاقب بالإعدام».

رماني موتسارت بنظرة ملؤها السخرية المفرطة.

«أنت دائمًا مثير للشفقة، ولكن انتظر، وستتعلم الفكاهة، يا هاري. إن الفكاهة الحقة هي دائمًا فكاهة المشنقة، ولا خيار لك الآن غير أن تتعلّمها وأنت معلّق على المشنقة. أأنت مستعد؟ عظيم، إذن هيا بنا إلى النائب العام وليأخذ القانون مجراه معك إلى أن يقطع رأسك بهدوء عند انبلاج الفجر في فناء السجن، هل أنت مستعد؟».

على الفور ومضت عبارة أمام عينيّ:

فأومأت بالإيجاب. وقفت وسط فناء أجرد محاط بجدران من جهاته الأربع مزودة بنوافذ ذات قضبان، ورحت أرتعش في وجه نسيم الفجر الغائم. كان هناك عدد من السادة يرتدون معاطفهم وبزاتهم الصباحية، وثمّتَ مشنقة قد نصبت حديثًا. انقبض قلبي من فرط البؤس والرعب، لكني كنت مستعدًا ومذعنًا. وبناءً على أمر صدر إليّ تقدّمتُ، وبناءً على أمر آخر ركعت. خلع النائب العام قلنسوته، وتنحنح فتنحنح كل الرجال الحاضرين، وفتح وثيقة رسمية ونشرها أمامه، وقرأ بصوت عال:

«أيها السادة، يقف أمامكم هناك هاري هاللر، المتهم والمدان بسوء الاستخدام المتعمد لمسرحنا السحري. ولم يكتف هاللر بإهانة جلال الفن بإرباكه معرض صورنا الجميل بما يسمى بالواقع، لم يكتف بطعن انعكاس صورة فتاة حتى الموت بانعكاس سكين، بل كشف عن أنه مجرَّد من روح الفكاهة. وبناءً عليه نحكم على هاللر بالحياة الأبدية، ونعلق مدة اثنتي عشرة ساعة سماحنا له بدخول مسرحنا. وأيضًا يعاقب بالضحك منه دون توقف وهو يغادر قاعة المحكمة. أيها السادة، كلكم معًا، واحد، اثنان، ثلاثة !».

لدى لفظه «ثلاثة» انفجر جميع الحاضرين في نوبة ضحك في آونة واحدة، ضحك جماهي، ضحك مخيف، قادم من العالم الآخر لا تكاد تتحمله الآذان البشرية.

حين عدت إلى نفسي ثانية، كان موتسارت جالسًا بجواري كما السابق. فصفعني على كتفي، وقال: «ها قد سمعت الحكم الصادر بحقك. وهكذا، كما ترى سيترتب عليك أن تتعلم كيف تنصت إلى

المزيد من موسيقى الحياة التي يبثها الراديو. سوف تنصت تدريجيًا إلى أن تستوعب ما هو مطلوب منك، عليك أن تتعلم أن تضحك، سيُطلب منك هذا، ويجب أن تدرك الجانب الفكه من الحياة، فكاهة مشنقة، لكنك طبعًا مستعد لكل شيء في العالم ما عدا ما سيُطلب منك، أنت مستعد لأن تطعن الفتيات حتى الموت، ومستعد للموت بكل رصانة. وسوف تكون مستعدًا بلا ريب لتعذيب نفسك ومعاقبتها على مدى قرون تالية، أليس صحيحًا؟».

هتفت وأنا في غمرة بؤسي: «آه، نعم إنني مستعد بكل جوارحي».

«دون شك، فعندما يتعلّق الأمر بأي شيء أحمق ومثير للشفقة وخال من روح الفكاهة والظرف، فأنت الرجل المناسب، أيها المأساوي. أما أنا، فلستُ كذلك، إنني لا آبه أبدًا لكل قصصك الرومانسية عن الكفارة. لقد رغبتَ في أن تُعدم، وأن يُقطع رأسك أيها المسعور! وبسبب هذه الفكرة المثالية الحمقاء ستظلّ حيّا إلى الأبد. اللعنة، إنّك ستعيش! وقد كنت تستأهل أن تُدان بأقسى العقوبات».

«أوه، ما هي؟».

«كان في إمكاننا، مثلاً، أن نعيد هذه الفتاة إلى الحياة من جديد وأن نزوجك منها».

«لا، ما كنت لأكون مستعدًا لذلك، كان سيجلب لي التعاسة».

«وكأنما لا يكفيك ما لديك من تعاسة في كل ما أعددته للتو! ولكن، دعنا من حديث الشجن والموت. حان الوقت لتعود إلى رشدك. عليك أن تعيش، وأن تتعلم أن تضحك. عليك أن تنصت إلى موسيقى راديو الحياة، وأن تجلّ الرّوح الكامنة خلفها، وأن تضحك من الصوت الغريب فيها، هذا كل شيء، لن يطلب منك أكثر من ذلك».

سألت برفق وأنا أصر أسناني: «وإذا لم أُذعِن؟ وإذا أنكرتُ عليك

الحق، يا موتسارت، في أن تتدخل في شأن ذئب البراري، وأن تتطفل على قدَرِه؟».

قال موتسارت بهدوء: «عندئذ سوف أدعوك إلى أن تدخّن سيجارة أخرى من سجائرك الرائعة»، وبينما هو يتكلم ويخرج سيجارة من جيب صدرته، ويقدمها إليّ، إذ به فجأة لم يعد موتسارت، إنه صديقي بابلو يرنو إليّ بود ضافٍ من عينيه الغريبتين الداكنتين، وكان يشبه الرجل الذي علمني لعب الشطرنج بالأشكال الصغيرة كأنه توأمه.

هتفتُ بإجفال وتشنج: «بابلو! بابلو ! أين نحن؟».

قال وهو يبتسم: «نحن في مسرحي السحري، وإذا رغبت في أي وقت في أن تتعلم رقصة التانغو أو في أن تكون جنرالاً أو أن تتجاذب الحديث مع الإسكندر الأكبر، فإن ذلك رهن إشارتك. ولكن يجب أن أقول، يا هاري، إنك قد خيّبت ظني قليلاً، لقد نسيت نفسك بشكل رديء، واقتحمت عالم فكاهة مسرحي الصغير، وحاولت أن تشيع الفوضى فيه، وأنت تطعن بالخناجر، وتلوّث صورة عالمنا الجميلة بطين الواقع. لم يكن ذلك جميلاً منك. آمل، على الأقل، أن تكون قد فعلت ذلك بدافع الغيرة عندما شاهدتني مع هرمينه مستلقيَين هناك. لسوء الحظ، إنك لم تعرف ماذا تفعل بهذا الشكل، حسبتك تعلمت اللعبة أفضل من ذلك. حسنًا، سوف تُحسن التصرف في المرة القادمة».

تناول هرمينه التي انكمشت على الفور بين أصابعه إلى أبعاد دمية-نموذج، ووضعها في جيب الصدرة نفسها التي أخرج منها السيجارة.

انتشر دخانها حلو الرائحة والكثيف في عبق ممتع، وكنت منهكًا من التعب ومتهيئًا للنوم مدة عام كامل.

لقد فهمت كل شيء، فهمت بابلو، فهمت موتسارت، وسمعت في مكان ما خلفي ضحكته الرهيبة. أدركت أن المئة ألف قطعة في لعبة الحياة موجودة في جيبي، وقد حرَّكَ عقلي قبسٌ من معناها، وصمَّمتُ على أن أباشر اللعبة من بدايتها، سوف أختبر عذاباتها مرة أخرى، وأرتعش من جديد لعَبثِها. سوف أعبر جحيم وجودي الداخلي ليس مرة واحدة، بل مرارًا.

ذات يوم سوف يتحسن أدائي في اللعبة. ذات يوم سوف أتعلم الضّحك، إن بابلو ينتظرني، وموتسارت كذلك.

ألف راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

الساعة الخامسة والعشرون

المؤلف: قسطنطين جيورجيو

البلد: رومانيا

ترجمة: فائز كم نقش

إنّ رواية «الساعة الخامسة والعشرون» أحد أكثر الأعمال السردية الباعثة على أسئلة جذرية حول مصير الإنسان المأسَوِيّ، رواية تتجلّى فيها أصداء الملاحم الكبرى، والتراجيديات الإغريقيّة والمآسي الشكسبيريّة، ومجمل الأعمال التي انصبّ اهتمامها على مصير الإنسان، لذلك فهي تنتسب إلى سلالة الآداب السرديّة الرفيعة الخالدة.

ولعلّ القرّاء يشاطرونني الرأي القائل إنّ كثيرا من الروايات يتلاشى حضوره من الذاكرة بمرور الأيام، وتصبح استعادة أجوائه صعبة، وربما شبه مستحيلة، وقليلا منها يدمغ الذاكرة بختمه الأبدي، ومن ذلك القليل النادر، في ما أحسب، رواية «الساعة الخامسة والعشرون»

د. عبد الله إبراهيم

أحدثت هذه الرواية ضجّة في أوروبا كلّها لم يحدثها كتاب مماثل من قبل، فترجمت إلى أكثر من 40 لغة وأعيد طبعها في فرنسا وحدها 78 طبعة، أمّا في شرقنا العربيّ فقد حظيت بتقريظ واف، فقال بعضهم فيها: «إنّها أفضل كتاب صدر بعد جمهوريّة أفلاطون» وقال آخرون: «لم يسبق لكاتب أن نجح في هزّ مشاعر جماهير العالم كلّه نجاح مؤلّف هذا الكتاب»

فائز كم نقش

ظلّ الريح
(مقبرة الكتب المنسيّة)
المؤلف: كارلوس زافون
البلد: إسبانيا
ترجمة: معاوية عبد المجيد

أيّ قدرة لهذا الروائي الماكر على التلاعب بهذا الحشد الغفير من الشخصيّات؟ أيّ براعة تجعله يحوّل كلّ عنصر مَهْما كان بسيطا إلى متعة خالصة؟ لأوّل مرّة يعبث بي عمل روائيّ بمثل هذا الشكل، وكلّما توقّعت النصّ سائرا في طريق وجدتني على الضفّة الأخرى، فيما الكاتب يرسل إليّ تحيّاته من بعيد وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة. لكأنّنا إزاء علبة باندورا، كلّ علبة تخفي علبة أخرى، ومع كلّ علبة تزداد شرور الكاتب وهو يتلاعب بقارئه دون رحمة، مُقدّما لكلّ صنف من القرّاء ما يحتاج إليه: حبكةً بوليسية للقارئ البسيط تجعله يلهث لمعرفة الأحداث، مسحةً رومانسية تجعل قارئا آخر متورّطا في دوّامة من قصص الحب، قطعةً من تاريخ الحرب الأهلية في إسبانيا للمؤرّخ، وحشدًا من الرموز لعلاقة الكتابة بمفاهيم اليُتم والوجود والحياة.. لن أكشف الحكاية فهي على المتعة العالية التي تمنحها للقارئ لا تشي ببراعة زافون السرديّة فحسب بل تضعنا وجها لوجه أمام حشد من الأسئلة والمفاهيم،

إنّنا قبالة عمل سرديّ عظيم، ولم يكن وزير خارجية ألمانيا الأسبق يوشكا فيشر يبالغ وهو يتحدّث عن كتاب في 521 صفحة، حين قال: «ستقرأ الرواية في جلسة واحدة، ولن تنام الليل وأنت تتعقّب ظلّ الريح. لن يسمح لك زافون بأن تترك الكتاب قبل أن تبلغ الجملة الأخيرة» ولعلّه كان يقصد: «قبل أن ترتشف الجملة الأخيرة»

شوقي العنيزي

آخذك وأحملك بعيدا

المؤلف: نيكولو أمانيتي
البلد: إيطاليا
ترجمة: معاوية عبد المجيد

«آكلو لحوم البشر» اسم جيل روائيّ جديد تزعّمه نيكولو أمانيتي، اسمٌ مُدوّ، جارح، محيّر ومربك، متوحّش وفضّاح، العالم مخز، هذه هي الحقيقة، ولحم البشر مأكول ورخيص وهو أقلّ الأشياء اعتبارا في عالم تهاوت جميع قيمه، اسم يقلق الرّاحة، يزيل القشرة ويكشف الوسخ المتلبّس باللحم والعظم، ولأنّه كذلك فإنّ أمّانيتي يستنبط أسلوبا خاصّا، لم نألفه من قبل لا في الرواية الإيطاليّة ولا الأوروبية، علامتُه الفارقة: «آخذك وأحملك بعيدا».

رواية طويلة تقرأ مرّة واحدة، لن تقدر على تركها قبل إكمالها، ستجد نفسك غارقا في التّفكير في حياتك قائلا «متى سأستفيق من هذه الخرافة؟»، حينما ستبدأ الإجابة يكون الكتاب قد تحوّل من كلام على الورق إلى طريق، ما حقيقتك؟ هل لديك القدرة على تغيير مسارات حياتك؟ هل يجب أن تكون على هامش الحياة، أم أحد أبطالها؟ أسئلة لم تطرح أبدا في أثر روائي بكلّ هذه القسوة والدويّ.

الآن أكملت القراءة، وليس أمامي إلاّ وضع قدميّ على أوّل الطّريق.

نصر سامي

السنة المفقودة

المؤلف: بيدرو ميرال
البلد: الأرجنتين
ترجمة: أشرف القرقني

«هي رواية صغيرة، ولكنها عبقرية، فيها تتكلّم رسوم سالفاتييرا من تلقاء ذاتها لتقول لنا: كان يا ما كان...»

صالح علماني

«إنها رواية الزهد اللاتيني، رواية الصمت وخيبة الأمل أيضا. سالفاتييرا الذي سيصاب بالخرس في طفولته، بعد سقوطه من على ظهر حصان، سيهتدي إلى لغة أخرى بعد أن فقد نعمة الكلمات، وسيقضي ستين سنة في رسم لوحة واحدة طولها أربعة كيلومترات. لم يكن يفكر في عرضها على المتاحف وتجّار الفن وهواة الأرقام القياسية، لم يلجأ إلى الإعلام، لم يكن معنيا على الإطلاق بمكبرات الصوت والصورة في عالم الفن. لقد كان سالفاتييرا منشغلا بالرسم فقط، بتلك اللوحة التي ظلت تتدفّق على طول السنين ولم يوقفها سوى الموت.»

عبد الرحيم الخصّار

«تكون في راحة من عقلك وبمجرد أن تتصفّح الكتاب يختلّ توازنك، وتمضي في نهر الحكاية مسحوبا باندفاع التيّار، بعيدا عن غرفتك، عن طاولتك وكرسّيك ومصباح مكتبك، وأنت تجذّف خلف الرّاوي باحثا عن لفافة الرسم الضائعة. تجتاز قرى أرجنتينية، تقابل صيّادين ومهرّبين، تمشي على طول أنهار موحلة وتركب عبّارة صدئة في جنح الظلام قبل أن تهتدي إلى أنّك كنتَ بصدد البحث عن قصيدة رسمها بيدرو ميرال وكتبتها عيناك على الطريق وأنت تقرأ».

زياد عبد القادر

أسرار

المؤلِف: كنوت هامسُن
البلد: النرويج
ترجمة: أماني لازار

هل عاد دوستويفسكي مرة أخرى إلى الحياة ليكتب نصًّا أدبيًّا نُشر تحت اسم كنوت هامسُن؟ أم أن هناك بالفعل روائيًّا آخر يستطيع أن يصل إلى ذروة التحليل النفسي لشخوص أبطاله بقدر ما كان يفعل دوستويفسكي؟ لقد ذهب أحد الروائيين إلى حدود الإقرار بأن هامسُن تخطّى دوستويفسكي نفسه، قد لا أتفق معه بشكل كامل ولكن- بعد قراءة «أسرار»- يمكن أن أقول إنّ هامسُن وصل إلى مناطق مخيفة في النفس البشرية لم يصل إليها دوستويفسكي نفسه. لم أتخيل بأنّي سأقول هذا الكلام في يوم من الأيّام، ولكن هامسُن فعلها بجدارة، وكانت مفاجئة بالنسبة إليّ، مفاجأة لم أتخيّلها حقًّا.

في هذه الرواية لا يسرد كنوت هامسُن بل يضرب، وكأنّ ما يُكتب به النصّ مطرقة وليس قلمًا. مطرقة تحطم وتبعثر. وهذا الضرب السردي مكتوب بلغة عذبة وشعرية للغاية.

يحفر هامسُن في أعماق شخصيّاته ولا يكفّ عن الحفر... من قال إنّ هناك عمقًا قد ينتهي؟ ففي النهاية لا وجود لغير هاوية سحيقة، هاوية لا قرار لها!

ممدوح عبد الله

بوذا في العالم السفليّ

المؤلف: جولي أوتسوكا
البلد: أمريكا-اليابان
ترجمة: أبو بكر العيّادي

هي أوديسة من نوع خاص. إبحار إلى ديار بعيدة دونما أمل في العودة. ارتحال مجموعة فتيات معدمات من أرياف اليابان وقراه المنسية بحثا عن زوج يحفظ لهن عيشا غير الذي كن يعشنه في مزارع الأرز البائسة. بنات أغلبهن عذارى يحملن صور أزواج لا يعرفنهم، وألبسة تقليدية بسيطة، وأشياء أخرى حميمة يحفظنها بين دفوف كتب من نوع «مرحبا أيتها الآنسات اليابانيات!» أو «دليل المسافر إلى أمريكا» ويخبّئن بين الضلوع أسرارا لا يبحن بها لأحد، ورغائب ومخاوف. رغائب أنثوية بفرحة العمر، ومخاوف منح الجسد لرجل مجهول في بلد مجهول.

رحلة شاقة في قعر باخرة قديمة تمخر عباب المحيط الهادئ باتجاه كاليفورنيا، تنجاب حين أرست مراسيها عن واقع مرّ يرديهنّ إلى درك وضيع، حيث يكتشفن أن الواقع غير ما حملته الرسائل، وأن الصور المرسلة قديمة يرجع عهدها إلى عشرين عاما، وأن الأزواج الموعودين عمال بسطاء في مزارع القطن والخضروات...

هذه الأوديسة هي حلقة منسية من تاريخ اليابان الحديث، أعادتها إلى الذاكرة جولي أوتسوكا، وهي كاتبة أمريكية من أصل ياباني، حازت بفضل هذه الرواية جائزة فوكنر للرواية سنة 2011 وجائزة فيمينا للرواية الأجنبية في فرنسا سنة 2012.

أبو بكر العيادي

قطار الليل إلى لشبونة

المؤلّف: باسكال مرسييه
البلد: سويسرا
ترجمة: سحر ستّالة

منذ الصفحات الأولى لـ«قطار الليل إلى لشبونة» يُسمع صدى صوت عنيد، يكبر على امتداد الصَّفحات و لا ينفك يردد بأن هذا الكتاب الضخم رواية عظيمة. رواية قادمة من عصر آخر، عصر الإنسانيات قبل أن تدمّر السخرية أو اللامبالاة حبّ المعرفة.

الفيغارو

تتداخل الأحداث والأمكنة والذكريات، وتتدفّق المشاعر والمعارف والأفكار في نهر واحد ليس شيئا آخر سوى نهر الذّات وهي تستيقظ على نداءاتها المكتومة وأسئلتها المهملة: «إذا كان صحيحا أننا لا نعيش إلّا جزءا صغيرا مما يعتمل في داخلنا، فما هو مصير بقية الأجزاء إذن؟». سؤال مهمل من بين أسئلة كثيرة أخرى لا يكفّ هذا العمل الساحر عن إيقاظها فينا حتى تغدو حياتنا بأسرها موضع سؤال. ما الأدب إن لم يكن طريقا إلى الإنسان؟ وما قطار الليل إن لم يكن رحلة في خبايا الذات؟ وما الذّات إن لم تكن الفريد والمختلف والغريب في وجه المشترك والمؤتلف والمألوف؟

لا قطار ولا ليل ولا لشبونة، إنّها دعوة لكلّ واحد منّا كي يقتطع تذكرته الخاصّة بحثا عن الإنسان فيه، الإنسان الذي تركه غريبا مُهملا في محطة مهملة على سكّة الحياة.

شوقي العنيزي

رحلة في أقاصي الليل

المؤلف: لويس فرديناند سيلين
البلد: فرنسا
ترجمة: حسن عودة

«ستكون بمثابة الخبز لقرن كامل من الأدب.»

سيلين متحدثا إلى ناشره

«هناك كتب يصعب تفسيرها: تبدو كأنها خرجت من حيث لا ندري، ولكن عندما نقرؤها، سرعان ما نتساءل كيف عاش العالم من دونها. و«رحلة في أقاصي الليل» تنتمي إلى تلك السلالة النادرة: بداهتها توقع الاضطراب في حياة كلّ قرائها. لغتها الخام تغيّر طريقتكم في الحديث والكتابة والقراءة والحياة. لا يمكن لأحد أن ينجو منها. كم أحسد منكم أولئك الذين لم يقرؤوا بعد هذه اللوحة الملحمية»

فريدريك بيغبيدي

إنّ «رحلة في أقاصي الليل» لسيلين أهم رواية فرنسية بالنسبة إلينا... لقد حفظنا عن ظهر قلب مقاطع كاملة منها. كانت فوضويَّتها قريبة من فوضويتنا نحن. ولقد كُتبت نكاية في الحرب، في الاستعمار، في الرَّداءة، في التعابير الشائعة، وفي المجتمع، كُتبت بأسلوب أخّاذ فتننا جميعا. لقد نحتَ سيلين آلة جديدة: كتابة أعلق بوهج الحياة من الكلمات. ولقد قلبت أسلوب سارتر رأسا على عقب.»

سيمون دي بوفوار

حيث تركتُ روحي

المؤلف: جيروم فيراري
البلد: فرنسا
ترجمة: محمد صالح الغامدي

في منتصف الرواية يقول القائد لجنوده: «أيها السادة، إنّ العذاب والألم ليسا المفتاحين الوحيدين لسبر أغوار الروح. بل هما، أحياناً، بلا جدوى. لا تنسوا أنّ هناك مفاتيح أخرى: الحنين، الكبرياء، الحزن، العار، الحبّ. انتبهوا جيّدا للشخص الماثل أمامكم. لا تتشبّثوا بآرائكم دون فائدة. ابحثوا عن المفتاح. يوجد دائما مفتاح.»

بعيدا عمّا يمكن أن يثيره هذا الخطاب، فإنّه يلخّص بشكل جيد موقف جيروم فيراري الروائيّ وأستاذ الفلسفة معا، جيروم فيراري الّذي لا يكفّ في هذه الرواية عن سبر أغوار الروح الإنسانيّة في أشدّ زواياها ظلمة وأكثرها التواءً بأسلوب محتدم ومتقن وعاطفي.

إنّها حكاية شخصين ورفيقي سلاح أنجبتهما الحرب.

في تسلسل الأزمنة والأمكنة التي توحي باستمرار العنف الأعمى والدموي يرتسم طريق وعر وقاحل خارج العالم. محنة خاضها رجلان في مواجهة ذاتيهما وشيطانيهما. من هذا الغوص في الهاوية المزعجة والمرعبة، من هذا البحث المستحيل في ما وراء الخير والشر، تطالعني شخصيّا قناعة راسخة وهي أنني قرأت واحدة من أشد الروايات تأثيرا في حياتي.

كريستين روسو

صحيفة لوموند

هرمان هيسه

ذئب البراري

واقفاً على حافّة العالم البشريّ، خائفًا من الدخول إليه، وغيرَ قادرٍ على الهرب منه، يُطالعنا هاري هاللر الشخصيّة المحوريّة في هذه الرواية، ونافذة هرمان هيسه للإطلالة على الذات البشريّة وهي تتمزّق بين الانتماء واللانتماء، بين الثقافيّ الذي يشدّها إلى الآخر، والطبيعيّ الذي يفضح توحّش الذات ويزيد من اغترابها. ألا يسكن في كلّ واحد منّا ذئب البراري الساكن في هذه الرواية؟ ألا يعوي في دواخلنا ونحن نلفّه بالصمت؟ ألا يكشّر عن أنيابه ويرفع مخالبه عاليا في وجه عالم يغلّفه الزيف وتتراكم أقنعتُه يوما بعد آخر؟

تعتبَر هذه الرواية التي مثّلت صدمةً لقرّاء هيسه عند صدورها، لحظة انشقاق في تجربته الإبداعيّة، وعلامة فارقة عدَل من خلالها عن كتاباته الرومانسيّة الأولى، وأشرع الأبواب على باطن الإنسان تعصف به رياح القلق والحيرة، وتحرّكه الرغبات العمياء والمكبوتات الدفينة. لذلك فإنّها تكره القارئ العاديّ البسيط المسالم وتريد قارئا ذئبا لا يتردّد عن رفع مخالبه وإزاحة الأقنعة.

الناشر

ISBN: 978-9938-833-53-9


